Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق

Bibliotheca Alexandrina
01333797

دار الثقافة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدكتور محمود اسماعيل عبد الرازق

أستاذ بكلية الاداب — فاس

الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

رسالة دكتورة

نشر وتوزيع

دار الثقافة

32 – 34 شارع فكتور هيكو

الهاتف 30.76.44 / 30.23.75

ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبعة الثانية 1406 ــ 1985

جميع الحقوق محفوظة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة

لعب الخوارج دورا بارزا فى تاريخ بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واثروا فى احوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت بلاد المغرب اكثر بقاع العالم الاسلامى تقبلا لعقائد الخوارج واكثرها حماسا لنصرتهم · فباعتناق المغاربة مذهب الخوارج ، رفعوا علم الثورة على الامويين والعباسيين ، وانتهى بهم الأمر الى اقامة امارتين مستقلتين هما امارة بنى مدرار وامارة بنى رستم ·

وبقيامهما شهدت بلاد المغرب عصرا من الاستقلال السياسى والازدهار الاقتصادى والثقافى كان لها عوضا عن فترة القلاقل والاضطربات السياسية والأزمات الاقتصادية التى صحبت عصر الثورة .

ثم قامت الدولة الفاطمية ، وقضت على دول المغرب المستقلة ، فهب الخوارج من جديد ضد الفاطميين وسياستهم القائمة على التعصب للمذهب الشيعى ، وهددوا بازالة النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب · حقيقة لم يقدر لثوراتهم النجاح ، الا انها ارغمت الفاطميين على التحول من سياسة العنف والتعصب الى اللين والاعتدال .

تصارى القول — ان تاريخ المغرب الاسلامى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى تاثر بحركات الخوارج تاثرا كبيرا · وعلى الرغم من ذلك ، نفتقر الى دراسة متكاملة عن الخوارج فى المغرب واثرهم فى تطوره السياسى ، ودورهم فى تاريخه من بدء الثورة الى تحقيق الاستقلال ، ثم العودة الى الثورة مرة اخرى . لا ننكر انه ظهرت بعض الدراسات الخاصة بثورات الخوارج ، لكنها عولجت فى ثنايا التاريخ العام للمغرب الاسلامى ، او فى ثنايا الحديث عن سياسة عمال الخلافة فى البلاد · كما ظهرت كتب تعرض لدول الخوارج فى المغرب لكنها لم تتناول اكثر من ظروف قيامها فقط . هذا هو ما قرره ثقاة الدارسين من امثال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوتييه (1) وفورنل (2) وجوليان (3) وبيكيه (4) وجورج مارسيه (5) .

والواقع أن عديدا من المصاعب تعتور سبيل من يتصدى للتاريخ لهذا الموضوع ، ففى بعض الاحيان تندر المادة التاريخية كما هو الحال بالنسبة لظهور الخوارج فى المغرب ، وكذلك دولة بنى مدرار بسجلماسة ، فعلى الرغم من كثرة ما دون عن تواريخ الخوارج لم يصل الينا منهـا الا القليل النادر (6) ·

وما وصلنا من معلومات كان اغلبها من مصادر معادية للخوارج دأب اصحابها على تشويه سيرهم والطعن فى مبادئهم وافكارهم ، وليس أدل على ذلك من افتعال الاحاديث النبوية واصطناعها لخدمة أغراضهم فى تسفيه الخوارج وتحقير شأنهم (7) ·

ومن ناحية أخرى فان ما وصلنا من تواريخ الخوارج يقتصر فقط على الاباضية منهم دون الصفرية ، وتنطوى على التعصب الشديـد للمذهب الاباضى وائمته ، وتتحامل على الفرق الاخرى من الخوارج ، ناهيك عن عدائها المقيت للمذاهب والفرق الاسلامية من غير الخوارج · وفضلا عن ذلك تمتلىء بالأساطير والخوارق والكرامات التى لا تستقيم مع منطق التاريخ .

ولا مناص للباحث عن دراسة مصادر هذا التاريـخ وتقييمهـا والكشف عن ميولها واتجاهاتها قبل الاقدام على استقاء معلوماته منها .

ولما كان تاريخ الخوارج فى المغرب قاسما مشتركا بين الخلافة السنية والشيعية ، فمن المفيد أن ندرس مصادر هذا التاريخ ونصنفها الى مصادر سنية وشيعية وخارجية ·

اولا : المصادر السنيـة :

المادة التاريخية المتعلقـة بالخوارج فى المصادر السنية متفرقـة

(1) Les siecles obscurs du Maghreb. P. 292.
(2) Les Berbers. Vol. 2. P. 4.
(3) Histoire de l'Afrique du Nord. P. 339.
(4) Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 67.
(5) مادة بنى رستم بدائرة المعارف الاسلامية ص 93 ·
(6) انظر ابن النديم : الفهرست ص 258 .
(7) راجع : البلاذرى : أنساب الاشراف ج 11 ص 106 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومبعثرة فى الحوليات العامة أو التواريخ الاقليمية · وأقدم التصانيف فى تاريخ المغرب عبثت بها يد الدهر ، فلم يصلنا منها سوى شذرات متفرقات نقلها المتأخرون . لعل من أهمها كتاب مسالك افريقية وممالكها ، والمؤلفات الخاصة بأخبار تيهرت وسجلماسة وغيرها من المدن المغربية ، تلك التى نسبت الى محمد بن يوسف الوراق (291 ــ 362 هـ) « الحافظ لاخبار المغرب » كما ذكر ابن حيان (8) · والوراق مؤرخ أندلسى نشأ بالقيروان وتوفى بقرطبة (9) ، وقد فقد تاريخه كله ، وان وجدت فقرات منه عند البكرى .

وينسحب نفس القول على ابن القطان (ت 628 هـ) صاحب كتاب نظم الجمان ، وان كان بروفنسال قد عثر على جزء منه خاص بنهاية عصر المرابطين وأوليات سنى الموحدين ، وكذلك الحال بالنسبة لكتاب « العبر » لابن أبى الفياض (ت 459 هـ) (10) . والى عهد قريب كان تاريخ الرقيق القيروانى (ت أوائل القرن الخامس الهجرى) فى حكم المفقود ، لكن لحسن الحظ قدر لنا الوقوف على جزء منه عثر عليه الأستاذ محمد المنونى المكناسى سنة 1965 م بالخزانة العامة بالرباط ، استفدنا منه أيما فائدة فى دراسة ثورات الخوارج فى بلاد المغرب ·

وهذا الجزء الذى يقع فى مائة وخمسين صحيفة حققه الأستاذ المنجى الكعبى التونسى ونشره سنة 1968 م بعنوان تاريخ افريقية والمغرب · ومؤلفه هو أبو اسحق عمر بن القاسم المعروف بالرقيق القيروانى · ولا نعلم كثيرا عن نشأته ، انما نعرف أنه تولى رئاسة ديوان الرسائل فى البلاط الصنهاجى ، ومن ثم فقد أتيح له الاطلاع على كثير من الوثائق والتواليف فى تاريخ المغرب قل أن توافرت لغيره ، بفضلها كتب تاريخه المشهور ابتداء بالفتح الاسلامى للمغرب حتى أوائل القرن الخامس فى عدة مجلدات لا نعلم عنها شيئا قط .

ولا شك فى أن الرقيق كان سنى المذهب بدليل اشتغاله فى بلاط بنى زيرى ، لكن اتجاهاته المذهبية ــ والحق يقال ــ لم تنعكس على كتاباته بشكل يسترعى النظر · وقد نقل عنه معظم من صنف بعده فى

---

(8) المقتبس فى اخبار بلد الاندلس . تحقيق الحجى ص 33 ·

(9) بغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس ص 131 .

(10) انظر : عبيد الله ابن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب . نشره بروفنسال · ص 198 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخ المغرب الاسلامى كابن عذارى والنويرى وابن خلدون وغيرهم وعلى الرغم من ذلك فقد حفل الجزء الذى نشر بتفصيلات كثيرة لم توجد عند من نقلوا عنه ، كتلك التى تتعلق بمعركتى القرن والاصنام ، وثورة ابن عطاف الاسدى على عبد الرحمن بن حبيب ، وامامة الحارث وعبد الجبار الاباضيين ، وحصار عمر بن حفص بطبنه سنة 152 هـ . وقدر لنا اعتمادا على هذه المادة الجديدة ان نكون اول من استفاد بها فى التاريخ لثورات الخوارج ببلاد المغرب .

والراجح أن جزء آخر من تاريخ الرقيق وصل الينا عن طريق ابن حماد فى كتابه المعروف بأخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، اذ ذكر فاندرهيدن (11) الذى نشره أن ابن حماد نقل النص برمته عن الرقيق . وجدير بالذكر أن هذا النص يتعلق بحركة أبى يزيد مخلد بن كيداد اساسا وليس تاريخا للخلافة الفاطمية فى المغرب كما يوحى العنوان . على كل حال ، فلو صح قول فاندر هيدن نكون قد استفدنا فى دراستنا للخوارج فى المغرب بمعلومات مستقاة من تاريخ الرقيق لم تتوفر للدارسين من قبل .

وثمة مصدر سنى آخر غاية فى الاهمية ، وهو سيرة الائمة الرستميين لابن الصغير المالكى (12) ، والواقع انه ليس لدينا ثمة ما يشير الى اصل ابن الصغير او نشأته ، وكل ما نعرفه انه اقام بتاهرت فى العصر الرستمى الأخير ، كشيخ من شيوخ المالكية ، كانله نشاط بارز فى المساجلات والمحاورات التى شهدتها تاهرت بين مشايخ الطوائف المذهبية المختلفة ، اذ يصور فى كتابه جدله فى المسائل الفقهية والدينية مع رؤساءالاباضية والمعتزلة ، كما نعلم من تاريخه انه كان يعمل تاجرا ويملك « دكانا فى الرهادنة » ، (13) على أن أهميته كمؤرخ دقيق نابه أمر لا يرقى اليه الشك . والراجح أنه صنف تواليف أخرى لم تصل الينا ، فأسلوبه ومنهجه كما يتضح فى تاريخه للدولة الرستمية ينم عن طول باع فى ميدان التاريخ . على كل حال وقف المستشرق Motylinski على كتابه عن سيرة الائمة الرستميين ونشره سنة 1905

---

(11) انظر : Histoires des Rois Obeidides. P. 9.

(12) صنفه الدكتور سعد زغلول — خطأ — ضمن مؤرخى الاباضية . انظر : تاريخ المغرب العربى ص 27 م .

(13) ابن الصغير : ص 46 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحت عنوان :

Chronique d'Ibn Saghir sur les Imams Rostimides des Tahert. (14)

ويخيل الينا أن تاريخ ابن الصغير أهم مصادرنا عن دولة بنـــى رستم ، فهو معاصر لاحداث العصر الرستمى الاخير وشاهد عيان لها ، كما استمد معلوماته عن بنى رستم الاوائل من معاصريه من شيوخ الاباضية وغير الاباضية · ولكونه سنيا مالكيا فقد كشف لنا عن كثير من أسرار عصره ، مما تغاضى عنه مؤرخو الاباضية ، كما قدم لنا وجهة النظر المقابلة لتلك التى تتعصب للامامة الرستمية · ومن الانصاف أن نذكر أن ابن الصغير كان موضوعيا فى تاريخه ، اذ كثيرا ما أبدى اعجابه بسيرة الراشدين من الائمة الرستميين ، ولم يثنه خلافه المذهبى عن الاشادة بسياساتهم · ولم يقدر لابن الصغير أن يشهد نهاية دولة بنى رستم مما يرجح انه مات فى التسعينات من القرن الثالث الهجرى اذ يقف تاريخه عند امامة أبى حاتم يوسف بن محمد (ت 294 هـ) .

أما ابن عذارى وتاريخه المعروف بالبيـــان المغـــرب ، فيجمـــع الدارسون (15) على أهميته كتاريخ عام للمغرب الاسلامى أقرب مـــا يكون الى التكامل ، على الرغم من تأخره النسبى ، فقد ألفه ابن عذارى سنة712 هـ . وهو لذلك من اكثر مراجع تاريخ المغرب الاسلامى تفصيلا، واثراها مادة ، وذلك راجع بطبيعة الحال الى استفادته من تواريـــخ السابقين كالرقيق وابن عبد البر وابن القطان والوراق وغيرهم ممن أشار اليهـــم فيما نقـــل عنهـــم ، ونحن فى غنى عـــن التعريـــف بابن عذارى وتاريخه على وجه العموم ، فقد تنـــاول ذلك كثير مـــن الدارسين · انما نكتفى بتقييم ما أورده متعلقا بالخوارج فى المغرب ، فالملاحظ أنه افاض فى حديثه عن ثورات الخوارج ، لكنه عزف عن التاريخ لدولهم فى المغرب واكتفى باشارات متناثرة عن أمرائهم وسنى حكمهم · ومع ذلك ، فقد أسدى خدمة طيبة باثباته للتواريخ فى دقة تامة ، وذلك أمر أغفلته تماما كل تواريخ الخوارج تقريبا ·

---

(14) Actes du 14 Congrés international des orientalistes Algiers, 1905. Vol. 3. Part 2.

(15) انظر : بروفنسال : نص جديد ص 195 ، حسين مؤنس : ريـــاض النفـــوس · المقدمـــة ص 6 ؛
Hopkins : Medieval Moslem government in Barbary.. P. xi.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومعلوماتنا المستقاة عن ابن عذارى بخصوص الخوارج والفاطميين لا تختلف كثيرا عن نظائرها فى سائر المصادر العامة التقليدية كابن الاثير وابن خلدون والنويرى ، اذ انها جميعا تنقل اساسا عن الرقيق فيما يرجح .

ولا مشاحة فى أن جغرافيا مثل البكرى (ت 487 هـ) فى كتابه المغرب ، فضلا عن قيمته الكبرى فى دراسة البلدان ومواقعها والمسالك اليها .. الخ من المعلومات الجغرافية ، فقد زودنا بمادة تاريخية هامة — ان لم تكن فريدة فى بعض الاحيان — عن خوارج المغرب . وحسبنا ان كثيرا مما كتبه الوراق عن صفرية سجلماسة ما كان ليصل الينا لولا البكرى . وتلك المعلومات — على ندرتها — عظيمة القيمة بالنسبة لدولة بنى مدرار ، فلولاها لظل تاريخ تلك الدولة فى طى الابهام . على انه يؤخذ على البكرى افراطه فى ذكر روايات ذات طابع اسطورى ، بالاضافة الى عدم دقة معلوماته الخاصة بتاريخ الرستميين .

ومن الاهمية بمكان أن نشير الى كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب والاندلس » . وعلى الرغم من انه مؤرخ مصرى الف اساسا فى المغازى ، فان كتابه حافل بفيض من المعلومات الخاصة بخوارج المغرب . وابن عبد الحكم المؤرخ فى غنى عن التعريف فهو من خيرة مؤرخى الاسلام دقة وموضوعية ، ومن انضجهم اسلوبا ومنهجا . وتبدو اهميته بالنسبة لموضوع البحث كمعاصر للاحداث من ناحية (توفى سنة 257 هـ) ، وكموثق يهتم باسناد رواياته الى من سمع منهم او اخذ عنهم . ولا غرو فقد أتيح له الاتصال عن كثب بكثير من مشاهير المغاربة الذين كانوا يفدون الى مصر لدراسة مذهب مالك ، واستفاد من معلوماتهم فيما يتعلق بأخبار بلاد المغرب . وحسبنا ما أورده من معلومات — فريدة — حول ثورات الاباضية ، فضلا عن تقديمه صورة واضحة لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور دعوة الخوارج .

اما الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام لابن الخطيب الذى حققه الدكتور أحمد مختار العبادى ونشره بعنوان « تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط » فيحوى معلومات عن ثورات الخوارج استمدها — فيما يرجح — من ابن عذارى ، كما امدنا بمعلومات هامة — على ضآلتها — عن بنى مدرار . وعلى الرغم من أخطائه الكثيرة فى اسماء الاعلام والتواريخ ، وبرغم اسرافه فى ذكر روايات اسطورية ، فقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زودنا بكثير من الاشارات عن بنى مدرار ، لا نجد لها نظيرا عند البكرى او من نقل عنه كابن خلدون والقلقشندى ، مما يرجح اعتماد ابن الخطيب فى هذا الصدد على كتابات محمد بن يوسف الوراق مباشرة وعدم نقله عن البكرى كما فعل غيره من المؤرخين المتأخرين ·

ويقدم ابن الاثير فى تاريخه « الكامل » مادة طيبة مأخوذة عن الطبرى فيما يتعلق بخوارج المشرق . أما ما يخص منها خوارج المغرب فهى منقولة — فى تحقيق وتمحيص وتنسيق — عن تواليف المغاربة كالرقيق والورق وغيرهما ، شأنه فى ذلك شأن النويرى فى الجزاين الثانى والعشرين والسادس والعشرين من موسوعته المعروفة بنهاية الارب ·

ولا يفوتنا أن نعرض بايجاز لما ورد من اشارات الى خوارج المغرب عند البلاذرى والمؤرخ الاندلسى المجهول صاحب كتاب « أخبار مجموعة فى فتح الاندلس » ، وكذلك عند ابن حيان وابن سعيد وابن بطوطة . فالبلاذرى فى انساب الاشراف يفيض بمادة وفيرة ويقدم وجهة نظر مغايرة لرواية ابى مخنف المتحيزة ، التى نقل عنها الطبرى وغيره فيما يتعلق بالخوارج فى الشرق . أما كتابه « فتوح البلدان » فلا يخلو من اشارات عابرة عن بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج ، فضلا عن ثورات الخوارج فى بلاد المغرب ·

اما صاحب الاخبار المجموعة ، فهو مشايع لبنى امية متحامل على الخوارج ، لكنه أورد تفصيلات فريدة بخصوص ثورات الخوارج الصفرية فى بلاد المغرب .

وفى النصوص التى وصلتنا عن ابن حيان — شيخ مؤرخى الاندلس — سواء تلك التى نشرها ملشور انطونيه او نشرها الحجى ببيروت سنة 1965 ، نجد اشارات عابرة لكنها مفيدة فى توضيح علاقات بنى مدرار وبنى رستم بأموى الاندلس · ونفس الشىء يقال عن كتاب المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد .

أما « رحلة » ابن بطوطة فتحفل بمعلومات وفيرة عن علاقات دول الخوارج ببلاد السودان ·

ثانيا : المصادر الشيعية :

كان سقوط دولتى الخوارج ببلاد المغرب مرتبطا بقيام الدولة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفاطمية ، لذلك عرض مؤرخو الشيعة لاخبار الخـوارج ـ بطريقـة عارضة ـ فى ثنايا تاريخهم للدولة الفاطمية فى المغرب ومع قلة المعلومات الخاصة بالخوارج عند مؤرخى الشيعة ، وبرغم تحاملهم على الخوارج لما بينهم من عداء مذهبى ، فقد خلفوا معلومات طيبة عن علاقة الخوارج بالفاطميين .

ويعد أبو حنيفة النعمان المعروف بابن حيون المغربى (ت 363 هـ) من أهم من تناول هذا الموضوع ، ففضلا عن معاصرته الاحداث، كان على قرب منها أو معاين لها فى اغلب الاحيان لعمله كقاضى قضاة المعـز الفاطمى . ولابن حيون مؤلفات كثيرة عن الفاطميين وعقائدهم وتواريخهم ، أطلعنا على ثلاثة منها هى : أساس التاويل الباطنى وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ولا يفيد كثيرا فى دراسة الخوارج ، أما شرح الاخبار فهو مخطوط أيضا بدار الكتب المصرية نشر منه المستشرق الروسى ايفانوفا مقتطفات جعلها ملاحق كتابه

Ismaili tradition concerningthe rise of the Fatimids.

ويلقى من الاضواء عن حياة المهدى فى سجلماسة حتى الغزو الشيعى ما يفيد فى معرفة أحوال دولة بنى مدرار فى عهد أميرها اليسع بـن مدرار ، فضلا عن أهميته فى توضيح سقوط دولة بنى مدرار سنة 297 هـ على يد أبى عبد الله الشيعى .

وأهم ما خلفه ابن حيون كتابه المسمى بالمجلس والمسايرات ، وهو مخطوط من جزاين بمكتبة جامعة القاهرة ، عرض فيه ان حيـون لاحاديث المعز فى مجالسه مع معاصريه من الحكام وكبار الشخصيات . وقد أتيح لابن حيون حضور هذه المجالس ، واستطاع تدوين وتسجيل ما كان يدور فيها . وبرغم تحيزه الظاهر للفاطميين ، ومع أن الكتاب لا يعد تاريخا بقدر ما هو مذكرات خاصة تقريبا ، فقيمته عظيمة فـى التاريخ للمدراريين الاواخر وعلاقتهم بالفاطميين ، ونعتقد أنه أهم مصدر فى هذا الصدد ، اذ يعرض ابن حيون لاعداد المعز حملته على المغرب الاقصى سنة 347 هـ التى كان من بين اهدافها تأديب الامير المدرارى الشاكر لله الثائر على الحكم الفاطمى ، كما يتناول تفاصيل وقائعهـا ونتائجها . ومن خلال عرضه لمجالس المعز مع الشاكر لله بعد اسره ـ تلك التى قصد المعز منها « معرفة اخبار سجلماسة واهلها وسيرته فيهم وما يقال عنه من قبوله » ـ أمكن الوقوف على كثير من أخبار تلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدولة التى نفتقر الى معلومات عنها · وجدير بالتنويه أن أحدا ممن درسوا تاريخ المغرب الاسلامى لم يقدر له من قبل الاستفادة من تلك المادة التاريخية فى التاريخ لدولة بنى مدرار ·

وثمة مصدران شيعيان آخران عظيما الفائدة فى تصوير مجتمع سجلماسة فى أواخر العصر المدرارى — من خلال تناول حياة المهدى فى سجلماسة — وهما : «كتاب استتار الامام» لابراهيم بن أحمد النيسابورى (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية نشر ايفانوفا أجزاء منه بمجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول (مجلد 4 — ج 2) تحت عنوان مذكرات فى حركة المهدى الفاطمى . وكتاب « سيرة جعفر الحاجب » التى رواها محمد بن محمد اليامنى، وقد نشرها ايفانوفا ايضا فى نفس العدد من مجلة كلية الآداب . وسيرة جعفر تعد من قبيل المذكرات الخاصة ، اذ كان صاحبها حاجبا للمهدى ومرافقا له فى رحلته الى المغرب ، وسجن معه فى سجلماسة ، ومن هنا تبدو اهمية سيرته كشاهد عيان للاحداث .

أما ابو عبد الله محمد بن على بن حماد (ت 628 هـ) ، فكتابه المعروف بأخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم غاية فى الاهمية بخصوص ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد برغم تحامله الشديد على الخوارج والتعصب للفاطميين ، ولا غرو فابن حماد شيعى اسماعيلى ، اذ يذكر المهدى مسبوقا بعبارة « سيدنا الخليفة الاول امير المؤمنين » (16) · وقد ذكر فاندر هيدن الذى نشر الكتاب وقدم له أن ابن حماد نقل مباشرة عن الرقيق نصه عن ثورة أبى يزيد . ومن هنا تبرز قيمة تلك المعلومات برغم نسبتها الى ابن حماد الذى عاش عصرا متأخرا عن الاحداث ·

أما اليعقوبى المتوفى سنة 284 هـ فقد صنف فى التاريخ والجغرافيا ، وتاريخه حافل بدراسة الخوارج فى الشرق ، ويلقى بعض الضوء على دوافع نزوحهم الى المغرب · لكن جغرافيته المعروفة بكتاب البلدان أكثر اهمية من تاريخه ، اذ هى العمدة فى دراسة مشاكل الحدود بين دول الخوارج وجيرانهم فى بلاد المغرب ، ومعلوماته عن وضع تلمسان والنزاع عليها بين المدراريين والرستميين والادارسة جد قيمة فى دراسة العلاقات الخارجية لدول الخوارج ، وغير ذلك أمدنا اليعقوبى بمعلومات

---

(16) انظر : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص 10 ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هامة عن دولتى الخوارج على الرغم من اقتضابها ، ووجه الاهمية انه عاصر هاتين الدولتين وعاين بعض وقائعها عن كثب ، وقدر له الاتصال ببعض افراد البيت الرستمى ، وفى هذا الصدد يقول « . . وحدثنى أبو معبد عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم التاهرتى » (17) . كما عرف بالموضوعية وعدم الانحياز الى جانب الحرص فى التحقق من مصادره ، ولا مبالغة البتة فيما ذكره عن منهجه الذى حدده بقوله : « . . وقد اتصلت أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره وبلده وساكنيه وديانـاتهم ومقالاتهم .. ثم اثبت كل ما يخبرنى به من أثق بصدقه، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم حتى سألت خلقا كثيرا من الناس . . »

وفى كتاب المسالك والممالك للجغرافى المعروف ابن حوقل — وهو شيعى المذهب — نجد معلومات طيبة عن تاهرت وسجلماسة عاصمتى دولتى الخوارج ، اغلب الظن انه نقل كثيرا منها عن مصادر مغربية غير دقيقة اعتمد عليها أيضا أبو عبيد البكرى بدليل وقوعه فى نفس الاخطاء التى نجدها عند البكرى فيما بعد . ومع ذلك فما أورده ابن حوقل عن الخوارج ، وصلاتهم ببلاد السودان يعد عظيم الاهمية لمعاصرته الأحداث اذ توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

وابن خلدون سواء فى مقدمته أو فى تاريخه يبدى تعاطفا واضحا مع الشيعة الزيدية (الأدارسة) والاسماعيلية (الفاطميين) . وما كتبه عن المغرب الاسلامى لا غنى عنه لاى دارس لذلك التاريخ ، ففضلا عن استفادة ابن خلدون من مؤرخى المغرب السابقين ، كان لاشتغاله بالسياسة وتقلبه فى خدمة الدول المعاصرة له ما اتاح له القدرة على الكشف عن القوى المحركة للتاريخ والاسباب والعلل الكامنة وراء أحداثه . ولا غرو فقد تفرد عن جمهرة مؤرخى الاسلام بفلسفته للتاريخ ، وله نظرية أقرب ما تكون الى نظرية « البيولوجية التطورية » فى تفسير أحداثه وتعليل وقائعه . ولا حاجة بنا للخوض فى تقييم ابن خلدون المؤرخ ، ويعنينا ما أورده عن الخوارج فى المغرب . والذى لا شك فيه أن ابن خلدون أمدنا بمعلومات فريدة عن القبائل وانسابها ومذاهبها ومقالاتها أفادت كثيرا فى دراسة انتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب . وفى

---

(17) انظر : البلدان ص 358 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأريخه لثورات الخوارج ودولهم وموقفهم من الفاطميين لا يختلف كثيرا عن غيره من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب العام كابن عذارى وابن الاثير والنويرى . لكن ابن خلدون ، فضلا عن عدم دقة تواريخه ، كثيرا ما تختلط معلوماته ، مثل خلطه بين الاباضية والصفرية فى احيان كثيرة حتى ان مؤرخا ما سكراى نبه الى ضرورة اتخاذ الحذر فى تناول كتابات ابن خلدون فى هذا الصدد . ويخيل الينا ان اهتمامه بالتفسير والتحليل أوقعه فى مزالق الخطأ ، اذ كثيرا ما نجد تناقضا واضحا حين يتناول موضوعا ما فى تأريخه العام وبين ذات الموضوع حين يعرض له اثناء عرضه لتواريخ القبائل ، ومع ذلك فحسبه أن فصلا من فصول البحث لم يخل من كتاباته ، سواء فى مقدمته او تاريخه .

ثالثا : مصادر الخوارج :

خلف الخوارج الكثير عن عقائدهم وسيرهم وتاريخهم وطبقاتهم ، لكن لم يصلنا منها سوى النذر اليسير ، وقد أورد البرادى فى رسالته عن كتب الاباضية عديدا من هذه التصانيف للمشارقة والمغاربة على السواء ، كما أورد ابن النديم فى « الفهرست » مزيدا منها ، وذكر انها « مستورة محفوظة » ، فلم نقف لها على اثر ، ومن هذه الكتب ما دونه اليمان بن الرباب ويحى بن كامل والصيرفى وعبد الله بن زيد وابراهيم ابن اسحق الاباضى والهيثم بن الهيثم والربيع بن حبيب وغيرهم من المشارقة . كذلك نعلم من سير الشماخى أن مؤرخا اباضيا مغربيا شهيرا يدعى ابن سلام عاش حول منتصف القرن الثالث الهجرى وصنف كتابا فى السير لم يصلنا بعد ، وقد اعتمد عليه الشماخى فيما يتعلق بثورات الاباضية وطبقات مشايخ المذهب حتى عصر ابن سلام .

ومن المغاربة الاباضية كذلك أبى الربيع سليمان بن يخلف الذى نقل عن أبى زكريا ومعبد بن افلح ممن نقل عنهم الوسيانى .

ومن المحقق ان كثيرا من هذه الكتب ابيدت او احرقت نظرا لما تعرض له الخوارج فى الاشرق والغرب من اضطهاد ، فقد اخبرنا الدرجينى (18 أن مكتبة الائمة الرستميين المعروفة « بالمعصومة » احرقها أبو عبد الله الشيعى سنة 297 هـ ، ومن المحقق ان كتب الصفرية

---

(18) طبقات الاباضية ج 2 ورقة 125 ظهر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسجلماسة لاقت نفس المصير .

وجدير بالذكر ان كافة كتب الصفرية لم نقف لها على اثر ، بينما وصلنا بعض كتب الاباضية ، وتفسير ذلك أن أبا عبد الله الشيعى الذى اقام بسجلماسة اربعين يوما ، اجهز على ما بها تواليف وتصانيف ، بينما لم تطل اقامته بتاهرت ، اذ غادرها على التو لتحرير المهدى من سجنه بسجلماسة ، فتسربت بعض كتب الاباضية مع بعض افراد البيت الرستمى الذين هربوا الى وارجلان ، ومعروف انها استعصت على الغزو الشيعى . كذلك سلم جبل نفوسة من عبث الفاطميين بديوان الاباضية الحافل بتصانيف المذهب ، ويخبرنا البرادى (19) ان ديوان نفوسة كان مشتملا على اكداس هائلة من الكتب بلغ ما ورد منها من الشرق فقط نحو ثلاثمائة وثلاثين الف جـــزء .

وبعد ان فتح المرابطون وارجلان رحل اباضيتها بكتبهم واقاموا بوادى ميزاب ــ جنوبى الجزائر ــ حيث لا تزال محفوظة لدى مشايخ المذهب الى الآن ، وقد ذكر ماسكراى ان ثروة جبل نفوسة من كتب الاباضية اكثر وفرة منـــها فى وادى الميزاب . وقد حـــاول لفيف مـــن المستشرقين المهتمين بتاريخ المغرب زيارة مشايخ الاباضيـــة بوادى الميزاب وجبل نفوسة ، والاطلاع على خزائن الكتب هناك ، ومن هؤلاء ماسكراى وموتايلنسكى ولويسكى وباسيه وغيرهم . ونجحوا بالفعل فى الوقوف على قدر ضئيل من تراث الاباضية ، اذ ان مشايخ المذهـــب يرفضون اظهار ما لديهم من الكتب المتعلقة بأسرار المذهب ولا يتيحون سوى الاطلاع على الكتب المتواترة الخاصة بالعموميات ، كما ذكر برسى سميث (20) وماسكراى (21) .

ومع ذلك فقد حصلنا على بعض تلك التصانيف الخاصة بالعقائد والنوازل والفتاوى ، وكذلك بعض التواريخ والسير وكتب الطبقات .

ومن اهم مصادرنا فى كتب الفتيا رسالة فى احكام الزكاة لابـــى عبيدة مسلم بن ابى كريمة (ت اواخر القرن الثانى الهجرى) ، وهى مخطوطة بدار الكتب المصرية غاية فى الاهمية لأن صاحبها كان شيخا لاباضية

---

(19) رسالـــة فى ذكـــر كتب الاباضيـــة .

(20) The Ibadites. P. 267. The Moslem World. Vol 12, July ; 1922.

(21) انظـــر : Chronique d'abou Zakaria. P. VII.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البصرة ورئيسا لتنظيم المذهبى السياسى بعد جابر بن زيد ، واليه يعزى الفضل فى بث دعاة المذهب الى أطراف الدولة الاسلامية ومن بينهـا بلاد المغرب . كما كان رؤساء المذهب فى المغرب يلتحقون بحضرته للتفقه فى المذهب والاعداد لاقامة الدولة الاباضية . وتكشف لنا الرسالة عـن حقيقة تطور افكار الخوارج السياسية فى الشرق أواخر العصر الأموى ، ولجوئهم الى أساليب التنظيم والدعوة كبديل لاسلوب الثورات الهوجاء الذى اثبت فشلا ذريعا . وتمدنا بمعلومات هامة ـ على ضآلتها ـ عن صلة التنظيم الام فى البصرة بمشايخ المذهب فى المغرب بعد قيام امامة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح بطرابلس سنة 140 هـ .

ومن كتب العقائد والفقـه ، نشر المستشرق موتايلنسكـى (22) نصا للشيخ الاباضى عمرو بن جميع بعنوان « متن عقيدة التوحيد » ، يلقى بعض الضوء على الفكر السياسى عند الخوارج ، فضلا عن آراء الاباضية فى كثير من المسائل الفقهية . ونفس المعلومات نجدها فى « مقدمة أصول الفقه» للشماخىّ «ومدونة ابى غانم الصفرى» «وشرح السؤالات» للسوفى ، وهى جميعا مخطوطات بدار الكتب المصرية .

اما عن كتب التاريخ والسير ، فأهمها على الاطلاق « كتاب السيرة واخبار الائمة » لأبى زكريا يحيى بن ابى بكر (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) . ولا يزال الكتاب مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وقد ترجمه ماسكراى الى الفرنسية وقدم له وعلق عليه ونشره تحت عنوان :

Chronique d'Abou Zakaria

وابو زكريا من اهل وارجلان ، ولا نعلم شيئا عن نشأته ، بينما ندرك انه اعتمد فى تاريخه لثـورات الاباضية والرستميين الأوائل على مؤرخ اباضى يدعى ابو الربيع سليمان بن يخلف ، ويبدو أنه عاصر العهد الرستمى الأخير او استمد معلوماته عنه من الجيل السابق له ، بينما نقل عنه كل من لحقه من مؤرخى الاباضية ، وصدق فيه قول أبـى الربيع (23) الوسيانى « أن أبا زكريا له الفضل فى السبق الى كتابـة أخبار اهل الدعوة » . وقد أرخ أبو زكريا اساسا للدولة الرستمية ، لذلك

---

(22) انظـر : Actes du 14 Congrés international des orientalistes. Algiers, 1905. Vol. 3, Part 2.

(23) سير ابى الربيع بن عبد السلام الوسيانى ورقة 1 وجه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يسرف فى تصوير فضل الفرس على الاسلام ، حتى أنه انتحل كثيرا من الاحاديث والمأثورات عن الصحابة والتابعين تمجيدا لنسب أئمة بنى رستم · وفى تاريخه لهم اتبع منهجا طيبا ، فمع حرصه على التسلسل الزمنى للأحداث خلال عهود الائمة ، تصور خمسة مراحل للامامة تعرضت الجماعة الاباضية فى كل منها لانشقاق مذهبى · وبعد ذلك يعرض لاخبار الاباضية بعد سقوط دولة بنى رستم ، اى علاقتهم بالفاطميين الذين أطلق عليهم « المسودة » · ومن خلال كتابات أبى زكريا عن اباضية المغرب نقف على معلومات خاصة بالخوارج الصفرية كتلك التى تتعلق بانتشار مذهبهم ببلاد المغرب ، وعلاقة بنى رستم ببنى مدرار .. الخ وقد أمدنا بتاريخ شبه متكامل لدولة بنى رستم يعاب عليه فيه تعصبه التام للائمة وتحامله على الحركات المناوئة لهم ، واغفاله ذكر احداث كثيرة لان فيها ما يشين سياسة الائمة وقد دفعه هذا التعصب احيانا اخرى الى تزييف الوقائع والاخبار · كما يؤخذ على تاريخ ابى زكريا اسرافه فى ايراد روايات خرافية واسطورية ، واقاضته فى نسبة اعمال خارقة ومعجزات الى من ترجم لهم من مشايخ المذهب · وفيما يختص بمعلوماته عن الخوارج والفاطميين ، فضلا عن الشذرات المتفرقة التى تلقى ضوءا على ثورات الاباضية ، أمدنا بمادة طيبة تفيد فى توضيح موقف الاباضية الوهبية من حركة ابى يزيد النكارى ، هذا بالاضافة الى معلومات عن سقوط دولة بنى مدرار الصفرية على الرغم مما تتسم به من طابع روائى ·

وغير سيرة أبى زكريا ، وقفنا بدار الكتب المصرية على مخطوطة عن « سير ابى الربيع الوسيانى » تلك التى اعتبرها لويسكى (24) فى حكم المفقودة ، وعلق على النصوص التى اوردها الشماخى عن ابى الربيع بانها « غاية فى الأهمية » . ونعتقد ان اهمية سير ابى الربيع تكمن فى كونه عاش قريبا من الأحداث اذ توفى سنة 418 هـ ، فضلا عن اقامته بوارجلان من أهم معاقل الاباضية بعد سقوط الدولة الرستمية . كذلك اثبت ابو الربيع مصادره ، فسمع عن شيخه أبى محمد عبد الله بن محمد العاصمى ، كما أخذ ايضا عن المؤرخ الاباضى معبد بن افلح وغيرهما ممن

(24) Une chronique ibadite "Kitab-as-Syar" d'As-Samachi. P. 74. Revue des etudes Islamiques, Vol. VII, 1934.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم نقف على كتبهما الاصلية ، فحفظ لنا قبسا مما دونوه · وجدير بالذكر ان سير ابى الربيع تلقى اضواء باهرة على اخبار الاباضية فى العصر الفاطمى ، فضلا عما ورد بها من معلومات عارضة عن العصور السابقة ، بالاضافة الى مسائل واجوبتها فى الفقه الاباضى جد مفيدة فى معرفة فكر الاباضية وفلسفتهم فى الحكم والادارة ·

وثمة مؤرخ اباضى شهير هو ابو العباس احمد بن سعيد الشماخى (ت 928 هـ) الذى ينتمى الى اسرة معروفة بجبل نفوسة اخرجت كثيرين من اعلام الاباضية · وله فضلا عن كتابه « شرح مقدمة اصول الفقه » ــ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ــ كتابه المعروف بالسير · وسير الشماخى تعد تاريخا شبه متكامل لاباضية المغرب ، فلكونه عاش فى عصر متأخر ، قدر له الاطلاع على تواليف سابقيه كابن سلام وابى زكريا والربيع بن حبيب والسوفى ومقرين بن محمد البغطورى الذى الف عن سير مشايخ نفوسة سنة 599 هـ · وامتازت سير الشماخى عن غيرها من سير الاباضية بأخذ مؤلفها عن مؤرخين من غير الاباضية كالرقيق وابن الصغير · كما يلحظ الدارس حرص الشماخى على مناقشة وتحليل الروايات المختلفة والمفاضلة بينها واثبات ما يراه صحيحا ومقنعا· ولا غرو فكثيرا ما خالف سابقيه من مؤرخى الاباضية ، ورجع روايات السنة الامر الذى يجعله اكثر مؤرخى الاباضية حيادا وموضوعية فى نظرنا ·

أما كتب الطبقات ، فقد وقفنا على اثنين منها ، اولهما لابى العباس احمد الدرجينى (ت حوالى منتصف القرن السابع الهجرى) ويسمى « طبقات الاباضية » ، وهو مخطوط فى ثلاثة اجزاء بدار الكتب المصرية ، يعرض فيه الدرجينى تراجم لمشايخ المذهب الاباضى جيلا بعد جيل فى المشرق والمغرب على السواء · وفيما يتعلق بالمشارقة اعتمد الدرجينى على كتاب الكامل لابى العباس المبرد ، بينما نقل كثيرا عن ابى زكريا فى اخبار المغاربة · ومن ثم فما تضمنه كتابه من معلومات فى هذا الصدد مكررة ولا تقدم جديدا . اكثر من ذلك فان الدرجينى ورث نفس مثالب سابقيه ولم يبذل ثمة محاولة لتحقيق معلوماته ، وان كان من الانصاف ان نثبت له أمانته فى اسناد هذه المعلومات الى من نقلها عنهم . كما وقع فى كثير من الاخطاء ، واغفل كثيرا من مشايخ المذهب ولم يترجم لهم وهذا هو ما حدا بابى القاسم البرادى الى تدارك ذلك الاغفال وتصحيح تلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاخطاء التى فاتت على الدرجينى ·

فابو القاسم البرادى (ت 697 هـ) سمى طبقاته لذلك « الجواهر المنتقاه فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لابى العباس الدرجينى » · وهذا الكتاب مخطوط بدار الكتب عالج فيه صاحبه كثيرا من الموضوعات وعرض لعديد من عيون المذهب واعلامه ممن اهملهم الدرجينى ، كما حلل وناقش كثيرا من روايات سابقيه بطريقه نقدية من مؤرخى الاباضية وغير الاباضية على السواء · ومن الملاحظ ان نقل كثيرا عن ابن الصغير فيما يتعلق بالعهد الرستمى الاخير . ومع ذلك فكتب الطبقات تزخر بمعلومات هامة عن اثر الخوارج فى المجتمع المغربى · وعلى تلك المصادر الاباضية الاصلية اعتمد جمهرة المحدثين من مؤرخى الاباضية فيما كتبوه عن تواريخ الاباضية فى المغرب · ومن هؤلاء البارونى والورجلانى واطفيش والجربى والطاهر الزاوى . على ان كتاباتهم جميعا تتسم الى جانب التعصب للمذهب الاباضى بطابع الاسفاف والسطحية ·

والى جانب تلك المصادر لم ندخر وسعا فى البحث عن المادة التاريخية التى تخدم موضوع الدراسة والتى تمسه من قريب او بعيد فى المراجع التاريخية وكتب الجغرافيا والرحلات ، وكتب الطبقات والتراجم والتصانيف الادبية ، وكتب الفرق المختلفة · كما استفدنا بكتب السكة فى تحقيق كثير من الالقاب وتحديد عديد من التواريخ التى كان يشوبها الخلط ويكتنفها الابهام ·

كذلك لم نغفل دراسات المحدثين من العرب والمستشرقين فيما الفوه من مراجع او نشروه بالموسوعات والدوريات العلمية ، فاطلعنا على كتابات الدكاترة حسن محمود وحسين مؤنس ومحمود مكى ، واحمد مختار العبادى وسعد زغلول عبد الحميد وغيرهم من المتخصصين فى تاريخ المغرب والاندلس · كما استفدنا كثيرا من دراسات جوتييه وبل وبروفنسال ودوزى وبرنشويج ولويسكى ومارسيه وباسيه وسميث وغيرهم سواء ما تضمنته كتبهم او ما نشروه بالدوريات والموسوعات مثل : Actes du congres internationales des orientalistes, Andalus, Islamic review, Moslem World, Journal Asiatique, Revue des etudes Islamiques, Studia Islamica. وغيرها ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبفضل تلك المادة التاريخية التى توافرت للبحث أمكن دراسة الموضوع ولم شتاته فى أبواب خمسة وخاتمة ·

تناول الباب الاول دعوة الخوارج فى بلاد المغرب · وتضمن ظروف الخوارج فى الشرق الاسلامى التى دفعت بهم الى الهجرة والانتشار فى بلاد المغرب · وعرض لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج وملاءمتها لدعوتهم . ثم عالجت كيفية انتشار مبادىء الخوارج الصفرية والاباضية فى بلاد المغرب واقبال البربر على اعتناق هذه المبادىء ·

وخصص الباب الثانى لثورات الخوارج فى بلاد المغرب ، حيث تضمن دراسة لاسباب ثورات الخوارج — صفرية واباضية — ووقائع تلك الثورات وتبيان نتائجها وآثارها ·

أما الباب الثالث فقد تضمن تاريخا لدول الخوارج فى بلاد المغرب ، تناولت فيه دولتى بنى مدرار الصفرية وبنى رستم الاباضية من حيث ظروف قيامهما وعرض سياستهما الداخلية ، وتحديد علائقهما الخارجية ·

وافرد الباب الرابع لدراسة الخوارج والفاطميين ، حيث عرضت فيه لدور الفاطميين فى اسقاط دولتى بنى مدرار وبنى رستم ، ثم ثورات الصفرية والاباضية على الحكم الفاطمى ·

ونظرا لما احدثه الخوارج من آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية فضلا عن آثارهم السياسية فى بلاد المغرب ، ولما كانت تلك الجوانب تحتاج لدراسة مستفيضة متعمقة ، فقد اثرنا أن نفرد لها الباب الخامس من البحث .

وفى الخاتمة أوجزنا ما انتهينا اليه من نتائج تمخضت عنها هذه الدراسة ·

ولا يسعنى فى هذا المقام الا أن اتقدم بخالص شكرى وعظيم الامتنان لاستاذى الدكتور حسن احمد محمود الذى تولى الاشراف على هذا البحث وتعهده برعايته وتوجيهه مذ كان فكرة حتى صار حقيقة ·

ويعلم الله — كم تكبدت من عناء ، وكم من جهد بذلت . . واساله التوفيق ·

فاس فى اغسطس 1976

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الاول

دعوة الخوارج في بلاد المغرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اولا :

أحوال الخوارج في المشرق الاسلامى
حتى اوائل القرن الثاني الهجري

ارتبط ظهور مذهب الخوارج وانتشاره فى بلاد المغرب بعاملين اساسيين :

اولهما : التطور السياسى الذى حدث للخوارج فى المشرق الاسلامى فى اواخر القرن الاول الهجرى بعد فشل ثوراتهم واضطرارهم الى اتباع اسلوب الدعوة والتنظيم السياسى ، واختيار أطراف العالم الاسلامى ميدانا لنشاطهم بعد أن تعرضوا للمطاردة والاضطهاد .

وثانيهما : ملاءمة الاحوال السياسية والاجتماعية فى بلاد المغرب فى اواخر القرن الاول الهجرى واوائل القرن الثانى لتقبل هذا المذهب وانتشاره .

وليس من شك فى ان ما لحق بالخوارج من فشل فى المشرق يعزى الى اسباب عدة ، منها تطرف عقائدهم وتصور فكرهم السياسى الظاهر من الثورات التى قاموا بها طوال العصر الاموى ، ثم يقظة الخلافة ورجالها فى مناهضة هذه الثورات ومواجهتها فى سرعة وحزم .

فعلى الرغم من كثرة الثورات التى قام بها الخوارج فى المشرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاسلامى ، وما أبدوه فيها من ضروب الشجاعة (1) ، وبرغم ما انطوت عليه مبادئهم من دعوة الى العدل والحرية (2) ، فقد عجزوا عن تحقيق اهدافهم ، واصبحوا هدفا للبطش والاضطهاد . ومن أمثلة تطرفهم ، اجماع كافة فرقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل والحكمين وكل من رضى بالتحكيم (3) ، واتفاقها فى الخروج على الامام الجائر وتكفير مرتكبى الكبائر باستثناء النجدات (4) ، وكذلك الاجماع على جواز الامامة لكل مسلم عالم بالكتاب والسنة (5) .

فاتفاقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل وضعهم فى موقف العداء للجماعة الاسلامية برمتها (6) ، فتعرضوا لسخط كافة الحكومات الاسلامية ، اذ حاربهم على بن ابى طالب وفل شوكتهم فى موقعتى النهروان والنخيلة (7) ، ولم يستمر تحالفهم مع الزبيريين ضد الأمويين طويلا ، فقد انقلب ابن الزبير عليهم حين آنس من نفسه القوة على مواجهة بنى امية (8) . ولم يتوان الأمويون فى تعقب حركاتهم وقمعها بعد حروب طويلة وقف الشيعة فى معظمها الى جانب بنى امية على ما بينهما من عداء متأصل (9) .

وبسبب تكفيرهم مرتكبى الكبائر ، انقسموا على أنفسهم اشد الانقسام فى كثير من المسائل الفقهية ، واعتبرت كل فرقة ما عداها مارقة ، وعاملت انصارها معاملة الكفار فى استباحة الدماء واستحلال الأموال والذرارى (10) .

---

(1) انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج 6 ص 172 ، المبرد : الكامل ج 1 ص 546 ، ج 3 ص 954 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 256 .

(2) الرازى : اعتقادات فرق المسلين ص 42 ،
Dozy. Spanish Islam. P. 86.
Lammens : Etudes sur le siecle des omyyades. P. 187.

(3) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 146 ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص 273 .

(4) البغدادى : نفس المصدر والصحيفة ، المسعودى : مروج الذهب ج 3 ص 145 ، جعفر بن عبد السلام : ابانة المناهج ورقة 154 مخطوط .

(5) النوبختى : فرق الشيعة ص 31 ، الاسفرائينى : المرجع السابق ص 46 ، جعفر ابن عبد السلام : المرجع السابق ورقة 166 .

(6) الاسفرائينى : نفس المصدر والصحيفة ، Gibb : Mohammed anism. P. 170.

(7) عن على والخوارج انظر : الطبرى ج 5 ص 76 وما بعدها ، الدينورى : الاخبار الطوال ص 210 وما بعدها .

(8) الطبرى : نفس المصدر ص 563 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 69 .

(9) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 142 .

(10) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان من المتوقع أن يقبل الموالى على مذهب الخوارج لسماحة رأيهم فى الامامة ، فقد اعتبرت حقا متاحا لكل مسلم بغض النظر عن اصله وجنسه — وهو مبدأ تفرد به الخوارج دون سائر الفرق الاسلامية الأخرى — لكن أعداد الموالى فى صفوف الخوارج كانت قليلة ، ولم يقبل بعضهم على مذهبهم الا فى أواخر العصر الأموى (11) · حين أسرف بنو أمية فى اضطهاد الموالى واذلالهم . ويعزى هذا الاعراض عن مذهب الخوارج الى افراطه فى التطرف (12) واسراف انصاره فى استخدام العنف ، وتشدد زعمائهم فى قبول المهاجرة — وهم الأتباع الجدد — وذلك باجراء اختبارات قاسية للتأكد من صدقهم وحسن نواياهم · كما رفض الخوارج مبدأ التقية — باستثناء الصفرية (13) — ولم يعمدوا الى التنظيم والدعوة وما يرتبط بها من وسائل الترغيب وكسب الأنصار ، ولم يفطنوا الى ذلك الا فى وقت متأخر ·

ولعل افتقار المذهب الى زعامة قريشية أو شخصية مرموقة يلتف حولها الأنصار ويدعون لها دعوة منظمة كان سببا فى تفرق كلمتهم وانقسامهم الى طوائف تلتف حول قيادات محلية أو قبلية لايجمعها رابط فى العمل أو تشملها وحدة فى الخطط والأهداف ، فما أن تجتمع جماعة منهم حتى يتواعدوا على اللقاء ، فاذا التقوا اظهروا العصيان (14) · الأمر الذى سهل على الحكام ملاحقتهم واستئصال شأفتهم جماعة فى اثر أخرى · ولعل هذا هو ما يعنيه فلهوزن بقوله (15) « أن سياسة الخوارج كانت غير سياسية » ·

على أن من أهم أسباب اخفاق حركات الخوارج وفشل ثوراتهم ، تفشى الخلافات داخل جماعتهم وهى خلافات كان الباعث عليها فى الغالب

---

(11) المبرد : الكامل ج 3 ص 1151 ، سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية ص 126 · وقد أسرف بعض الدارسين فى تقدير الاثار الناجمة عن اعتناق الموالى مذهب الخوارج حتى ذهبوا الى أن عقائد الخوارج تنتمى الى أصول مسيحية ومجوسية · انظر : عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام ص 245 · فالواقع أن عقائد الخوارج تفردت بطابعها العربى الاسلامى الخالص وخلوها من اى اثر لفلسفة اليونان أو الفرس · انظر : احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 صفحة 335 ، 344 ·

(12) المبرد : الكامل ج 3 ص 967 ·

(13) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 51 ·

(14) الطبرى : ج 5 ص 211 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج 2 ص 113 ·

(15) تاريخ الدولة العربية ص 372 ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاختلاف فى المبدأ والرأى (16) · فقد تباينت آراؤهم فى مسائل جوهرية كمسألة القعدة والاستعراض (17) · وأدى ذلك الى انقسامهم الى فرق الأزارقة والاباضية والصفرية والنجدات وتشعبت هذه الخلافات لتشتت شمل المذهب فى أكثر من عشرين فرقة (18) ·

ومما زاد من خطورة هذا الانقسام انه كان يحدث فى الأوقات العصيبة ابان حروبهم فكان يحرمهم من جنى ثمار النصر ويؤدى بهم الى الهزائم · ومن امثلة ذلك خروج عبد ربه الكبير على قطرى بن الفجاءة وهو يقاتل المهلب بن أبى صفرة سنة 77 هـ (696 م) لأن قطرى « تأول فأخطأ » (19)، فانفصل عنه عبد ربه بمعظم الجيش بعد أن كان النصر وشيكا ، وأتيح للمهلب سحقهما واحدا بعد الآخر (20) ·

وقد انقسم النجدات على انفسهم كما انقسم الأزارقة ، فخالف عطية بن الأسود نجدة بن عامر الحنفى (21) وانفصل عنه وغادر البحرين الى المشرق وازداد الأمر سوءا بخروج أبى فديك عبد الله بن ثور على نجدة وقتله ، وتفرق النجدات لذلك الى ثلاث شيع متناحرة ، مما أدى فى النهاية الى اضمحلالهم وزوال دولتهم فى البحرين وحضر موت والطائف واليمن سنة 72 هـ (22) (691 م) ·

ولم يسلم الصفرية كذلك من آفة الانقسام ، فقد خالف مصقلة بن مهلهل الضبى شبيب بن يزيد الشيبانى سنة 77 هـ (696 م) وفوت عليه انتصاراته الحافلة على جيوش الحجاج الثقفى لانسحابه بمعظم الجيش احتجاجا على ما أعلنه شبيب من البراءة من سلفه صالح بن مسرح (23) ·

وقد استغل خصومهم هذا الانقسام فى ملاحقتهم والقضاء عليهم ، فلم

---

(16) نفس المصدر ص 61 ، ليفى ديللافيدا : مادة الصفرية ـــ دائرة المعارف الاسلامية صفحـــة 229 .

(17) الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 1 ص 15 ، مجهول : قطعة من كتاب فـــى الاديان والفرق ورقـــة 97 ـــ مخطوط .

(18) عن هذه الفرق ومعتقداتها انظر : الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 ـــ 51.

(19) ابن خلـــدون : العبـــر ج 3 ص 161 .
عن تفصيلات أسباب خروج عبد ربه الكبير على قطرى راجع : الطبرى : ج 6 صفحـــة 300 ـــ 301 .

(20) الطبرى : ج 6 ص 300 ، ابن قتيبة : المعارف ص 411 ، ابن كثير : البدايـــة والنهايـــة ج 9 ص 30 .

(21) عن أسباب هذا الخلاف انظر : البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 144 .

(22) الطبرى : ج 6 ص 174 ، اليعقوبى : تاريخه ج 3 ص 18 .

(23) الطبرى : نفس المصدر ص 275 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدخر الخلفاء والولاة وسعا فى مناهضتهم ، واتبعوا فى ذلك شتى الوسائل من عنف وخداع واستنفار للجماعة الاسلامية لمواجهة ثوراتهم والتربص باية حركة او نشاط لهم · كما استخدموا اسلوب اللين والاقناع والمحاجاة ، واتبعوا سياسة الترغيب ، واغراء زعمائهم بالمراكز المرموقة والمناصب الرسمية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا · فمعاوية بن أبى سفيان كثيرا ما استنفر اهل الكوفة للمشاركة فى قتال الازارقة (24) كما ان عامليه على الكوفة والبصرة ــ المغيرة بن شعبة وابن عامر ــ جندا كتائب من الشيعة من اهل المصريين لقتالهم (25) · وكان هذا العمل من البراعة بمكان ، اذ كفل ضرب الشيعة بالخوارج ــ وكلاهما عدو لبنى امية ــ ليضعف بعضهما بعضا فيسهل بعد ذلك استئصال شأفتهما كل على حدة · والى المغيرة بن شعبة خاصة يعزى الفضل فى تطبيق تلك السياسة بنجاح فكان يستخدم اسلوب التهديد والترغيب ويلزم القبائل نفسها بالقضاء على اى نشاط للخوارج داخلها (26) ليكفى نفسه مؤنة قتالهم ·

واثمرت تلك السياسة فى عهد زياد بن أبيه « فكانت القبائل اذا أحست بخارجى فيهم أوثقوه واتوا به زيادا ، فمنهم من يحبسه ومنهم من يقتله » (27) كما افحلت سياسته فى الترغيب والترضية ، فكان يستميل من يقبل عليه من زعماء الخوارج ويتخذهم صنائع وعمالا ، ويغدق عليهم الهبات والعطايا (28) · لكنه لم يتورع عن البطش والتنكيل بمن يعرض عنه ويناوىء حكمه ، حتى النساء لم يسلمن من اذاه فكان يقتلهن ويمثل بهن (29) ·

وقد أسرف ابنه عبيد الله فى سياسة العنف هذه وبالغ فيها (30) ، فكان القتل جزاء من يشتبه فى ميله لمذهب الخوارج · ويذكر الدينورى (31)

---

(24) ابن خلدون : ج 3 ص 142 ·
(25) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 171 ·
(26) ورد فى خطاب له فى هذا الصدد قوله « . . ايها الناس ، انى لم ازل احب لجماعتكم العافية واكف عنكم الاذى . وانى والله لقد خشيت ان يكون ذلك ادب سوء لسفهائكم ، واما الحلماء الاتقياء فلا · وايم الله . لقد خشيت الا اجد بدا من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفيه « الجاهل » فكفوا ايها الناس سفهائكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم . وقد ذكر لى ان رجالا منكم يريدون ان يظهروا فى المصر بالشقاق والخلاف ، وايم الله ــ لا يخرجون فى حى بين احياء العرب فى هذا المصر الا ابدتهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم . . » راجع الطبرى : ج 5 ص 184 ·
(27) المبرد : الكامل ج 3 ص 985 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 259 ·
(28) المبرد : نفس المصدر ص 1006 ·
(29) ابن عبد ربه : المرجع السابق ص 259 ·
(30) الطبرى : ج 5 صفحة 312 ·
(31) الاخبار الطوال صفحة 270 ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أنه قتل تسعمائة رجل « بالتهمة والظنة » ، عدا ما لاقاه الآلاف فى السجون من صنوف الارهاب والتعذيب (32) واستمرا عبيد الله هذه السياسة وتفنن فيها ، حتى أنه كان يرغم المسجونين من الخوارج على قتل بعضهم بعضا امعانا فى التنكيل والتشفى (33) ·

ولما آل الأمر لعبد الله بن الزبير فى العراق عول على القضاء على الخوارج واستئصال شأفتهم ، فرماهم بالمهلببن ابى صفرة الذى كان « يسير فى طلبهم من بلد الى بلد ويواقعهم وقعة بوقعة » (34) .

على أن محنة الخوارج الشديدة كانت فى عهد عبد الملك بن مروان ، فقد رماهم بالحجاج والمهلب فى آن واحد . وتفيض المصادر بأمثلة عن قسوة الحجاج وعسفه ، فكان يأمر بقتلهم جماعات « بالتهمة لا بالخطيئة » (35) ·

وكان سيافه يضرب اعناقهم فى حضرته وبين يديه (36) ، ثم تصلب أجسادهم بعد التمثيل بها (37) · أما المهلب فقد اعتمد فى حروبه مع الخوارج على الخداع والدهاء اكثر من اعتماده على السيف ، وحقق بذلك انتصارات لم يستطع احرازها فى ميادين القتال ، فاستطاع أن يحدث تصدعا فى جيوشهم عن طريق بث الخلاف والشقاق بين زعمائهم بما كان يثيره من مسائل فقهية يشغل بها الخوارج عن قتاله بقتال بعضهم البعض ، فاذا ما وهنت شوكتم تمكن من هزيمتهم طائفة فى اثر أخرى · وحسبه أنه استطاع بذلك أن يضع حدا لحركات الأزارقة فى المشرق الاسلامى (38) ·

---

(32) المبرد : الكامل ج 3 ص 1004 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 63 .

(33) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 203 ، ابن خلدون : العبر ج 3 ص 144 .

(34) الدينورى : الاخبار الطوال ص 275 وفى هذا الصدد ارتجز أحد الخوارج هذا القول : حتى يتبعنا المهلب ، ليس لنا فى الارض منه مهرب ، ولا السما اين المذهب ؟ الدينورى : نفس المصدر ص 276 .

(35) ابن العربى : القواصم والعواصم ورقة 107 مخطوط .

(36) مجهول : العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ص 22 .

(37) البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 63 .

(38) المبرد : الكامل ج 3 ص 1064 ، سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية ص 121 — 123 · قال قطرى بن الفجاءة فى هذا الصدد : « .. أما المهلب فهو من عرفتموه ، ان اخذتم بطرف ثوب ، أخذ بطرفه الاخر ، يمده اذا أرسلتموه ، ويرسله اذا أمددتموه ، لايبدؤكم الا أن تبدؤه ، الا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبز ؟ والثعلب المراوغ ، والبلاء المقيم » . انظر : المبرد : الكامل ج 3 صفحة 1086 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانحسرت موجة العنف ابان خلافة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، فقد نجح عمر بن عبد العزيز فى تجميد نشاط الخوارج فى عصره بسياسة المجاجاة والحسنى والاقناع (39) . بينما عمد هشام الى اسلوب الاغراء بالأموال والمناصب ، وشراء زعمائهم بالمال ايثارا للعافية (40) . وذلك كان دليلا على فتور همة الخوارج واضمحلال شانهم حتى أن مروان بن محمد لم يجد صعوبة فى القضاء على حركاتهم فى بلاد العراق والجزيرة ثم فى مدن الحجاز واليمن « فركدت ريح الخوارج من يومئذ الى ان ظهرت الدولة العباسية » (41) .

هكذا وصلت احوال الخوارج فى المشرق الاسلامى فى اواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى الى مثل هذا الضعف والانحلال ، بحيث لم يعد فى وسعهم مواصلة نشاطهم فى قلب العالم الاسلامى وكان عليهم ان يغيروا فى اسلوبهم بنبذ طريق الثورات السافرة واتباع اسلوب الدعوة والتنظيم السياسى ، والانتقال الى اطراف العالم الاسلامى بعيدا عن حاضرة الخلافة فاتجهوا الى بلاد المغرب .

---

(39) الطبرى : ج 5 ص 409 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 صفحة 260 .

(40) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج 1 ص 251 .

(41) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 167 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيـا :

بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج

نجم عن سياسة الامويين الأواخر موجة من السخط عمت كافة الولايات الاسلامية ، وقد استغل الهاشميون والخوارج حالة السخط هذه فى تاليب الجماعة الاسلامية ضد الحكم الأموى ، فبينما اتجه الهاشميون بدعوتهم نحو المشرق فى فارس وخراسان عمد الخوارج الى بث دعاتهم فى بلاد المغرب التى كانت اذ ذاك ميدانا خصبا لتقبل مبادئهم .

فقد عانت بلاد المغرب كغيرها من الولايات الاسلامية من الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية حتى ليذهب بعض الدارسين (42) الى اعتبارها دافعا اساسيا لثورات البربر على الحكم الأموى . فالثابت ان غالبية عرب الفتح الذين استقروا بالمغرب كانوا من اليمنية (43) ، وهم الذين آزروا موسى بن نصير خلال ولايته استمرت حتى عام 96 هـ . ولما عزل موسى واستبدله الخليفة سليمان بن عبد الملك بمحمد بن يزيد — وكان قيسيا (44) — كان هم الوالى الجديد وشغله الشاغل تصفية نفوذ آل موسى ، فأخذ يتتبعهم ويبطش بهم ويستولى

---

(42) انظر حسين مؤنس : فجر الاندلس ص 144 ،
Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

(43) ابن عذارى : ج 1 ص 39 ، البوعياشى : الريف بعد الفتح الاسلامى ص 15 .

(44) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص 38 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أموالهم بتحريض من الخليفة لنقمته على موسى بن نصير (45) . فأودع محمد بن يزيد عبد الله بن موسى السجن وفرض عليه من المغارم ما هو فوق طاقته (46) ، وما فتىء يعذبه حتى مات (47) .

وفى ولاية يزيد بن أبى مسلم (101 — 103 هـ) (720 — 723 م) عاد نفوذ اليمنية من جديد (48) ، وانتقم يزيد بن أبى مسلم من سلفه محمد بن يزيد ، فرمى به فى السجن واشبعه جلدا وتعذيبا انتقاما لما حل باليمنية على يديه من عسف واضطهاد .

وآلت ولاية المغرب الى بشر بن صفوان بعد مقتل يزيد بن أبى مسلم ، وكان بشر من غلاة اليمنية (49) فأمعن فى اضطهاد القيسية ، وبلغ به التعصب لعشيرته انه استخلف على البلاد قبل موته نغاش بن قـــرط الكلبى (50) ، فعاث فيها (51) وأسرف فى اذلال القيسية .

وعاودت القيسية الظهور حين ولى هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن القيسى ، فبيت النية على البطش بعمال بشر بن صفوان (52) ،

---

(45) نقم الخليفة على موسى لعدم استجابته لطلبه قبل توليه الخلافة بان ينتظر بما معه من هدايا المغرب حتى يموت الخليفة الوليد بن عبد الملك — الذى كان يلفظ انفاسه الاخيرة — فقد سلم موسى الهدايا للوليد الذى فارق الحياة بعد ثلاثة ايام . فلما آلت الخلافة الى سليمان ، نكب موسى واودعه السجن وبعث فى قتل ابنيه عبد العزيز بالاندلس وعبد الله بالمغرب .
راجع : ابن القوطية : المرجع السابـق ص 36 ، الرقيـق : تاريـخ افريقيـة والمغرب ص 294 .

(46) اليعقوبى : تاريخه ج 3 ص 255 .

(47) ابن عذارى : ج 2 ص 47 ، النويرى : نهاية الارب ج 22 ورقة 13 — مخطوط .

(48) وثمة رواية للبلاذرى وابن عبد الحكم تذهب الى ان عبد الله بن موسى قتل سنة 102 هـ فى ولاية بشر بن صفوان . راجع : فتوح البلـدان ص 273 ، فتـوح مصر والمغرب ص 290 . وعن مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير انظر : ابن القوطية : ص 37 ، الرقيق : ص 295 .

(48) ابن الابار : الحلة السيراء ص 336 .

(49) اليعقـوبـى : ج 3 ص 59 .

(50) ابن عبد الحكم : ص 216 . واورد الرقيق بدلا منه العباس بن ناصعة الكلبى . راجع : تاريخ افريقية والمغرب ص 105 .

(51) ابن ابى دينار : المؤنس صفحة 34 .

(52) وقد استصرخ احد زعماء اليمنية هشام بن عبد الملك لانقاذهم من بطش عبيدة بن عبد الرحمن بهذه الابيـات :

أساءت بنـو مـروان منا وما لنـا ... وفى الله ان لـم يعـدلـوا حكـم عـدل
كأنهـم لـم يشـهـدوا لـى وقتـة ... ولـم يعلمـوا مـن كـان قبل له الفضل
وقينـاكـم حـر القنـا بسيـوننـا ... وليس لكـم خيـل سوانـا ولا رجـل
فلمـا تيقنتم نيـل مـا قـد اردتمـوا ... وطـاب لكـم منـا المشـارب والاكـل
تغـافلتـم عنـا كـأن لـم يكـن لكـم ... صديقا وانتـم مـا علمتـم لنـا وصـل

انظر : الرقيـق : ص 105 — 106 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وامعن فى اقتفاء آثر آل موسى بن نصير حتى استأصل شأفتهم (54) . واستمرت محنة اليمنية فى المغرب فى عهد عبيد الله بن الحبحاب الذى تقلد الولاية سنة 116 هـ (735 م) ، ولاقى اشياعهم على يديه عنتا شديدا (55) .

والى جانب انشغال الولاة بالخصومات القبلية ، كانوا يتنافسون فى جمع الاموال ارضاء للخلافة من ناحية ، وكسبا للانصار واشباعا لنهمهم من ناحية أخرى . فعكفوا على ارسال الحملات والجيوش تضرب فى أطراف المغرب أو تهاجم الجزر البحرية فى البحر المتوسط بغية السلب والنهب . فيزيد ابن أبى مسلم غزا صقلية سنة 101 هـ (56) (719 م) فى وقت كان الموقف بالمغرب عصيبا . وفى سنة 109 هـ (727 م) غزا بشر ابن صفوان نفس الجزيرة « واصاب منها سبيا كثيرا » (57) بعد أن « هلك من جيشه خلق كثير » (58) . وغزا الاسطول الذى بعثه عبيدة ابن عبد الرحمن الى صقلية فى العام التالى بقيادة المستنير بن الحبحاب (59) . وغزا عبيد الله بن الحبحاب فى بلاد السوس وارض السودان ، لكنه لم يجن من وراء غزواته سوى مغانم الذهب والفضة وسبايا البربر (60) . كما بعث بجنده الى جزيرة سردينية سنة 117 هـ (736 م) « فنهبوا وغنموا وعادوا » (61) ، ثم غزا صقلية وعادت حملته بالاموال والسبايا (62) . و فى كل تلك الجيوش كان البربر يشكلون غالبية رجالها ، فكانوا اداة لخدمة اطماع الولاة .

ويجمع كثيرون من المؤرخين (63) على سوء معاملة عمال العصر

---

(54) ابن الابار : صفحة 48 .
(55) ابن عبد الحكم : ص 293 ، مؤنس : ثورات البربر فى افريقية والاندلس ص 165 .
(56) ابن عبد الحكم : ص 289 ، ابن عذارى : ج 1 ص 49 .
(57) الرقيق : ص 102 ، السلاوى : ج 1 ص 293 ، الباجى المسعودى : الخلاصة النقية صفحة 13 .
(58) ابن عبد الحكم : صفحة 191 .
(59) نفس المصدر والصحيفة .
(60) البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 ، الرقيق : ص 108 .
(61) ابن الاثير : ج 5 صفحة 69 .
(62) الرقيق : ص 109 ، السلاوى : ج 1 ص 95 .
(63) انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 23 ، الورجلانى ج ا ص 27 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج 2 ص 204 ، مؤنس : ثورات البربر ص 147 ، دبوز : المغرب الكبير ج 2 ص 234 ، 235 ؛
Marcais : La Berberie Musulmane. P. 43, Hopkins : Medieval Mulim government ; P. 27.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاموى الاخير للبربر وارهاقهم بالمغارم والجبايات ، واعتبر بعضهم بلاد البربر دار حرب حتى بعد اعتناقهم الاسلام جريا على سياسة الخلافة الاموية فى سائر الامصار الاسلامية (64) . وحاول الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع حد لتسلط الولاة واستعادة ثقة البربر فى الحكومة الاسلامية ، فعين على المغرب واليا تقيا هو اسماعيل بن عبيد الله (65) . وأمره باسقاط الجزية على من أسلم من البربر وتحرير من استرق من نسائهم ، كما أمره « باقرار القرى فى يد غنامها بعد أخذ الخمس » (66) ، لتئول الارض الى أصحابها فيجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم (67) . وقد حرص عمر بن عبد العزيز على أن يجمع اسماعيل بن عبيد الله بين أعباء الادارة والحرب الى جانب جمع الخراج والصدقات (68) ليحول دون جور الجباة واستبدادهم .

لكن هذه السياسة انتهت بوفاته ، وعادت الخلافة الاموية الى سيرتها الاولى . فقد استبدل الخليفة يزيد بن عبد الملك اسماعيل بن عبيد الله بيزيد بن ابى مسلم سنة 102 هـ 720 م ، فاستبد بالبربر ، وقضى على الاصلاحات التى انجزها سلفه ، وكان يزيد بن ابى مسلم ينفذ مشيئة الخلافة الاموية التى اعادت فرض الجزية على من اسلم من الموالى (69) ليتسنى لها الحصول على مزيد من الاموال والتنصل من دفع مزيد من الاعطيات للجند المسلمين من الموالى ومهما كان الامر فقد اشتط يزيد فى معاملة البربر ، ونسب اليه أنه اهدر كبرياءهم بوشم حرسه من البربر فكان يشم الرجل فى يده اليمنى باسمه وفى اليسرى بكلمة « حرسى » ، وادى ذلك الى شعور البربر بالمهانة ، فانفوا منه وانكروه (70) .

وجرى عبيدة بن عبد الرحمن على سياسة العسف هذه حتى

---

(64) عن هذا الموضوع انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 275 وما بعدها .
(65) اخبار مجموعة ص 23 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 .
(66) اخبار مجموعة صفحة 23 .
(67) فلهوزن : المرجع السابق صفحة 280 .
(68) ابن عبد الحكم : صفحة 287 .
(69) الطبرى : ج 6 ص 617 ، ابن تغرى بردى : ج 1 ص 245 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية صفحة 235 .
(70) البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 ، ابن عبد الحكم : ص 289 ، الرقيق : ص 99 ، مؤنس : ثورات البربر ص 163 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« جمع من الاماء والجوارى والعبيد والخصيان والدواب والذهب » (71) الشيء الكثير . وتفاقمت الاحوال وازدادت سوءا ابان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذى أسرف فى سياسته فجند الجيوش لسلب البربر وسبيهم فى اقاصى المغرب (72) ، ونشر الهلع والرعب فى تلك الاصقاع . وعين ابنه اسماعيل عاملا على طنجة وجعل معه عمر بن عبد الله المرادى ، فأساءا السيرة واعتبرا البربر فيئا — اسلموا أم لم يسلموا — وعاملوهم معاملة الرقيق (73) . وهكذا تسبب الولاة الامويون فى المغرب فى اثارة مشاعر الحقد والكراهية عند البربر على الولاة والخلفاء على السواء مما اوجد مناخا ملائما لانتشار مذهب الخوارج .

ويحاول بعض الدارسين الدفاع عن الخلافة الاموية وتبرئتها من تبعات ما حدث فى المغرب من مساوىء ، بالقاء اللوم على الولاة وحدهم . فيذكر دبوز (74) ان « سليمان بن عبد الملك انكر على موسى بن نصير سلوكه فى المغرب وانه كان حانقا عليه لمبالغته فى السبى وعدم عدله فى البربر » . ويمضى الدكتور السيد عبد العزيز سالم (75) فى نفس الاتجاه فيقول « . . وكان سليمان بن عبد الملك يستهجن سياسة عبد الله بن موسى القائمة على العنف والتسلط فى معاملة البربر . . » ويستشهد بعبارة اوردها الرقيق (76) مدللا بها على نزاهة الخليفة وعدله اذ اوصى واليه الجديد على المغرب بقوله « يا محمد بن يزيد ، اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل » . ويظهر نفس هذا الاتجاه عند الدكتور مؤنس (77) اذ يقول « . . وليس الى الشك سبيل فى ان خلفاء بنى امية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبى مسلم

---

(71) ابن عبد الحكم : ص 292 .

(72) الرقيق : ص 108 البلاذرى : فتوح البلدان ص 223 .

(73) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique septentrionale. vol. I.P. 71, Provencal : Histoire de l'Espagne Musulmane vol. I.P. 29, Hopkins : Medieval Moslem government. P. 28.

(74) المغرب الكبير ج 2 صفحة 165 .

(75) المغرب الكبير صفحة 288 .

(76) تاريخ افريقية والمغرب ص 63 ، النويرى : ج 22 ورقة 13 .

(77) فجر الاندلس ص 145 ، ثورات البربر ص 151 ، 152 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبشر بن صفوان فى افريقية ، اذ انهم لم يكونوا يعلمون شيئا عن الوسائل التى كانا يلجان اليها فى عسف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حين علم بقتل البربر يزيد ابن ابى مسلم » (78) .

ونعتقد أن المحدثين قد تأثروا فى هذا الصدد برواية لصاحب كتاب اخبار مجموعة فى فتح الاندلس تقول « .. وقد يقول من يطعن على الائمة انهم انما خرجوا ضيقا من سير عمالهم ، وان الخليفة وولده كانوا يكتبون الى عمال طنجة فى جلود الخرفان العسلية .. وهو قول اهل البغض للائمة (يقصد الخوارج) » ومن المعروف أن هذا المؤرخ المجهول يعد الوحيد بين المؤرخين القدامى الذى تصدى للدفاع عن بنى امية . ولا غرابة فى ذلك اذا علمنا انه كان اندلسيا يعيش فى كنف الدولة الاموية بالاندلس ، وبديهى أن يتعصب لبنى امية ضد اعدائهم .

أما ما ذكره دبوز عن حنق سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير لعدم عدله فى البربر ، فقول يؤخذ بحذر . فمن الثابت أن حقده هذا يرجع لاسباب شخصية اوردناها سلفا . ونفس الشىء يقال فى تفسير حنق سليمان بن عبد الملك على عبد الله بن موسى ، وليس الحال كما ذكر الدكتور سالم استهجانا لتسلط عبد الله على البربر . فما اورده من دليل فى هذا الصدد لا يؤيد ما ساقه ، اذ أن نصيحة الخليفة لواليه الجديد باتباع « الحق والعدل » امر تقليدى اصطلح عليه فى تعيين الولاة والعمال .

وتؤكد الوقائع هذا التفسير ، فقد أسرف الوالى الجديد فى اضطهاد اليمنية وتعقب آل موسى بن نصير واتباعهم ومصادرة اموالهم وسبى ذراريهم مرضاة للخليفة (79) .

ولا نشك فى ان ولاة المغرب كانوا يمثلون مشيئة الخلافة وينفذون سياستها ، وان الخلفاء درجوا على اختيار عمال يأتمرون بأمرهم ، والا فما تفسير سنى الاصلاح والعدل التى شهدها المغرب ابان ولاية اسماعيل ابن عبيد الله ؟ ؟ لقد حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى عرف

---

(78) وقد ذكر الدكتور مؤنس فى هذا الصدد قولا آخر هاك نصه : « اعتاد الخلفاء من عمال افريقية كثرة الهدايا والالطاف والاموال ، ولم يستطيعوا الامتناع عن الالحاح على العمال فى طلبها .. » راجع ثورات البربر ص 144 ، 145 .

(79) ابن عذارى : ج 1 صفحة 47 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالورع والتقى على اختيار عماله من العدول الاتقياء ، وكان اسماعيل احدهم . والظلم الذى حاق بالبربر على يد يزيد بن أبى مسلم انما تم تحت سمع الخلافة وبصرها ، فالخليفة يزيد بن عبد الملك عرف بالطمع والجشع وحب المال « الذى جمع له عماله منه ما لم يجمع لاحد من قبل » (80) . ولا غرو فقد كان ممتنا لسياسة عامله فى المغرب الذى اشبع له اطماعه فقال فيه عبارته الشهيرة « ما مثلى ومثل الحجاج وابن أبى مسلم بعده الا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا » (81) . وتسليم الخليفة بما حدث من قتله سنة 102 هـ (721 م) واختيار محمد بن يزيد بدلا منه لا يؤيد وجهة نظر الدكتور مؤنس ، فقد كان عليه أن يسلم بالامر الواقع ريثما تهدأ الخواطر من جراء الآثار السيئة لحكم يزيد فى نفوس البربر ، ثم رماهم بعد شهور ببشر بن صفوان الذى انتقم من قتلة يزيد . وبعد موت يزيد بن عبد الملك تولى اخوه هشام الخلافة فأقر بشرا على المغرب لانه « بعث اليه بأموال عظام وهدايا فاخرة » (82) . ولا يخامرنا شك فى أن اشتطاط ابن الحبحاب فى سياسته المالية بالمغرب كان مرضاة للخليفة ، فقد كان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فى طلبها الى عمال افريقية . ويذكر ابن عذارى (83) انه لما افضى الامر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير . ويخبرنا ابن خلدون (84) أن الخلفاء كانوا يطالبون الولاة بالوصائف البربريات والاردية العسلية الالوان وانواع طرف المغرب ، فكانوا يتغالون فى جمع ذلك وانتحاله حتى « كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد منها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه » .

ولدينا من الروايات ما تؤكد أن الخليفة رفض السماح لوفد من البربر جاء اليه يشكو جور ابن الحبحاب وعسفه ، وعاد بعد أن تيقن رجاله من تواطؤ الخليفة مع عماله (85) ، وأن الخليفة بسبب جشعه

---

(80) لهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 337 . عن صاحب كتاب الصلة الاسبانى الذى اكمل تاريخ ايزيدور .
(81) السلاوى : ج 1 صفحة 91 .
(82) اليعقوبى : تاريخه ج 3 صفحة 59 .
(83) البيان المغرب ج 1 صفحة 53 .
(84) العبر ج 6 صفحة 119 .
(85) الطبرى : ج 4 صفحة 264 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للحصول على الاموال « هو الذى يكره العمال على امتصاص دم الرعايا » على حد قول فلهوزن (86) . ولعل ما حدث فيما بعد من رفض عبد الرحمن ابن حبيب الاذعان لمشيئة المنصور قائلا عبارته المتواترة « ان افريقية اليوم اسلامية كلها وقد انقطع السبى منها والمال » (87) ما يشير الى ما كان سائدا فى العصر الاموى الاخير من طمع الخلفاء فى أموال البربر وسباياهم ، ويؤكد مسؤولية الخلافة الأموية عما كان يقوم به عمالها فى بلاد المغـــرب .

كان الظلم الاجتماعى الذى استشرى فى بلاد المغرب اذن من صنع الخلافة وعمالها ، وهو امر ساعد البربر الذين كانوا قد أسلموا وصلح اسلامهم على اعتناق مبادىء الخوارج التـــى تحض على الثـــورة على الجائرين من الحكام (88) .

لقد بدا انتشار الاسلام بين البربر منذ وطأت اقدام العرب بلاد المغرب ، وكان لعقبة بن نافع دور بارز فى هذا الصدد (89) ، فقد بنـــى مدينة القيروان سنة 55 هـ (675 م) فدخل كثير من البربر فى الاسلام وثبت الاسلام بها (90) وواصل ابو المهاجر سياسة عقبة فى نشر الاسلام وتعريب البربر ، وحسبه اكتساب كسيلة وقومه الى الاســـلام واتخاذه حليفا (91) ، كما صالـــح عجم افريقية وادخلهـــم حظيرة الاســـــلام والعـــروبـــة (92) .

والى حسان بن النعمان يعزى الفضل فى المؤاخاة بين البربر والعرب، فقد جند من البربر أجنادا وعهد الى ثلاثة عشر فقيها من كبار التابعين بتعليمهم القرآن واصول الاسلام واللغة العربية ، وخدم هؤلاء فى الجيش العربى جنبا الى جنب مع العرب المسلمين . ومنذ ذلك الحـــين اطردت حركة بناء المساجد فى سائر أرجاء المغرب (93) ، واصبحت بمثابة مراكز

---

(86) تاريـخ الدولـــة العربيـــة صفحـــة 331 .
(87) ابـــن الاثيـــر : ج 5 صفحـــة 117 .
(88) البغدادى : الفرق بين الفرق ص 273 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيـــة صفحـــة 231 .
(89) ابـــن الاثيـــر : ج 3 صفحـــة 234 .
(90) نفس المصـــدر صفحـــة 235 .
(91) ابـــن عـــذارى : ج 1 صفحـــة 28 .
(92) المـــالكـــى : ريـــاض النفـــوس ج 1 صفحـــة 21 .
(93) عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ص 224 ، المالكـــى : ص 36 ، الدباغ ج 1 ص 61 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثابتة لنشر الاسلام والحضارة العربية بين البربر (94) . أما موسى بن نصير فقد بث الاسلام فى بلاد المصامدة (95) وفقه البربر فى تلك الانحاء فى قواعد الدين واصول الشريعة (96) . كما أشرك البربر المسلمين فى فتح الأندلس وجعل لأحدهم قيادة الجيش وهو طارق بن زياد (97) ، وفى ذلك دلالة على رسوخ الاسلام عند البربر وقيامهم بحمل رسالته الى أوربا فى أواخر القرن الاول الهجرى (98) .

وفى خلافة عمر بن عبد العزيز تعاظمت حركة اسلام البربر وتعريبهم ، اذ بعث الى المغرب واليه اسماعيل بن عبيد الله ، وجعل برفقته عشرة من كبار الفقهاء لتبصير المغاربة بأصول الاسلام وفروعه وتعليمهم اللغة العربية (99) واستجاب البربر لتعاليم الفقهاء واقبلوا على الاسلام حتى « غلب على المغرب » (100) « ولم يبق يومئذ من البربر احد الا اسلم » (101) ، باستثناء جماعات طفيفة العدد متناثرة من المسيحيين الذين ظلوا على دينهم (102) .

وهكذا جرى اسلام البربر وتعريبهم « فى سرعة وعمق

---

(94) نفس المصدر السابق ص 223 ، ابن عذارى ج 1 ص 27 .
(95) ابن عذارى : ج 1 صفحة 43 .
(96) ابن عبد الحكم : صفحة 204 .
(97) مجهول : اخبار مجموعة صفحة 6 .
(98) انظر : حسن ابراهيم : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية ص 89 ــ 90 ؛
Brunschvig : La Tunisie dans le haut moyen age.
P. 7, Drague : Esquisse d'histoire religeuse du Maroc, P. 17.
حيث يعتقد أولئك المؤرخون أن اسلام البربر كان سطحيا حتى ذلك الحين .
(99) المالكى : ج 1 ص 67 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 142 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ص 99 .
(100) البلاذرى : فتوح البلدان ص 273 ، ابن كثير : البداية والنهاية ج 9 ص 185 ، النويرى : ج 22 ورقة 14 .
(101) ابن عبد الحكم : ص 87 ، الرقيق : ص 297 ، الدباغ : ج 1 ص 154 .
ابن خلدون : ج 4 ص 188 ، السلاوى : ج 1 ص 90 .
(102) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص 31 ؛
Marcais : La Berberie musulmane. P. 36.
وقد زعم بعض المستشرقين أن عمر بن عبد العزيز خير مسيحى المغرب بين الدخول فى الاسلام أو الرحيل عن البلاد ، فآثر بعضهم اعتناق الاسلام بينما رحل البعض الاخر الى أوربا . انظر :
Bonte : l'Islamisme et le christianisme en Afrique. P. 72.
وقد أنكر البعض الاخر هذا التجنى « فعمر لم يكره النصارى على اعتناق الاسلام مهددا اياهم بالطرد والقتل ، وذلك لانه كان مسلما حقا متمسكا بما ورد فى الشريعة الاسلامية فى معاملة أهل الذمة ، وليس من المعقول أن يتجاهل أو يخرج عن هذه الشريعة » . انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 289 ؛
Mercier : Histoire de Constantine. P. 86.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشمول » (103) على عكس دعاوى بعض المستشرقين (104) الذين ذهبوا الى ان حركة التعريب لم تساير انتشار الاسلام فى المغرب ، وان البربر لم يتعلموا العربية الا فى وقت متأخر .

ووجد البربر المسلمون تناقضا صارخا بين تعاليم الاسلام ومبادئه بما تنطوى عليه من عدل ومساواة وبين سياسة الامويين الاواخر الجائرة ، فاقبلوا على اعتناق مذهب الخوارج وهو فى جوهره مذهب « ثورى ديمقراطى اشتراكى » على حد تعبير ميور (105) .

وليس الى الشك سبيل فى أن مبادىء الخوارج بما تنطوى عليه من تمسك بالشريعة فى جانبها العقائدى (106) ، وثورية فى قوامها السياسى وبساطة ووضوح فى جوانبها الفكرية ، وجدت مناخا ملائما فى ظروف المغرب الاسلامى وطبيعة سكانه .

فاذا كانت الديمقراطية هى محور مذهب الخوارج وقوامه على اعتبار ان الامامة حق متاح لكل مسلم (107) ، فبديهى ان يلقى ذلك المذهب قبولا لدى البربر الذين طال حرمانهم من المساواة مع العنصر العربى الحاكم . ومن الطبيعى أن تتولد لديهم نزعة قومية مغربية تتطلع لازاحة نفوذ الاقلية العربية عن مكان الصدارة والحكم فى اطار شرعى يكفله الدين ، ولما كان مذهب الخوارج يقول بالثورة على الجائرين من الحكام (108) فقد وجد البربر فى اعتناقه مبررا لانتفاضهم على الحكم العربى .

وبمعنى آخر ، اكتسبت نزعة الاستقلال عند البربر — بفضل مذهب الخوارج — طابعا ثوريا دينيا (109) ، فالتقى البربر مع الخوارج فى موقفهم من عدو مشترك ممثل فى السلطة الاموية .

---

(103) Brunschvig : Op. Cit. P. 7.

(104) انظر
Marcais, W : Comment L'Afrique du Nord à ete arabisee. P. 3, Hudas : Essai sur l'ecriture Maghrebine, P. 86, Marcais, G : La Berberie Musulmane, P. 41.

(105) The caliphate, its rise, decline and Fall : P. 407.

(106) انظر : ابو زكريا : السيرة ورقة 8 مخطوط ،
Smith : The Ibadites. P. 279.

(107) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 46 .

(108) البغدادى : الفرق بين الفرق ص 273 .

(109) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص 164 ،
Vonderheyden : La Berberie Orientale. P. 4.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفضلاً عن ذلك فان وضوح فكر الخوارج والتزامه بظاهر الدين وعدم ميله للفلسفة والتأويل (110) جعله يتلاءم مع عقلية البربر (111)· وبعبارة اخرى كان فكر الخوارج متسقا مع طبيعة البربر المعروفين «باقامتهم لمراسم الشريعة واخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله » (112)·

ومن مظاهر هذا الاتساق أيضا أن صفات الصلابة والقوة ممثلة فى قول الخوارج بالاستعراض ورفض التقية والامر بالمعروف والنهى عن المنكر (113) يقابلها عند البربر شدة المراس وقوة البأس والميل الغريزى للتطرف (114) ·

وهكذا كانت مبادىء الخوارج متوائمة مع طباع البربر الفطرية ومتمشية مع اهدافهم السياسية ونزعتهم القومية . وهو ما عبر عنه السلاوى (115) فى ايجاز رائع بقوله : « .. وحسن موقعها (يعنى مبادىء الخوارج) لديهم بسبب ما كانوا يعانون منه من وطاة الخلافة القرشية ، وجور بعض عمالها ، فلقنهم أهل البدع أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية بل ولا العربية .. ودسوا اليهم مع ذلك بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم ، وأروهم ما هم عليه من التصلب فى دينهم ، فظهر للبربر ببادىء الراى أن تعمقهم ذلك انما هو من آثار الخشية لله والخوف منه ، وأن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا .. »

قصارى القول — ساعدت أحوال بلاد المغرب فى أواخر القرن الاول الهجرى وأوائل القرن الثانى على نزوح الخوارج المضطهدين فى المشرق الى بلاد المغرب (116) لنشر دعوتهم بين البربر وتحقيق ما فشلوا فيه من قبل من أهداف ·

---

(110) انظر : الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 40 وما بعدها ، احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 ص 335 .

(111) صاعد الاندلسى : طبقات الامم ص 12 ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 صفحة 72 — 73 ، Dozy : Op.cit. P. 131.

(112) ابن خلدون : ج 6 ص 105 ، Smith : Op. Cit. P. 279
ولذلك طلق عليهم دوزى « كلافنة الاسلام » ودى بوا «بيوريتان الاسلام »
Spanish Islam. P. 130, Le Djebel Nefousa. P. 137.

(113) انظر : الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 142 وما بعدها ·

(114) صاعد الاندلسى : طبقات الامم ص 12 ،
Cam. Med. hist. Vol. 2 P. 376, Draguge : Op. Cit. P. 23.

(115) الاستقصا ج 1 صفحة 123 .

(116) ابن خلدون : العبر ج 5 ص 11 ،
Le Tourneau : La revolte,
d'Abou-Yazid. P. 105 Mercier : Histoire de L'etablissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale. P. 70.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثا :

انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب

كان فشل الخوارج فى المشرق فى تحقيق أهدافهم سببه أن حركاتهم كانت تفتقر الى التنظيم السياسى (117) ، وتعمد الى القيام بثورات هوجاء دون تنظيم أو اعداد سابق (118) مما سهل على الخلافة الاموية وولاتها مهمة مناهضتها واستئصال شأفتها اولا بأول . وبانتهاء القرن الأول الهجرى اختفت فرقتا الازارقة والنجدات وهما من أهم فرق الخوارج . وكان من الطبيعى أن تلجأ فرقتا الصفرية والاباضية الى اسلوب مغاير

---

(117) ما يقال عن الاتفاق السرى بين ثلاثة من الخوارج لاغتيال على ومعاوية وعمرو بن العاص لا ينفى صحة ما ذهبنا اليه . فهو تآمر انتقامى لا يخدم أهدافا بعيدة للخوارج . وأسلوب التآمر السرى ليس تيارا أصيلا فى فكر الخوارج السياسى بل انه « لا يتفق مع عادات الخوارج » على حد قول بعض الدارسين .
راجع : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 98 ؛
Hitti : History of the Arabs. P. 182.

(118) تخالف ما ذهبت اليه الدكتورة سهير القلماوى فى تفسيرها اختلاف الخوارج على نافع بن الازرق وظهور فرق الازارقة والنجدات والصفرية والاباضية بأنه خطة محكمة من الخوارج للهجوم على الدولة الاموية التى كانت تجتاز اذ ذاك أزمة خطيرة فيتجه فريق منهم الى الشمال وآخر الى الجنوب لتكوين خط هجوم شرقى يمتد من الجزيرة شمالا الى اليمامة والبحرين جنوبا ، بينما يتوغل فريق ثالث فى فارس لاتخاذها ملجأ ساعة الشدة . انظر : أدب الخوارج فى العصر الاموى ص 35 . والواقع أن المصادر لا تشير الى شىء من هذا البتة ، والذى يفهم من الروايات أن ما حدث كان محض خلاف فقهى انتهى الى انشقاق مذهبى وسياسى فى جماعة الخوارج . ولم يحدث قط ثمة تعاون مشترك بين هذه الفرق فى صراعها مع الدولة الاموية .
عن ظهور فرق الخوارج راجع ، الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 49 وما بعدها ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 2 ص 191 وما بعدها ، البياسى : الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام ج 2 ص 169 — مخطوط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تواصه تنظيم الدعوة السرية وبث الدعاة فى أطراف العالم الاسلامى لنشر تعاليم المذهب ، فاذا ما ازداد الانصار عددا وانسوا من انفسهم قدرة على الثورة بادروا بالخروج ·

كانت بلاد المغرب أهم أقاليم الاطراف التى اتجهت اليها جهود دعاة الخوارج العراقيين (119) فمتى تم ذلك ؟ وأى فرق المذهب قدر لها أن تنتشر فى البلاد ؟ ·

لا نستطيع أن نحدد فى وضوح تاريخ بدء دعوة الخوارج بالمغرب بسبب تضارب الروايات واختلاطها ، فابن حوقل (120) يرجع بداية الدعوة الى معركة النهروان سنة 38 هـ (658 م) فيذكر أن « عبد الله بن وهب الراسبى وعبد الله بن اباض لجأ الى جبل نفوسة منذ وقت انصرافهم عن امير المؤمنين على بن أبى طالب بمن سلم معهم من أهل النهروان .. واقاموا هذا الجبل دار هجرة » لكن المعروف أن الراسبى قتل فى النهروان (121) ، كما أن ابن اباض لم يرد له ذكر بين من نجوا من القتل فى المعركة (122) ، الامر الذى يشكك فى صحة هذه الرواية · ليس ببعيد أن يكون بعض من فروا بعد معركة النهروان قد اعتصموا بجبل نفوسة ، لكنهم لم يتركوا هناك اثرا يذكر · لكن الظهور الحقيقى لمذهب الخوارج فى بلاد المغرب يعود الى أواخر القرن الاول ، وأوائل القرن الثانى الهجريين (123) ·

أما عن فرق الخوارج التى انتشرت ببلاد المغرب ، فانه قد اختلط امر تحديدها على بعض المحدثين الذين أرخوا للخوارج فى المغرب ، اذ زعم بعضهم (124) أن البلاد شهدت انتشار فرق الخوارج جميعها ، وتشكك البعض (125) الآخر فى وجود فرقتى الاباضية والصفرية

---

(119) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 110 ·
(120) المسالك والممالك ص 68 ·
(121) المسعودى : مروج الذهب ج 2 ص 417 ·
(122) نفس المصدر والصحيفة ، ابن خلدون : العبر ج 3 ص 142 ·
(123) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، السلاوى : ج 1 ص 123 ، عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ج 1 ص 116 ·
(124) انظر :
Basset : Recherches sur la religion des Berberes. P. 331,
الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص 118 ·
(125) انظر :
Dozy : Op. Cit. P. 131.
ومؤنس : فجر الاندلس ص 148 ، ثورات البربر ص 154 — 155 ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أساس « أن مبادىء الفرقتين ليست مما يجذب البربر ، فهما أكثر فرق الخوارج ميلا للمسالمة والتسامح مع المخالفين » ، علما بأن الصفرية من أكثر فرق الخوارج تطرفا ، لا ننكر أنهم اتخذوا موقفا وسطا بين الازارقة المسرفين فى التطرف والاباضية المعتدلين (126) لكن ثوراتهم اتسمت بالقسوة والعنف سواء فى المشرق او المغرب ، فلم يكونوا اقل حدة من الازارقة فى هذه الناحية (127) .

ونعتقد أن من اشرت اليهم من المؤرخين المحدثين انما تأثروا بقول صاحب كتاب أخبار مجموعة (128) ، « فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس اقتداء بالأزارقة واهل النهروان » . لكن الذى نؤكده أن الازارقة قضى عليهم نهائيا بعد قتل قائديهما قطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال سنة 77 هـ (696 م) على يد المهلب بن ابى صفرة واختلفوا نهائيا بعدئذ من مسرح السياسة (129) أما النجدات ، فقد فتك عمر بن عبيد الله بن معمر قائد عبد الملك بن مروان بزعيمهم أبى فديك سنة 72 هـ (691 م) وقتل معه ستة آلاف من أصحابه بالبحرين ، فتضاءل شأنهم بعد ذلك (130) .

معنى هذا أن فرقتين فقط من فرق الخوارج الكبرى ظهرتا ظهورا واضحا فى أحداث بلاد المغرب وهما فرقة الصفرية ، وفرقة الاباضية ، فما تاريخ ظهور الفرقتين ؟ ؟

ينتسب الخوارج الصفرية الى عبد الله بن الصفار (131) ، وان كانت كتب الفرق (132) ترجع بهذا النسب الى شخص يقال له زياد بن

---

(126) الشهرستانى : الملل والنحل ص 121 — 123 ، ذكر جوليان انه اذا كان الازارقة يمثلون اليسار المتطرف فى مذهب الخوارج والاباضية اليمين ، فان الصفرية يمثلون اليسار . بينما يشبه جوتييه الاباضية بالمونشيك والصفرية بالبولشفيك . انظر : Histoire de l'Afrique du Nord. P. 329. Les Siecles obscurs. P. 269,

(127) Gautier : Loc. Cit.

عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 ص 288 .

(128) صفحة 32 .

(129) الطبرى : ج 6 ص 308 ، ابن خلدون : 3 ص 161 ، الاسفرائينى : ص 51 ، البغدادى : ص 87 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 109 .

(130) ابن الاثير : ج 4 ص 140 ، البغدادى : ص 90 .

(131) البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 83 .

(132) انظر : السرازى : ص 51 ، الاسفرائينى : ص 52 ، البغدادى ص 90 ، الشهرستانى : ص 123 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاصفر · وأيا ما كان الامر فلا محل لتصديق روايات أخرى ترجع تسميتهم لصفرة وجوههم من كثرة العبادة (133) ، او لانهم أخرجوا من الديـن صفرا (134) فكثرة العبادة من صفات الخوارج عموما وليست حكرا على الصفرية ، كما أن التفسير الثانى من نسج فقيه اباضى معاد للصفرية · ولا صحة للقول الذى ينسبهم الى المهلب بن ابى صفرة (135) اعدى اعداء الخوارج · ولا يمكن ان نقبل الروايات التى تنسبهم الى عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير او ابى بلال مرادس (136) ، فلم يكن الخوارج قد افترقوا بعد الى فرقهم المعروفة ، بل أطلق عليهم اذ ذاك « المحكمة الاولى » (137) انما ظهر الصفرية حين خالف عبد الله بن الصفار نافعا بن الازرق حول مسألة القعدة سنة 65 هـ (684 م) وهو خلاف فقهى بالدرجة الاولى (138) اتخذوا فيه موقفا وسطا بين الازارقة المتطرفين والاباضيـة المعتدلين ، « فلم يكفروا القعدة عن القتال اذا كانوا موافقين فى الديـن والاعتقـاد » (139) ·

والواقع ان عقائد الصفرية تمثل تطورا عمليا ملحوظا فى فكر الخوارج وعقائدهم ، اذ تجنح الى التخفيف من غلواء التطرف الذى افضى بحركاتهم الى الفشل من قبل فهم لم يسقطوا الرحم ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم كالازارقة ، كما نادوا بجواز التقية فى القول دون العمل (140) ، واجاز بعض زعمائهم تزويج المسلمات من كفار قومهم فى دار التقية (141)· وقد كفل لهم ذلك معايشة الجماعة الاسلامية بدلا من اشهار عدائهم لها ، الامر الذى اتاح لهم القدرة على الدعوة السرية المنظمة ، وحقق لمذهبهم الانتشار · لكنهم كانوا أكثر تطرفا من الاباضية فى موقفهم من مرتكبى الكبائر ومن ثم من مسألة « الكفر والايمان » ، فبينما راى الاباضية انهم موحدون قال الصفرية بتكفيرهم · (142) وفى ذلك تفسير لنزعة القسوة والعنف التى

---

(133) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 216 ·
(134) السوفى : شرح السؤالات ورقة 114 · مخطوط ·
(135) ابن تغرى بردى : ج 1 ص 289 ·
(136) المبـرد : الكامـل ج 3 ص 1006 ·
(137) البغـدادى : صفحـة 91 ·
(138) ليفى ديلافيدا : مادة الصفرية ـ دائرة المعارف الاسلامية ص 229 ·
(139) الشهرستـانـى : صفحـة 123 ·
(140) الـرازى : صفحـة 51 ·
(141) المرجـع السابـق صفحـة 122 ·
(142) نفس المصدر ص · 121 ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لازمت سياسة الصفرية فى معاملة اعدائهم ·

وعلى كل حال ــ استفاد الصفرية من اخطاء الازارقة والنجدات ومن كان قبلهم من المحكمة الأولى ، فتريثوا قبل دخولهم معترك الحياة السياسية ، فلم نسمع عن حركات لهم قبل ثورة صالح بن مسرح ضد الامويين سنة 76 هـ (143) (695 م) · كما امتازت ثوراتهم بالتركيز على منطقة الموصل والجزيرة وديار بكر ، واتخذوها مقرا تتجمع فيه قواتهم لتتجه فى أعداد كبيرة نحو البصرة والكوفة ، وقد سقطت الكوفة نفسها فى أيديهم مرتين الأولى ابان ثورة شبيب سنة 77 هـ (144) (696 م) والثانية أثناء ثورة بسطام بن يشكر المعروف بشوذب سنة 100 هـ (145) (718 م) ، الامر الذى يؤكد أن حركاتهم كانت تهدف الى اقامة دولة للخوارج

ان التطور الجديد فى فكر الخوارج الصفرية بتجويز مبدأ التقية ، والاتجاه العملى فى حركاتهم بالمشرق (146) يؤكد جنوحهم الى أسلوب الدعوة السرية المنظمة فى المغرب · لا ننكر ان هذه الناحية اكثر وضوحا عند الاباضية بسبب وفرة المادة التاريخية المتعلقة بهم ، لكن تاريخ الصفرية لا يخلو من اشارات تؤكد الاتجاه الذى اشرت اليه ، هذا الاتجاه الذى يتجلى فى جهود دعاتهم فى نشر مذهبهم ببلاد المغرب ·

تذكر المصادر الاباضية (147) ان « اول من جاء بطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية سلمة بن سعيد قال ، قدم علينا من أرض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس على بعير ، سلمة يدعو الى مذهب الاباضية وعكرمة يدعو الى مذهب الصفرية » ·

معنى هذا أن القيروان كانت مركز الدعوة فى المغرب (148) ، لكننا لا نعرف

---

(143) الطبرى : ج 6 صفحة 215 ·

(144) عن حركة شبيب بن يزيد الشيبانى انظر : الطبرى : ج 6 ص 223 وما بعدها ·

(145) عن حركة شوذب راجع : الطبرى : ج 6 ص 556 وما بعدها ·

(146) هذه الحركات هى : ثورة بهلول بن بشر الشيبانى بالموصل سنة 119 · انظر : ابن الاثير : ج 5 ص 77 وما بعدها ·
ثورة الصحارى بن شبيب سنة 119 هـ · انظر : الطبرى ج 7 ص 137 وما بعدها
ثورة الضحاك بن قيس الشيبانى : انظر : ابن قتيبة : المعارف ص 412 ·
ثورة الخيبرى الصفرى سنة 128 هـ · انظر الطبرى : ج 7 ص 347 ·
ثورة شيبان بن عبد العزيز سنة 129 هـ · وهى آخر ثورات الصفرية فى العصر الاموى انظر : الطبرى : ج 7 ص 349 ·

(147) أبو زكريا : السيرة ورقة 2 · مخطوط ، الدرجينى : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 6 مخطوط ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على وجه الدقة متى حضر عكرمة ـ رأس دعاة الصفرية ـ الى افريقية · والراجح انه وصلها خلال السنوات الخمس الاولى من القرن الثانى الهجرى (149) ·

كان عكرمة هذا من أصل مغربى (150) ، وكان من موالى ابن عباس الفقيه ذائع الصيت وقد أتاح له ذلك مخالطة كبار الفقهاء والمحدثين كأبى هريرة والسيدة عائشة ، فسمع منهم وأخذ عنهم حتى أضحى من الأعلام الثقاة فى الفقه والحديث (151) ثم أخذ بالمذهب الصفرى وصار من فحول فقهائه · ومن الغريب ألا نجد له ذكرا فى حركات الصفرية فى شمال العراق ، وقد يفهم من ذلك أنه مال الى تعاليم الصفرية فى وقت متأخر · وقد عهد اليه بنشر المذهب فى بلاد المغرب بعد اتجاه الخوارج الصفرية الى اتباع أسلوب التنظيم والدعوة ·

ولا يستفاد من النص السابق أن الصفرية والاباضية التاما فى نظام واحد أو أن دعاتهما تلازما فى نشر تعاليمهما ، فلم نقف على ما يشير الى مثل هذا العمل المشترك فى الجهود التى قاموا بها بين البربر · بل ان كلا من الجماعتين اختطت لنفسها طريقا خاصا ، ولم تتورعا عن التنافس والصراع الذى انتهى باقتتالهما فى بعض الاحيان · كما أن دعاة الفرقة الاباضية اتجهوا الى الاقاليم الشرقية من بلاد المغرب بينما اتجهت الدعوة الصفرية الى قبائل المغرب الاقصى (152) ·

على كل حال نزل عكرمة بالقيروان حيث أمكنه الاتصال برؤساء القبائل من أمثال ميسرة المطغرى ـ زعيم مطغرة ـ الذى تلقى العلم على يديه مختفيا ، فقد اشتغل بالسقاية فى سوق القيروان حتى لا يكتشف أمره · وعلى الرغم من كونه سيدا لعصبية لها خطرها لم يتورع عن الاشتغال بتلك المهنة امعانا فى التستر والحيطة · وقد تسنى له بذلك أخذ تعاليم المذهب عن عكرمة ، ثم عاد فنشرها بين قومه من بربر مطغرة (153) ·

---

(148) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ، Marcais : La Berberie Musulmane, P. 48.

(149) العينى : عقد الجمان ج 11 قسم 3 ورقة 46 ـ مخطوط ·

(150) نفس المصدر والصحيفة Fournel ; Les Berbers. Vol I. P. 352.

(151) المبرد : الكامل ج 3 ص 949 ، العينى : المرجع السابق ورقة 464 ، دبوز : المغرب الكبير ج 2 ص 279 ، Fournel : Op. Cit. P. 352.

(152) ابن خلدون : العبر ج 7 ص 11 ·

(153) نفس المصدر ج 6 ص 118 ·

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما اتصل ابو القاسم سمكو بن واسول شيخ مكناسة بعكرمة فى القيروان (154) كذلك وليس بالمشرق كما اعتقد البعض (155) · ولازمه حتى موته فى سنة 105هـ (723م) او سنة 107هـ (725م) حسبما يرجح (156)، وتبحر فى اصول المذهب وفروعه حتى وصف بانه من « مشاهير حملة العلم » (157) ، وبانه « مقدم الصفرية » (158) بعد وفاة عكرمة · واستطاع ابو القاسم نشر المذهب بين قومه من مكناسة ، ثم اتجه نحو المناطق الصحراوية الجنوبية لبث الدعوة فيها ، وعمد — شانه شان ميسرة — الى اتباع اسلوب التستر والتخفى ، فرحل الى واحة تافيللت — وهى ملتقى القبائل الرعوية جنوبى المغرب الاقصى — وتظاهر بتربية قطعان الماشية وعكف على بث تعاليم المذهب بين الرعاة حتى تحولت خيمته الى مجمع للخوارج الصفرية فى تلك النواحى (159) ·

ولم يقتصر انتشار المذهب الصفرى على بربر مطغرة ومكناسة ، ذلك ان بربر برغواطة اعتنقوا هذا المذهب فى وقت مبكر على يد طريف ابن شمعون الذى لقى عكرمة بالقيروان كذلك (160) · واذا كانوا قد تخلوا عنه بعد ذلك واتبعوا تعاليم صالح بن طريف (161) ، فلا يمكن اغفال دورهم البارز فى ثورة الصفرية الكبرى بالمغرب الاقصى التى تزعمها ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (739 م) .

---

(154) ابن خلدون : ج 6 ص 105 ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 76 .
(155) مجهول : نبذ تاريخية ص 60 ، القلقشندى : صبح الاعشى ج 5 ص 165 .
(156) العينى : عقد الجمان ج 11 قسم 3 ورقة 464 .
(157) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 105 .
(158) الشطيبى : الجمان فى اخبار الزمان ورقة 203 — مخطوط .
(159) البكرى : المغرب ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ؛
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.
(160) ابن خلدون : ج 6 ص 107 .
(161) تسكن برغواطة اقليم تامسنا بالمغرب الاقصى واهم مدنه سلا وازمور وانفى وآسفى ، وكان زعيمها طريف بن شمعون من تواد ميسرة ، وقد اختلف فى نسبه فيما اذا كان مصموديا او يهوديا او يمنيا وعلى كل حال — فقد خلفه بعد موته ابنه صالح الذى تزندق وشرع ديانة جديدة ، واظهر قرانا جديدا وتسمى « بصالح المؤمنين » ولم يقدر لتعاليمه الانتشار فى حياته ، فقد غادر البلاد الى المشرق ، وادعى انه المهدى المنتظر وكان قد أعد ابنه الياس للقيام بأمر دعوته بعد ان لقنه أسرارها وفقهه بأصولها . وقد فشت الدعوة فى عهد الياس ، وحاول الادارسة القضاء عليها الا انها ظلت قائمة حتى عصر الموحدين · راجع : ابن عذارى : ج 1 ص 61 ، ابن خلدون : ج 6 ص 207 ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 118 ، البوعياشى : الريف بعد الفتح الاسلامى ص 15 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 417 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 238.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والراجح أن ميسرة كان على صلة وطيدة بطريف بن شمعون « القائم بدعوة الصفرية » (162) فى برغواطة قبل تقلده زعامة الحركة (163) ، فلما قام بثورته آزروه ووقفوا الى جانبه، لكنهم ما لبثوا أن انسحبوا من الحركة الصفرية حين نحى ميسرة عن زعامتها ، فانحازوا الى دعوة صالح بن طريف .

وانتشر المذهب الصفرى ايضا فى زناتة « فقد ضرب بنو يفرن فيه بسهم وانتحلوه » (164) ، كما اقبلت بعض بطونها فى المغرب الادنى على اعتناقه وساهمت فى حركات الصفرية بعد ذلك بصورة محدودة .

ولم يقتصر انتشاره على البربر وحدهم بل تعداهم الى العناصر الاخرى ، فبعض العرب المقيمين بافريقية دانوا بالمذهب الصفرى وقد تسرب هؤلاء الى المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق ، حتى ذاع عن بعض الولاة اعتناقهم هذا المذهب أو على الأقل تعاطفهم مع معتنقيه (165) فقد اتهم يزيد بن أبى مسلم بأنه من الخوارج الصفرية (166)؛ وان كان لم يستطع الجهر بذلك خوفا وتقية حتى قيل بأنه « يعلم الحق ويكتمه » (167) .

كما انتشر المذهب الصفرى بين جماعات الافارقة ، وهم اصلا من البربر الذين اختلطوا بالروم ودخلوا فى خدمتهم واعتنقوا ديانتهم أو من الاجانب المستوطنين الذين طال وجودهم فى بلاد المغرب حتى اصبحوا افارقة (168) . وهؤلاء كان لهم نمط خاص فى حياتهم باعتبارهم اكثر تحضرا من سكان البلاد الأصليين وكانت لهم لهجتهم الخاصة التى لا يعرفها غيرهم (169) . وقد أقبلوا على اعتناق الاسلام رغبة منهم فى الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المرموقة ، لكن الولاة الامويين الاواخر عاملوهم معاملة

---

(162) ابن خلدون : ج 6 صفحة 107 .
(163) عبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ،
Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 48.
(164) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ،
Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria. P. Lxxiii
(165) ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 70 ،
Le Tourneau : Op. Cit. P. 439.
(166) المبرد : الكامل ج 3 ص 949 .
(167) نفس المصدر صفحة 968 .
(168) حسن محمود : انتشار الاسلام ج 1 ص 167 .
(169) البكرى : المغرب صفحة 6 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البربر ، فلما انتشر المذهب الصفرى بين بربر المغرب الاقصى لم يحجم الافارقة عن اعتناقه ، فقد تلقاه زعيمهم عبد الاعلى بن جريج عن عكرمة بالقيروان ثم نشره بين قومه (170) · وحسبنا دليلا على ذلك اشتراك الافارقة فى ثورة ميسرة سنة 121 هـ (739 م) وتقليده عبد الاعلى واليا من قبله على طنجة بعد فتحها (171) ·

وامتدت تعاليم الصفرية كذلك عن طريق أبى القاسم سمكو بن واسول الى جماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء · فمن المعروف أن قوافل التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان كانت تمر عبر واحة تافيللت حيث اقام ابو القاسم واخذ يعمل على نشر المذهب الصفرى · وكانت جماعات منهم تقطن هذه الواحة وتعمل فى التجارة عبر الصحراء · وقد رحب هؤلاء بمبادىء الخوارج لما تنطوى عليه من مساواة دون اعتبار للعنصر او اللون · ووجد ابو القاسم سمكو فيهم اتباعا مخلصين فالتفوا حوله واعتنقوا مذهبه · واخذت جموعهم تفد وتستقر فى اقليم تافللت بصفة دائمة بعد اعناقهم المذهب الصفرى ، وليس ادل على ذلك انه ما ان شرع الصفرية فى اقامة دولتهم بسجلماسة سنة 140 هـ (757 م) حتى اختاروا اول ائمتهم من السودان وهو عيسى بن يزيد الاسود (172) ·

وهكذا تغلغل المذهب الصفرى فى سائر ارجاء المغرب الاقصى وبعض نواحى افريقية والمغرب الادنى بين البربر والعرب والافارقة والسودان على السواء · ولعل هذا الانتشار السريع وشموله كافة الاجناس والعناصر الموجودة ببلاد المغرب وتسربه حتى جنوبى افريقية هو الذى حدا بابن خلدون (173) الى القول بأن « الصفرية قد فشت مقالتها فى سائر القبائل بافريقية » « وصار لهم فيها عدد كثير وشوكة قوية » على حد قول النويرى (174) ·

أما المذهب الاباضى فينسب الى عبد الله بن اباض المرى

---

(170) السلاوى : ج 1 صفحة 97 .
(171) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 .
(172) البكرى : المغرب ص 149 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 22.
(173) العبر ج 4 ص 189 .
(174) نهاية الارب ج 22 ورقة 150 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التميمى (175) ، وان كان بعض مؤرخى الاباضية ينكرون ذلك (176) . ويجمع المؤرخون (177) على ان المذهب الاباضى ظهر ــ شأنه شأن الصفرية والنجدات والأزارقة ــ سنة 64 هـ (683 م) عندما خالف عبد الله ابن أباض نافع بن الازرق فى تفكيره القعدة عن القتال واتخذ بذلك موقفا معتدلا .

والواقع أن الاعتدال هو السمة الواضحة لعقائد الاباضية ، اذ انهم يحرمون دماء المسلمين وسبى ذراريهم وغنيمة اموالهم (178) . كما انهم اعتبروا دور مخالفيهم دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار بغى (179) . واجازوا مناكحتهم وموارثتهم وغنيمة اموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، وحرموا قتلهم وسبيهم فى السر غيلة الا بعد نصب القتال واقامة الحجة (180) . وقالوا فى مرتكبى الكبائر انهم موحدون ، وان كفروا كفر النعمة لا كفر الملة . وتوقفوا فى أطفال المشركين وجوزوا تعذيبهم على سبيل الانتقام . ولعل طابع الاعتدال فى عقائد الاباضية هذه هو ما جعلهم اقرب فرق الخوارج الى اهل السنة (181) .

والملاحظ ان الاباضية ــ كالصفرية ــ بداوا حركاتهم السياسية فى وقت متأخر . فقد خرج عبد الله بن أباض على مروان بن محمد (182) آخر خلفاء بنى امية ، فوجه اليه عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله بتبالة وهزمه وقتله (183) معنى هذا أن ابن أباض لم يقدم على الثورة على اثر انفصاله عن نافع بن الازرق سنة 64 هـ (683 م) انما آثر التريث حيث وجد فى عصر مروان بن محمد الحافل بالاضطرابات فرصة مواتية للخروج. لكن فشله وقتله دفع اتباعه الى اتباع أسلوب العمل فى الكتمان ونشر

---

(175) ابن قتيبة : المعارف ص 622 ، ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص 217 ، مجهول : قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 ــ مخطوط .
(176) انظر : ابو زكريا ورقة 8 ، 11 ، Masqueray : Op. Cit. P. xxx
(177) الطبرى : ج 6 ص 320 ، البغدادى : ص 105 .
(178) السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 ــ مخطوط ، ابو غانم الصفرى : مدونته ، ورقة 43 ــ مخطوط .
(179) البغدادى : صفحة 106 .
(180) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 28 .
(181) الشهرستانى : الملل والنحل ص 122 .
(182) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 51 .
(183) نفس المصدر والصحيفة ، الشهرستانى : ص 121 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدعوة فى الاطراف ، فى خراسان (184) وجنوبى الجزيرة العربية (185) والمغـــرب ·

وكانت البصرة مركزا للدعوة ، ومنها كان الدعاة ـــ الذين عرفوا بحملة العلم ـــ يتوجهون الى الأمصار بعد تلقيهم أصول الدعوة على ايدى فقهاء المذهب وشيوخه · والمعروف ان انصار المـــذهب بالبصرة كانـــوا يمارسون مهامهم فى طى السرية والكتمان ، فكانت مجالسهم فى سراديب تحت الارض · وامعانا فى التخفى « كان يجلس امام باب السرداب رجل يعمل القفاف وعلى فمه سلسلة يحركها اذا ما راى شخصا مقبلا لينبه من بالداخل الى التزام الصمت ريثما يمر من يشتبه فى أمره » (186) · وغالبا ما كانت هذه المجالس تقام فى بيوت النسوة العجائز منعا للشبهة (187) ، بل ان روادها كانوا يتنكرون فى ملابس النساء (188) ·

وتطلق المصادر الاباضية على هذه المجالس اسم « الحلقة » (189)·

---

(184) من دعاة الاباضية فى خراسان محبوب بن الرحيـــل وبشر بـــن النير وهاشم بـــن عيلان . واذا كان الغموض يكتنف مصير هؤلاء الدعاة ، فالـــذى لا شك فيـــه ان جهودهم فى نشر الدعوة بخراسان باءت بالفشل . انظر : اطفيش : بعض تواريخ أهل وادى ميزاب ص 115 .

(185) كذلك لا نعلم شيئا عن جهود دعاة الاباضية . وكانوا اربعة ـــ (اطفيش : الامكان ص 110) فى عمان (Masqueray : Op. Cit. P. XLII) لكن احدهم ويدعى ابا حمزة المختار بن عوف ـــ وكان يدعو لامامة ابى عبد الله بن يحيى الكندى المعروف بطالب الحق ـــ نجح فى مهمته (المسعودى : ج 3 ص 257) . وكان دائب الصلة بجماعة الاباضية فى البصرة الذين امـــدوه بالمشورة والنصائح الـــى جانب الاموال والسلاح (مجهول : كشف الغمة ورقة 307 مخطوط) وانتشرت الدعوة لطالـــب الحق فى عمان ، وخوطب بامير المؤمنين ، ثم دخل صنعاء ودانت له اعمالها (ابن تغرى بردى : ج 1 ص 309) .
كما تمكن ابو حمزة من دخول المدينة المنورة سنة 130 هـ بعد هرب واليها الاموى الى الشام (الطبرى : ج 7 ص 394) ، وبطش بمن خالفه من اهلها (ابن الاثير : ج 5 ص 140) ، وخطب على منبر جامعها لطالب الحق (انظر نص الخطاب فى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ص 144 ـــ 147) . وظل بها ثلاثة شهور غادرها بعدها الى بلاد الشام لكن مروان بن محمد بعث قائده محمد بن عطية السعدى على راس جيش للقائه ، وتمكن محمد بن عطية من هزيمة ابى حمزة وقتله فى معركة وادى القرى سنة 130 هـ (ابن الاثير : ج 5 ص 146) . وواصل الجيش الاموى زحفه الى المدينة ، ومنها توجه الى اليمن حيث هزم طالب الحق وقتل الكثيرين من رجاله بناحية الطائف ، وفر بقية الخوارج الى خضر موت حيث تحصنوا بها .
(انظر : المسعودى : ج 3 ص 258 ، سرور : الحياة السياسيـــة فى الدولـــة العربية ص 129) .

(186) ابو زكريا : ورقة 5 ، الشماخى : السير ص 124 .

(187) الشماخى : نفس المصدر ص 108 ، 109 .

(188) الدرجينى : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 107 ـــ مخطوط .

(189) من حلقات الاباضية فى عصور متاخرة راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقـــة 106 ـــ 112 ـــ مخطوط .

وفيها يتلقى الاتباع الاصول والفروع والسير (190) والتوحيد والشريعة وآراء الفرق الى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (191) · هذا فضلا عن تبصيرهم بفنون الحكم ، واساليب السياسة ، واعدادهم لتقلد المناصب والاضطلاع بأعبائها فى مرحلة الظهور (192) · وبعد ذلك يرحلون الى الامصار يدعون للمذهب ثم يشرعون فى « المجاهرة بالعمل » (193) اذا ما توافر لهم « ما يوجب به التولية عليهم من العدة والعدد من الرجال » (194) ·

ويرجع الفضل فى تنظيم اسلوب الدعوة الاباضية الى جابر بن زيد الذى حظى بمنزلة عالية عند الاباضية حتى اعتبره بعضهم (195) اول الائمة · لكن الاجل لم يمتد به ليشهد نجاح جهوده ، فقد توفى سنة 96 هـ (196) (725 م)وخلفه أحد تلاميذته ويدعى أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة (197) الذى قيل انه ظل يتلقى العلم اربعين عاما وبعدها نصب نفسه لتعليمه (198) · ومن هنا كانت شهرته الواسعة بتعمقه فى العلوم على اختلافها (199) . فكان ندا لاعلام المعتزلة كواصل بن عطاء ، وكان يحاورهم ويجادلهم (200) · وقد سجن زمن الحجاج ، وأفرج عنه بعد موته ليتصدى لتنظيم جماعة الاباضية فى البصرة خلفا لجابر بن زيد · وساعده فى ذلك كبار اعوانه من أمثال أبى نوح ، وأبى مودود حاجب والربيع بن حبيب (201) وفى عهده ارتفع شأن الدعوة واشتد ساعدها ، فقد تسنى له جمع الكثير من الاموال وتمكن من شراء الاسلحة ليستعين

---

(190) الدرجينى : المرجع السابق ورقة 3 .
(191) البرادى : المرجع السابق ورقة 106 ، Masqueray : Op. Cit. P. IxL.
(192) ابو زكريا : ورقة 6 ، الشماخى : السير ص 124 .
(193) مجهول : كشف الغمة ورقة 307 — مخطوط .
(194) ابو زكريا : السيرة ورقة 5 .
(195) الورجلانى : ج 2 ص 72 ، دبوز : ج 2 ص 138 ، 408 ، على يحيى معمر : الاباضية صفحة 21 .
(196) اخطأ البرادى حين ذكر انه توفى سنة 193 هـ . راجع : الجواهر المنتقاة ورقة 79 .
(197) الدرجينى : ج 1 ورقة 102 ، Masqueray : Op. Cit. P. 8
(198) اطفيش : الامكان ص 113 .
(199) الشماخى : السير صفحة 83 .
(200) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .
(201) نفس المصدر ورقة 107 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بها دعاته فى الولايات على « اقامة دين الله » (202) .

وليس من شك فى أن بلاد المغرب ظفرت من ابى عبيدة باهتمام كبير (203) ، اذ كانت ميدانا خصبا لنشر المذهب ، فبعث بداعيته سلمة ابن سعيد فى بداية القرن الثانى الهجرى لنشر الدعوة الاباضية بين المغاربة . وتجمع مصادر الاباضية (204) على حماس سلمة الشديد فى نشر المذهب حتى أنه « كان يتمنى ظهوره يوما واحدا ويموت فى آخره » . ويبدو أنه اتخذ من بلاد المغرب الادنى ميدانا لنشاطه حيث استطاع أن يكسب انصارا فى اقليم طرابلس وجبل نفوسة (205) . ولم يمتد به الاجل طويلا فحل محله ابو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الذى تتلمذ على أبى عبيدة بالبصرة (206) ، واشتهر « بشدة الشكيمة وقوة العريكة » (207) . وفى ايامه تم انتشار المذهب بين بربر نفوسة فى مستهل القرن الثانى الهجرى (208) . ومنذ ذلك الحين اصبح جبل نفوسة « دار هجرة » للمذهب الاباضى فى بلاد المغرب (209) .

وكان رسوخ قدم المذهب الاباضى فى جبل نفوسة سببا فى انتشاره

---

(202) الشماخى : السير ص 115 . وقد أورد الشماخى مثالا على ذلك نصه انه « لما خرج الامام عبد الله بن يحيى وابو حمزة ، جمع لهما اموالا كثيرة يعينهما بها . وكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى ، فما امتنع عليه أحد . ودعا أبا طاهر — وكان شيخا فاضلا — وقال له : عليك بالنساء واوساط الناس ، فانا نكره ان نكتب عليهم ما لا يحملون . فانطلق ابو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين ، فلم يأتوا امرأة ولا رجلا الا وجدوه مسارعا فيما سألوه .. فلم يمس الليل حتى جمع ابو طاهر عشرة آلاف درهم . فاخبروا حاجبا ، فسر بذلك فقال : ان فى الناس لبقية بعد . فاشترى بتلك الاموال سلاحا فوجهه ، ووجه ما بقى » . انظر : السير صفحة 114 .

(203) بالغت المصادر الاباضية فى ايراد كثير من الاحاديث المصطنعة والاقوال المأثورة عن كبار الصحابة فى فضائل البربر ، وما سيتم على أيديهم من العودة بالاسلام الى اصوله الصحيحة . وعلى الرغم مما يكتنف هذه الروايات من طابع أسطورى فلها دلالاتها على مواتاة ظروف بلاد المغرب لنشر دعوة الخوارج . انظر : أبو زكريا ورقة 2 وما بعدها ، الدرجينى : ج 1 ورقة 7 وما بعدها .

(204) ابو زكريا : ورقة 2 ، الشماخى : السير ص 98 ، السوفى : شرح السؤالات ورقة 147 .

(205) الدرجينى : ج 1 ورقة 6 .

(206) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 80 — مخطوط ،
Lewcki : Etudes, Ibadites. P. 39.

(207) الشماخى : السير صفحة 144 .

(208) الوسيانى : ورقة 79 ، الدرجينى : ج 2 ورقة 140 ، ابن مقديش : نزهة الانظار ص 40 ، السلاوى : ج 1 ص 123 ،
Despois, Op. Cit. P. 138.

(209) ابن حوقل : المسالك والممالك صفحة 68 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين القبائل الاخرى مثل هوارة ولماية وزناتة وسدارته وزواغة ولواتة (210) أما مطماطة ، فلم تعتنق المذهب الا فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابـــن رستم (211) ·

على كل حال ــ فان انتشار المذهب الاباضى على هذا النحو بين كثير من قبائل المغربـــين الادنى والاوســـط كان فى حاجة الى مزيد مـــن التبصير بتعاليم المذهب واصوله الفقهية ، وحسب سلمة بن سعيد وابن مغيطر انهما كسبا الانصار وبثا الدعوة بين القبائل . ولذلك تم اختيار ممثلين عن الجهات التى انتشر فيها المذهب للتوجه الى البصرة لمزيد من الدرس ، فاختير عاصم السدراتى من غرب الاوراس ، وأبو داود القبلى النفزاوى من نفـــزاوه جنوبى افريقيـــة ، واسماعيل بـــن درار من غدامـــس جنوبى طرابلس وانضم اليهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان (212) · وتوجه هؤلاء الذين عرفوا « بحملة العلم » الى البصرة حيث ظلوا فى صحبة أبى عبيدة مسلم خمس سنوات (213) يتلقون العلم على يديه ويعدون العدة للظهور ويتعلمون أصول الحكم وفنونه ·

وجدير بالذكر أن أبا عبيدة أشار عليهم بأحد أتباعه من العرب ويدعى ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى (214) ليتولى « امامة الظهور » اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا · كما أعد اسماعيل بن درار الغدامسى لتولى القضاء ، فعلمه أصول الفقه والافتاء (215) · واوصاهم بمداومة الاتصال به واستفتائه فيما يعن لهم من مسائـــل واخبـــاره بنشاطهـــم اولا بأول (216) ·

وعاد « حملة العلم » الى المغرب ، وواصلوا جهودهم فى تثبيت دعائم المذهب ولما اشتد ساعدهم عقدوا العزم على اعلان امامة الظهور

---

(210) ابن خلدون : ج 6 ص 120 ، 121 ،
Biquet : Histoire de l'Afrique septentrionale. P. 41.

(211) الجربـــى : مؤنس الاحبـــة صفحـــة 46 .

(212) ابو زكريا : ورقة 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 124 ، اطفيش بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 188 .

(213) نفس المصادر والصفحات ، اطفيـــش : كتاب الامكـــان ص 112 ، دبوز : ج 3 ص 194 . واذا ما علمنا أن البعثة عادت الى المغرب سنة 140 هـ . فيكون رحيلهم الى البصرة حدث سنة 135 هـ . انظر : Lewcki : Etudes, P. 27.

(214) قيل انه كان من قواد الجند العربى بطرابلس انظر : حسن حسنى عبد الوهاب ورقات عن الحضارة العربية ج 1 ص 425 .

(215) ابو زكريا : ورقة 5 ، الشماخى : السير ص 124 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 10 .

(216) ابن أبى كريمة : رسالة فى احكام الزكاة ورقة 114 ــ مخطوط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة 140 هـ (757 م) .

هكذا اصبحت بلاد المغرب معقلا لنشاط الخـوارج بعـد انتشار المذهب الصفرى بين بربر المغرب الأقصى وبعض نواحى المغرب الأوسط ، والاباضى فى المغربين الأدنى والأوسـط (217) . وبدأ الخوارج حقبـة

---

(217) من المفيد أن نعرض لنظرية شائعة فى تفسير انتشار مذهب الخـوارج فى بـلاد المغرب ، تربط بين هذا المذهب وبين نحلة الدوناتية المسيحية . وهـذه النظريـة منسوبة الى المؤرخ جوتييه ، ونقلها عنه سائر مؤرخى المغرب الفرنسيين وبادىء ذى بدء نقرر أن جوتييه لم يكن أول من قال بهذه الفكرة ، انما سبقه اليها أميـل ماسكراى فى مقدمته لكتاب السيرة لابى زكريا الذى صدر بالجزائر سنة 1878 م . فهو القائل بـأن « الخارجية كالدوناتية تعـد انقساما دينيا وليست زندقـة » وان « مذهب الخوارج يشترك مع الدوناتية فى التعبير عن روح الاستقلال عند البربر » واليه يعزى الفضل فى الربط بين مذهب الخوارج فى المغرب بشقيه الاباضى المعتدل والصفرى المتطرف وبين الدوناتية المعتدلة والسركونسليونية المتطرفة كذلك .
انظـر : (Masqueray : Op. Cit. P. IxVIII, LxxII.
وعلى هذه الخطوط نسج جوتييه نظريته تلك التى ضمنها كتابه عـن المغـرب فى العصور الوسطى الذى صدر بباريس سنة 1927 . واهم ملامح هذه النظرية ما يلى :
1 ــ اشتراك الخوارج والدوناتيين فى عديد من الصفات كالصلابة والالتزام الصارم باصول العقيدة والتطرف والزهد والتسليم بالقضاء والقدر والاستشهاد فى سبيل المـذهب .
2 ــ ينطلق فكر كل من المذهبين من معين واحد هو نزعة التدين الشديدة الفطرية عنـد البـربـر .
3 ــ أن البربر اعتنقوا مذهب الخوارج ــ كما ذكر ابن خلدون ــ كسلاح يناوئون به الحكام ، وهو نفس ما حدث بالنسبة لاعتناقهم المذهب الدوناتى .
4 ــ ومن ثم ، فالعامل الدينى فى كلتى الحركتين امر ثانوى بالقياس الى المغـزى السياسى والاجتماعى الذى يتمثل فى تحقيق الديموقراطية كهدف سياسى والعدالة كمطلب اجتمـاعـى .
5 ــ وينتهى جوتييه ــ كما انتهى ماسكراى ــ الى أن مذهب الخوارج عند البربر امتداد للدوناتية « بعد أن خلعت لبوسها المسيحى لتتشح بثياب اسلامية » (راجع : (Gautier : Le Siecles obscurs. P. P. 626, 63, 64.
وانبرى جمهرة مؤرخى المغرب الفرنسيين للدفاع عن هذه النظرية وتصدوا لدعمها . فبروفنسال يركز فى دعمه على توافق جوهر عقائد الخوارج والدوناتيين مع طبائـع البربر وصفاتهم الفطرية (انظر Histoire de l'Espagne Musulmane Vol. I. P. 42.
وجورج مارسيه يؤكد أن اعتناق البربر للمذهبين وسيلة لا غاية ، فكلاهما « أمـد البربر بالحافز الخلقى لتبرير ثورتهم على الحكام ، وكما هزت الدوناتية وحدة الكنيسة الافريقية ، كانت الخارجية عند البربر نوعا من الهرطقة القومية التى شكلت خطرا على مستقبل الاسلام فى بلاد المغرب » .
راجـع La Berberie Musulmane et l'Orient. P. 140. وفى نفس الاتجاه يمضى مرسيه فيقـول « ان عبـارة لا حكم الا لله لها عند الخـوارج ــ وكـذلك الدوناتيين ــ دلالة على اعلان الحرب السياسية » .
انظر : Histoire de Constantine. P. 86 اما باسيه فيركـز على المغزى الاجتماعى للحركتين اذ أنهما « ما قامتا لمجرد خلاف فى الرأى حول تفسير للعقيدة ، بل لاشعال حرب اجتماعية تحت رايات دينية
(Recherches sur la religion des Berberes. P. 331.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديدة فى تاريخ البلاد حيث عمت الثورات كافة ربوعها ، وهو ما سنفصله فى البـــاب الثـــانـــى ·

= ويشاركـه جوليـان نفس الـرأى فيقـول « . . وكمـا كـانت الـدوناتيـة وسيلة لوضع حـد لانتهازية الكاثوليـك ، وتحالـف الحكام الرومان مع كبـــار الملاك ورجال الدين ، كان مذهب الخوارج فى المغرب سلاح البربر فى نضال هذه القوى ومظهرا من مظاهر مقت الاجانب ، وتعبيرا عن السخط والحقد على السلطة القـائمـة » .

انظـر : Histoire de L'Afrique du Nord. P. 328.

ومـــن المفيـد أن نعـرف فى ايجاز بحركـــة الدوناتيـة فى بلاد المغـــرب ، وتتلخص فى أن دونـات Donat اسقف نوميديـا رفض الاعتراف باختيار سيسيليان Cicilianus اسقفا لقرطاجنة سنة 311 م . وكان مبعث رفضه ان التساوسة الذين اختاروه لهذا المنصب كانوا من المشكوك فى ولائهم للعقيدة بعد اقدامهم على تسليم الكتب الدينية والاوانى المقدسة الى السلطة الامبراطورية على اثر اغتيال الامبراطور ديكوليتيـان Diocletien انظر : Gautier : Op. Cit. P. 261 .

وقد آزرت الكنيسة والسلطات الرومانية سيسيليان ، بينما ناصر البربر ـــ وخاصة الطبقات الفقيرة منهم ـــ دونات ضد أعدائه

(Bonet : L'Islamisme et le christianisme. P. 59).

ثم حدث انشقاق داخل الحزب الدوناتى ، فظل دونات على رأس المعتدلين بينمـا تزعم سيركونسليون جناح المتطرفين ونحا بالحركة منحى اجتماعيا فقام بالاغاره على املاك الاغنياء والاستيلاء عليها تحقيقا لمبدأ العدالة والمساواة . انظر :

مبـارك الميلـى : تاريخ الجزائـر ج 1 ص 254 ، (Bonet : Op. Cit. P. 60

وقد تعرض هؤلاء وأولئك للاضطهاد الشديد طوال القرن الرابع الميلادى ، الامر الذى جعلهم يقدمون على التعاون مع الوندال لغزو افريقية وتحريرهم من الكنيسة الارثوذكسية والسلطات الرومانية (بونيل : الممالك الاسلامية ص 77 (Bonet : loc. cit,

ومع تسليمنا بوجاهة نظرية جوتييه الى حد كبير ، نعتقد أنها تنطوى على شىء من المبالغة حين يزعم صاحبها أن مذهب الخوارج امتداد للدوناتية .

وحسبنا أن البربر الذين ناصروا الدوناتية لم يمتد بهم الاجل ـــ بداهة ـــ للالتفاف حول دعاة الخوارج ، وما حدث لا يعدو أن يكون محض تشابه فى ظروف بلاد المغرب السياسية والاجتماعية والدينية التى ظهرت ابانها حركتان متباعدتان لا تمت أى منهما للاخرى بصلة . فاذا كانت الدوناتية ذات طابع مغربى صرف بمعنى أنها نشأت فى بلاد المغرب ، ونسجت من واقع ظروفه ، فان مذهب الخوارج ظهر فى الشرق الاسلامى ثم وفد الى بلاد المغرب كسائر المذاهب الاسلامية الاخرى الامر الـذى ينفى وجود رباط فكرى مشترك كان فيه مذهب الخوارج متأثرا بعقائد الدوناتية .

ومن ناحية اخرى ، فان ما ساقه جوتييه من حجج وقرائن دلل بها على هذه الصلة كصفات الاقدام والزهد والصلابة . . الخ انما هى صفات مميزة للبربر عموما فى كل العصور وليست حكرا على معتنقى المذهبين فحسب .

وكذلك التقابل بين جناحى المعتدلين وجناحى المتطرفين فى كل من المذهبين نجد لـه مثيلا فى سائر المذاهب الدينية والسياسية .

ومع ذلك نظل للمقارنة بين الدوناتية والخارجية فى المغرب دلالتها على أن الحركات الدينية أو المذهبية ليست مجرد خلافات عقائدية فحسب انما تنطوى على دوافـع اجتماعية يلعب العامل الاقتصادى فيها دورا فعالا ومؤثرا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثاني

ثورات الخوارج في بلاد المغرب
في عصر الـولاة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انتهينا الى أن مذهب الخوارج بشقيه الصفرى والابـــاضى انتشر انتشارا واسعا فى بلاد المغرب حتى صار للخوارج « عدد كثير وشوكـــة قوية » (1) · وقد سبق أن أوضحنا ما أوصى به رؤساء المذهب فى الشرق دعاتهم فى الغرب « بالظهور » بعد اتمام الدعوة ان استطاعوا الى ذلك سبيلا · ومرحلة الظهور هذه تعنى « الثورة على ائمة الجور » (2) حسبما تعنيه مبادىء الخوارج وتحض عليه ، وان اعتبرت تمردا « وتطاولا » (3) فى نظر الخلافة وعمالها فى بلاد المغرب ·

والواقع أن ظروف المغرب كانت مواتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة 121 هـ (739 م) بعد تفاقم مشاكل البلاد السياسيـــة والاقتصاديـــة والاجتماعية ابان ولاية عبيد الله بن الحبحاب · فعلى الرغم مما عـــرف به من دربة ودراية بفنـــون الحكم والسياسة (4) كانـــت سياسته فى بلاد المغرب « سببا لانتفاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة » كما ذكر ابن عذارى (5) · ففى عهده احتدت الخصومات القبلية بين القيسية واليمنية ، ولما كان قيسيا ، فقد لاقى العرب اليمنية على يديـــه عنتا واضطهـــادا شديدا (6) · وولى على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المرادى ، « فأساء السيرة وتعدى فى الصدقات والقسم ، وأراد أن يخمس البربر ، وزعم أنهم فىء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله » (7) كما عهد الى

---

(1) الرقيق : ص 109 ، Provencal : Op. Cit. P. 41

(2) البغدادى : ص 273 ، Provencal : Loc. Cit.

(3) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 111 ، Julien : Op. Cit. P. 329.

(4) ذكر الرقيق عن عبد الله بن أبى حسان اليحصبى عن أبيه قال « رأيت عبيد الله بن الحبحاب يوما ينظر فى دفتر العطاء ، ويملى رسالة ، ويأمر بحاجات فى ناحية أخرى ، ويأمر فى خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنازعين » .
انظر : تاريخ افريقية والمغرب ص 107 .

(5) البيـــان المغـــرب ج 1 صفحـــة 52 .

(6) ابن عبد الحكم : صفحـــة 293 .

(7) الرقيـــق : صفحـــة 109 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابنه اسماعيل بولايـــة السوس الأقصى ، فاستبد بالبربر هنـــاك ، وكثر عبثه بنسائهم ، وجوره على أموالهم (8) . ولا شك أن ابن الحبحاب كان راضيا عن سيرة عماله ، فقد كان عليه أن يفى بوعوده للخليفة هشام بن عبد الملك بارسال المزيد من الاموال والسبايا (9) مما يجلبه هؤلاء العمال . ولعل حرصه على ذلك يفسر عهده الى حبيب بن أبى عبيدة بقيادة حملة ضخمة جابت بلاد المغرب حتى اقصاها . واصابت من السبى والذهب أمرا عظيما ، وبثت الرعب والفزع فى تلك الانحاء (10) .

وقد اتخذ ابن الحبحاب من البربر أداة لخدمة أطماعـــه خارج بلاد المغرب فرمى بهم فى الحملات التى انفذها الى سردينية وصقلية (11) ، الامر الذى زاد فى كراهيتهم للحكم العربى وتصميمهم على الثورة . وقـــد ساعد على ذلك غياب معظم الجيش العربى الافريقى خارج البلاد فـــى الحملة التى قادها حبيب بن أبى عبيدة علـــى صقليـــة سنـــة 121 هـ (739 م) (12) ، وانشغال الخلافة الاموية اذ ذاك بمشاكل الحكم (13)، وبعد بلاد المغرب الاقصى عن مقر الولاية بالقيروان . لذلك كانت الظروف مواتية تماما لبربر المغرب الاقصى الذين اعتنقوا المذهب الصفرى لاعلان الثورة « والظهور » وهو ما عبر عنه ابن خلدون (14) بقوله « .. ان الخارجية حين رسخت فى البربر عروق من غرائسها تطاول البربر الى الفتك بأمر العرب » .

---

(8) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 240 .
(9) ابن عذارى : ج 1 ص 53 .
(10) الرقيـــق : صفحـــة 108 .
(11) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .
(12) الرقيـــق : صفحـــة 109 .
(13) الحميـــدى : جذوة المقتبس صفحـــة 8 .
(14) العبـــر : ج 6 صفحـــة 111 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اولا :

ثوراث الخوارج الصفرية

انتهينا الى أن المذهب الصفرى انتشر بين قبائل المغرب الاقصى كمطغرة ومكناسة وزناتة وبرغواطة وعنصرى الافارقة والسودان · كما امتد نفوذه الى بعض جهات المغربين الادنـــى والاوسط ـــ وان كـــانت السيادة فيها للمذهب الاباضى عن طريق القبائل البدوية دائمة الترحال مثل هوارة وزناتة . ونظرا لمواتاة ظروف الخوارج فى المغرب الاقصى لقيام الثورة ، ولغلبة المذهب الصفرى وسيادته بين قبائله ، كان الخـــوارج الصفرية سباقين الى تخطى مرحلة الدعوة الى « مرحلة الظهور » واعلان الثورة (15) بينما شغل الاباضية اذ ذاك باتمام نشر المذهب وتفقيـــه معتنقيه وارسال بعوثهم الى البصرة للاعداد لمرحلة الثورة · وعلى ذلك فلا محل لتصديق الرواية المتواترة (16) القائلة بانضواء خوارج المغرب اباضية وصفرية تحت لواء ميسرة المطغرى فى ثورة عام 121 هـ ، فتلك بلا شك كانت ثورة صفرية خالصة ·

والروايات تختلف حول اصل ميسرة قائـــد الثـــورة ، فتـــذهب

---

(15) ينفرد ابن خلدون برواية تنص على اغتيال الخوارج ليزيد بن ابى مسلم سنة 103 هـ والواقع انه قتل نتيجة للخصومات بين القيسية واليمنية وليس على يد الخوارج . فلم يكونوا قد قاموا بعد بثوراتهم على ولاة القيروان .
انظر : العبر ج 6 صفحة 108 .

(16) انظر : اخبـــار مجموعـــة صفحـــة 28 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعضها (17) الى انه من أصل عربى وتنسبه الى قبيلة الازد ، بينما تؤكد الأخرى (18) — وهى الارجح — انتماءه الى قبيلة مطغرة من البربر . كما اختلفت ايضا حول كنيته ، فقيل ميسرة الحقير (19) أو الخفير (20) وقيل الفقير (21) ، ويخيل الينا ان ذلك من نسج خصومه تحقيرا لشانه ، او لما عرف عن اشتغاله بالسقاية فى سوق القيروان (22) . والذى لا شك فيه أن ميسرة كان سيد قومه وشيخ قبيلته ، فابن خلدون (23) — العالم بأنساب البربر — يدعوه « رئيس مطغرة » والسلاوى (24) يصفه بأنه « مقدم الصفرية » . وما اشتغاله بالسقاية الا بقصد التستر والتمويه على الخصوم حينما كان يتلقى أصول المذهب الصفرى على عركة مولى ابن عباس فى القيروان ، ولما تتيحه مهنة السقاية من سهولة الاتصال بالاتباع والانصار دون اثارة لشكوك الخصوم.

وقد سبق التعريف بدور ميسرة فى نشر المذهب الصفرى بين قبيلته مطغرة ، ويبدو أن دعاة المذهب فى المغرب اجمعوا على زعامته بعد موت عكرمة مولى ابن عباس ، فتخبرنا المراجع أن مكناسة آزرته واشتركت فى ثورته (25) ، كما انضوى الافارقة بزعامة عبد الاعلى بن جريح تحت لوائه (26) ، وكذلك فعلت برغواطة وزعيمها طريف (27) ، وقد اتخذ ميسرة من ابنه صالح ناصحا ومشيرا (28) . وهكذا تسنى له توحيد القبائل الصفرية فى كافة ربوع المغرب الاقصى تحت زعامته (29) .

ويخبرنا الطبرى (30) أن ميسرة تزعم وفدا من البربر رحل به الى الشام ليشكو للخليفة هشام بن عبد الملك جور عماله ، وان جوهر

---

(17) ابن تغرى بردى : ج 1 ص 289 ، الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا صفحة 125 .
(18) ابن عبد الحكم : ص 293 ، الرقيق : ص 109 .
(19) ابن عذارى : ج 1 صفحة 52 .
(20) دبوز : المغرب الكبير .
(21) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
(22) ابن القوطية : صفحة 40 .
(23) العبر ج 6 صفحة 150 .
(24) الاستقصا ج 1 صفحة 97 .
(25) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292
(26) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن عذارى ج 1 ص 52 .
(27) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 207 ، Bel : Op. Cit. P. 175.
(28) ابن الخطيب اعمال الإعلام ج 3 ص 181 .
(29) ابن الاثير : ج 5 ص 70 ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص 14 .
(30) تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 224 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 331 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشكوى يكمن فى حرمانهم من غنائم الحروب التى خاضوها فى حملات ابن الحبحاب رغم حسن بلائهم ، وحيف عماله بهم بنهب اموالهم وسبى بناتهم . ونعتقد أن الهدف الحقيقى هو الوقوف على مسؤولية الخلافة عن سياسة عمالها فى المغرب واخذ الحجة عليها تبريرا لقيامهم بالثورة حسبما ينص عليه مبدأ الخوارج فى « الثورة على ائمة الجور » (31) وهو ما ذكره الطبرى بأن الجماعة ارادت ان تعرف « اعن راى امير المؤمنين هذا ام لا » . على كل حال ، حيل بين الوفد وبين لقاء الخليفة ، وادرك ميسرة وجماعته ان الخلافة متواطئة مع عمالها فيما يحدث بالمغرب من ظلم وجور ، وعقدوا العزم على الثورة .

بويع ميسرة بالامامة على اثر عودته (32) وزحف بجموع الصفرية الى طنجة ففتحها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادى (33) ، وعين عبد الاعلى بن جريج الافريقى واليا عليها (34) . واتجه بعد ذلك الى السوس فدانت له بعد ان قتل اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب (35). وتمت له السيطرة على المغرب الاقصى وانقطاعه عن نفوذ القيروان بعد وقائع صغيرة بلغت من الكثرة ما جعل المؤرخون يعزفون عن سردها . وقد وصفها ابن عذارى (36) بانها « وقائع يطول ذكرها » . ومما سهل من مهمته أن القبائل الموالية له كفته مئونة افتتاح سائر أجزاء البلاد « فهب كل قوم من البربر على من يليهم ، فقتلوا وطردوا » (37) ، بينما اتجه بنفسه الى مقر الولاية فى افريقية (38) .

وقد بادر ابن الحبحاب بمواجهة خطر الصفرية ، فبعث بما لديه من

---

(31) البغدادى : صفحة 273 .

(32) ابن عبد الحكم : ص 293 ، اخبار مجموعة ص 28 .
ورد عند بعض المؤرخين ان البيعة تمت بعد قيام الثورة ، فابن الاثير ذكر ان ميسرة بويع بالامامة بعد الاستيلاء على طنجة وقد اخذ عنه الانصارى روايته ، اما الدكتور مؤنس فذكر انه بويع بعد انتصاره على جيش خالد القهرى . انظر : الكامل ج 5 ص 70 ، المنهل العذب ص 59 ، ثورات البربر فى افريقية والاندلس ص 169 .

(33) الرقيق صفحة 109 .

(34) ابن عذارى : ج 2 صفحة 52 .

(35) نفس المصدر والصفحة .

(36) البيان المغرب ج 1 صفحة 52 .

(37) اخبار مجموعة صفحة 29 .

(38) نفس المصدر والصفحة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جند بقيادة خالد بن أبى حبيب الفهرى (39) ليحول دون وصول ميسرة الى القيروان · كما اسرع فى استدعاء حبيب بن ابى عبيدة وجيشه الذى كان قد انفذه الى صقلية (40) وامره بالتوجه فى اثر خالد بن أبى حبيب · وعبر خالد بجيشه وادى شلف ــ وهو نهر بمقربة تاهرت ــ والتقى بميسرة على مقربة من طنجة . أما جيش صقلية الذى وصل على الاثر فقد رابط عند مجاز النهر (41) ·

واقتتل خالد وميسرة قتالا شديدا ، انصرف بعده ميسرة الى طنجة (42) ، والراجح انه هزم فى تلك المعركة ، والا فما الداعى لانسحابه ولجوئه الى الدفاع بعد الهجوم (43) ؟ لعل ذلك كان سببا فى تنحيته عن القيادة واختيار الصفرية خالد بن حميد الزناتى ليحل محله (44) ·

على كل حال ــ لجأ خالد الزناتى الى الحيلة ، فقسم جيشه قسمين واجه احدهما جيش خالد الفهرى بينما قام الآخر بحركة التفاف من خلفه ليعوق اتصاله بجيش حبيب بن أبى عبيدة المرابط عند مجاز وادى شلف (45) ، وليحول بين جيش خالد الفهرى وبين الهرب . وبذلك وقع جيش الفهرى فى « كمين البربر » كما ذكر ابن الاثير (46) وكانت النتيجة أن قضى عليه برمته قضاء مبرما (47) · وقتل فى المعركة « حماة العرب وفرسانها وكماتها وابطالها » فسميت من ثم « معركة الاشراف » (48) ·

---

(39) ابن عبد الحكم : ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 . أما ابن الاثير فيسميه خالد ابن حبيب الفهرى · انظر : الكامل ج 5 ص 69 · وعند السلاوى خالد بن حميد الفهرى انظر : الاستقصا ج 1 ص 97 ·

(40) الرقيق : صفحة 109 .

(41) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(42) نفس المصدرين والصفحتين ·

(43) نخالف بذلك ابن عبد الحكم الذى ذكر أن مسيرة انتصر فى هذه المعركة ثم اقصى عن القيادة التى تولاها عبد الملك بن قطن المحاربى · ومما ينهض على خطأ تلك الرواية من اساسها أن عبد الملك بن قطن كان من ولاة الاندلس وليس من ثوار الخوارج انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 55 .

(44) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير ج 5 ص 69 .

(45) الرقيق : ص 110 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 .

(46) الكامل ج 5 صفحة 69 .

(47) الرقيق ص 111 ، ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(48) نفس المصادر والصفحات ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اما حبيب بن ابى عبيدة فقد لاذ بتلمسان حيث علم بتواطؤ واليهـا موسى بن ابى خالد مع الصفرية ، فعاقبه بقطع أطرافه (49) ·

واسفرت هزيمة الاشراف عن تمرد العرب بالقيروان على واليها عبيد الله بن الحبحاب وتنحيته عن الولاية (50) · وصادف ذلك هوى فى نفس الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث فى استدعائه ، فقفل اليـه فى جمادى الاولى من عام 123 هـ (741 م) (51) ·

وقد غضب الخليفة (52) لما حل بالعرب فى موقعة الأشراف ، فبعث جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيرى (53) الى المغرب وجعله على ولاية افريقية (54) · كما عهد الى بلج بن بشر بالامر من بعده ، فان قتل تولاه ثعلبة بن سلامة العاملى (55) · وبلغ جيش كلثوم ثلاثين الفا من اهل الشام ومصر ــ عشرة آلاف من بنـى امية وعشرون الفـا من بيوتات (56) العرب ــ فضلا عمن انضم اليـه من المتطوعة وجنـد افريقية وعدتهم اربعين الفا (57) . وامده بالأدلاء والمرشدين من امثال مغيث مولى الوليد بن عبد الملك وهرون القرنى لخبرتهما بمسالك المغرب وطبائع البربر (58) · كما اتاح له سلطات واسعة وحرية فى العمل بما يتناسب وجسامة ما عهد اليه من مهمة استرداد نفوذ الخلافة « فاباح له الاباحات ووضع له الاطواء » (59) ·

---

(49) ابن عبد الحكم : صفحـة 294 .
(50) ابن عذارى : ج 1 صفحـة 55 .
(51) الرقيق : ص 11 ، ابن عبد الحكم : ص 294 .
(52) عبر الخليفة عن غضبه بقوله : « .. والله لاغضبن لهم غضبة عربية ، ولابعثن لهم جيشا اوله عندهم وآخره عندى . ثم لا تركت حصن بربرى الا جعلت الى جانبه خيمـة قيسى او يمنى » انظر : الرقيق : ص 111 .
(53) اخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية : ص 41 ، ويسميه ابن عبد الحكم كلثوم بن عياض القيسى ، وكذلك ابن القوطية · اما فلهوزن فيرى انه كلثوم بن عياض القسرى انظر : فتوح مصر والمغرب ص 294 ، تاريخ افتتاح الاندلس ص 40 ، تاريخ الدولة العربية صفحـة 332 .
(54) يخطىء سكوت حين يذكر أن بلج بن بشير هو الذى عهد اليه بالولاية : انظـر : History : of the Moorish Empirein Europe. Vol. I. P. 313.
(55) اخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية ص 41 .
(56) ابن القوطيـة : صفحـة 41 .
(57) اخبار مجموعة ص 31 ، السـلاوى : ج 1 ص 98 ، المقـرى : ج 4 ص 19 ، Scott : Op. Cit. P. 313.
(58) اخبـار مجمـوعـة صفحـة 31 .
(59) نفس المصـدر والصحيفـة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبالرغم من ذلك كله ، كانت عوامل الضعف فى جيش كلثوم تنذر بالفشل والهزيمة ، فقد افتقر الى النظام والالفة بين عناصره من قيسية ويمنية ومتطوعة وأموية (60) · وكانت قيادته للقيسية (61) ، كما كان قائده طاعنا فى السن قليل الهيبة ، فى حين كان بلج بن بشر مقدم الخيل صلفا (62) ، فثارت الخصومات القبلية وتصدع الجيش العربى قبل التقائه بالثوار من البربر الصفرية · واحتدم الصراع بين كلثوم وحبيب ابن أبى عبيدة شيخ اليمنية بالمغرب ، ولم يتصالحا الا على مضض حين توجها لقتال الصفرية (63) بقيادة خالد بن حميد الزناتى (64) عند وادى نهر سبو (65) فى موضع يقال له بقدورة (66) ·

فلم يلبث الخلاف أن دب بينهما حول أسلوب القتال ، اذ أعرض كلثوم عن مشورة حبيب بن أبى عبيدة بمقاتلة الصفرية « الرجالة بالرجالة والخيل بالخيل » (67) . كما أهمل بلج بن بشر نصيحة هرون القرنى ومغيث باحتماء الرجالة وراء الخنادق والكراديس فى الوقت الذى يلتف فيه الخيالة خلف صفوف الصفرية لمهاجمة قراهم وذراريهم ، وأصر على النزال وجها لوجه استهانة بهم لقلة ما لديهم من

---

(60) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 14 ·

(61) اخبار مجموعة صفحة 36 .

(62) الرقيق ص 112 ، ابن عذارى : ج 1 ص 56 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .

(63) اشتط كلثوم وبلج — وهما من القيسية — فى معاملة عرب المغرب من اليمنية وزعيمهم اذ ذاك حبيب بن ابى عبيدة . فقد انف كلثوم النزول بالقيروان ونزل فى بلدة سبيبة على مقربة منها . وأمر أهل القيروان باخلاء منازلهم لجنده . فاستجاروا بحبيب بن أبى عبيدة وكان بتلمسان . فبعث الى كلثوم يامره بالرحيل عن البلاد . فاعتذر له كلثوم عن مسلكه وتوجه اليه بتلمسان ليشتركوا جميعا فى قتال الصفرية . وهنالك ثارت الخلافات من جديد لصلف بلج واستعلائه فى معاملة حبيب . وكادت الحرب أن تنشب بين الطرفين · وقد ذكر ابن خلدون انهما اقتتلا بالفعل ثم اصطلحا على مضض .
انظر : الرقيق : ص 112 ، ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن خلدون ج 4 ص 189.

(64) اختلفت الروايات حول قائد الصفرية آنذاك فابن القوطية ذكر أن القيادة كانت لميسرة وخالد بن حميد معا ، وصاحب أخبار مجموعة ذهب الى أنها كانت لميسرة وحده ، وكذلك ابن عبد الحكم · لكننا نرجح رواية الرقيق لان ميسرة كان قد نحى عن الزعامة كما سبق أن أشرنا ·
انظر : ابن القوطية : ص 41 ، اخبار مجموعة ص 32 ، ابن عبد الحكم : ص 296 الرقيق : ص 114 ، ابن عذارى : ج 1 ص 57 .

(65) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 .

(66) اخبار مجموعة ص 32 · وقد وردت عن ابن القوطية « نقدرة » . انظر : تاريخ افتتاح الاندلس صفحة 41 ·

(67) ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلاح (68) هذا فى الوقت الذى بلغ فيه حماس الصفرية ذروته ، فبرزوا ، عراة متجردين ليس عليهم الا السراويلات (69) واقتدوا بخوارج المشرق فحلقوا رؤوسهم وتعالت أصواتهم بالتحكيم اذكاء للحماس (70) .

وامر كلثوم بلجا باقتحام صفوف الصفرية بخيله ايمانا بقدرتها على احراز النصر . لكن خاب ظنه حين رماها الصفرية « بالاوضاف » (71) وهى الجلود اليابسة فيها الحجارة (72) . كذلك عمد الصفرية الى « الرمك الصعبة فعلقوا فى أذنابها القرب والانطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم » ، فكانت خيله تنفر وتلوذ بالفرار (73) وهكذا شل الصفرية تفوق العرب بما لديهم من خيل واحبطوا آمالهم فى احراز النصر (74) . وعبثا حاول كلثوم اقناع حبيب بن ابى عبيدة بتولى القيادة استنقاذا للموقف ، فقد أبى حبيب لتيقنه من حلول الهزيمة بالعرب (75) . وحاول بلج بن بشر ان يكسر صفوف البربر بخيله مرة أخرى ، ونجح بالفعل ، لكن الصفرية تمكنوا من الالتفات حوله وعزله عن الجيش العربى ثم فتكوا بغالب خيله وفرسانه (76) . واختلط الجيشان فى معركة رجالة (77) كان الصفرية فيها أكثر عددا (78) واشد مراسا واستبسالا وحلت الهزيمة بالجيش العربى بعد قتل كلثوم وحبيب بن ابى عبيدة (79) . أما بلج فقد تمكن من الفرار

---

(68) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(69) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(70) اخبار مجموعة : صفحة 32 .
(71) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(72) اخبار مجموعة صفحة 33 .
(73) نفس المصدر والصحيفة . وقد ذكر كونديه أن الخيول العربية لم تستطع الصمود لحرارة الشمس .
انظر : History of the dominion of the Arabs in Spain. Vol. I. P. 120.
(74) ابن عذارى : ج 1 ص 57
(75) ابن عبد الكم : ص 296 .
(76) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 .
(77) نفس المصدر والصحيفة .
(78) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(79) الحميدى : جذوة المقتبس ص 199 .
وقد أخطأ المقرى حين زعم أن كلثوما لم يقتل فى المعركة انما اصيب بجراح ولاذ بالهرب الى بلدة سبيبة قرب القيروان . انظر : نفح الطيب ج 4 ص 19 .
Scott : Op. Cit. P. 313.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نحو طنجة على راس عشرة آلاف من جنده (80) . وعادت فلول الجيش المهزوم الى افريقية فى نحو عشرة آلاف كذلك . وهكذا أسفرت معركة بقدورة سنة 123 هـ (81) (741 م) عن انتصار الصفرية (82) على جيش كلثوم الذى آل مصيره الى « ثلث مقتول وثلث منهزم وثلث مأسور » على حد قول صاحب الاخبار المجموعة (83) .

تمت للصفرية بعد بقدورة السيطرة على بلاد المغرب الأقصى . وكان من الطبيعى أن يمتد نشاطهم الى المغربين الاوسط والادنى . ولما كان هدفهم الاستيلاء على القيروان مقر الولاية ، غدت بلاد افريقية واقليم الزاب بوجه خاص ميدانا لنشاطهم .

وتزعم هذه المرحلة عكاشة بن أيوب النفزاوى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى (84) . وهذا يعنى أن قبيلتى نفزة وهوارة بالمغربين الادنى والاوسط لعبتا دورا أساسيا فى هذا الصدد مستعينتان بزناتة . لقد تخلت زناتة — التى كانت قد انتزعت زعامة الثورة من مطغرة — عن صدارتها لنشاط الصفرية فى المغرب الاوسط ، ولم تسهم بطونها الضاربة بالمغرب الاقصى برئاسة خالد بن حميد فى الثورة بافريقية بعد أن تمت له السيطرة على المغرب الاقصى . انما لعبت قبائلها بالمغرب الاوسط دورا قليل الاهمية فى هذا الصدد الى جانب قبيلتى نفزة وهوارة ذات النفوذ والغلبة فى افريقية.

ومهما كان الامر فقد تولى قيادة ثورات الخوارج الصفرية ابتداء بميسرة شخصيات من البربر بترا وبرانسا ، فهوارة من بطون البرانس(85).

---

(80) حيل بين بلج وبين دخول طنجة فاعتصم بسبتة وتحصن بها . وفشلت جيوش الصفرية فى الظفر به ، فشددوا عليه الحصار واحرقوا الزروع حول المدينة ليموت وجيشه جوعا . فكتب بلج الى والى الاندلس لائذا به ، فقبل بعد أن اشترط عليه تقديم الرهائن ، ومغادرة الاندلس بعد انقضاء عام يقاتل خلاله الى جانبه فى قمع ثورات البربر بالاندلس .

انظر : اخبار مجموعة ص 35 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ، الحميدى : ص 180 ابن عذارى : ج 1 ص 58 ، المقرى : نفح الطيب ج 4 ص 19 ،

Scott : Op. Cit. P. 313.

(81) اخطأ الطبرى حين ذكر ان المعركة وقعت سنة 121 هـ . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 7 صفحة 191 .

(82) ابن القوطية ص 41 ، ابن الاثير : ج 5 ص 71 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

(83) مجهول : اخبار مجموعة ص 34 .

(84) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 . وقد شذ ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين حين اعتبر عبد الواحد الهوارى اباضيا . انظر : العبر ج 6 ص 124 .

(85) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 139 ، السلاوى : ج 1 ص 101 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينما تنتمى زناتة الى البتر (86) وفى تعاونهما معا رغم ما كان بين البتر والبرانس من عداء وصراع ما يدل على تغلب العامل المذهبى على النعرات العصبية والخلافات القبلية التقليدية ، وما يدل أيضا على التعاون والترابط بين حركات الصفرية فى بلاد المغرب .

ففى الوقت الذى زحف فيه كلثوم بجيوشه لمواجهة صفرية المغرب الاقصى . قام عكاشة وعبد الواحد بالاستيلاء على قابس بعد ضربها بالمجانيق (87) . كما استمد عكاشة العون من صفرية زناتة بالمغرب الاوسط ، ونجح بفضلهم فى حصار سوق سبرت واقصاء عامل كلثوم عنها (88) . وكان من المتوقع أن يلتقى صفرية هوارة بقيادة عكاشة وصفرية زناتة تحت زعامة اخيه لمحاصرة القيروان ، لكن المحاولة احبطت حين تمكن صفوان بن مالك عامل طرابلس من تبديد الجيش الزناتى والحيلولة دون انضمامه الى صفرية هوارة (89) . وشجع ذلك مسلمة بن سوادة الذى اسند اليه كلثوم بن عياض قيادة جيش القيروان على الخروج لقتال عكاشة، لكنه هزم وعاد من حيث اتى (90) . فثار عليه جنده وعقدوا اللواء لسعيد بن بجرة الغسانى الذى آثر الاعتصام بالقيراوان (91) ولم يغادروها الا لمهاجمة قابس بالاتفاق مع عامل طرابلس . وفوت عكاشة الفرصة عليهما ، فترك قابس ويمم وجهه شطر القيروان بعد خروج سعيد بن بجرة منها ، لكنه منى بالهزيمة على يد أمير صلاتها عبد الرحمن بن عقبة الغفارى (92)، وقتل كثيرون من رجاله وتفرق من بقى منهم (93)، فهرب بنفسه لائذا بالصحراء سنة 124 هـ (94) (742 م) .

وفى الوقت الذى حاول فيه عكاشة وعبد الواحد تنظيم الصفرية فى اقليم الزاب والاستعانة بصفرية زناتة بزعامة أبى قرة (95) ، وصل حنظلة

---

(86) ابن عبد الحكم : ص 294 .
(87) نفس المصدر : ص 294 .
(88) نفس المصدر والصحيفة .
(89) نفس المصدر والصحيفة .
(90) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(91) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(92) نفس المصدر : صفحة 298 .
(93) الرقيق : ص 114 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .
(94) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(95) الرقيق : ص 115 ، ابن عبد الحكم ص 298 . وقد آلت اليه زعامة صفرية المغربين الاوسط والاقصى بعد خالد الزناتى .
انظر : ابن خلدون ج 7 صفحة 12 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن صفوان الى القيروان على راس ثلاثين الف مقاتل من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك (96) سنة 124 هـ (742 م) وجدير بالذكر ان هشاما ابدى اهتماما فائقا بهذه الحملة لاحساسه بتحرج مركز الخلافة فى المغرب وخشيته من اقتطاع الصفرية افريقية بعد نجاحهم فى سلخ المغرب الاقصى عن نفوذها، فاشرف بنفسه على تدبير الخطط ، ولم يتوان عن ارسال الامداد (97) .

حاول حنظلة افساد جهود عكاشة وعبد الواحد فى لم شمل الصفرية ، فبعث برسالة الى صفرية المغرب الاقصى والاوسط يحضهم على التزام الطاعة ويثنى عزمهم عن مؤازرة عكاشة وعبد الواحد (98) . كما باغت عكاشة فى اقليم الزاب ، وتمكن قائده عبد الرحمن بن عقبة من هزيمته . وحاول عبد الرحمن معاودة الكرة ، لكن عكاشة ظفر به وقتله فى نفس العام (99) . وكذلك كان مصير عامله على طرابلس معاوية بن صفوان الذى بعث اليه يحرضه على البطش بصفرية نفزة (100) ، فتمكنوا من أسره وقتله .

ثم توجه عكاشة الى القيروان عن طريق مجانة ، واستقر على بعد ستة أميال منها فى مكان يعرف بالقرن (101) . كما نجح عبد الواحد الهوارى فى تعبئة صفرية تلمسان بقيادة ابى قرة ، وانضم اليه كذلك بعض قبائل الصفرية فى المغرب الاقصى (102) ، وزحف بجيشه البالغ ثلاثمائة الف مقاتل الى القيروان وعسكر فى مكان يقال له الاصنام (103) ، بعد انتصاره على جيش انفذه حنظلة ليحول دون وصوله اليها (104) . وهكذا فشلت جهود حنظلة فى تفتيت قوى الصفرية (105) ، واضحت القيروان

---

(96) من مظاهر الاهتمام نصيحته لحنظلة بأن يشرع فى ضبط أمور افريقية قبل محاولة استرداد بلاد المغرب الاقصى التى اقتطعها الصفرية .
انظر : أخبار مجموعة صفحة 36 .

(97) اخبار مجموعة ص 36 .

(98) انظر ملحق رقم 2 .

(99) ابن عبد الحكم : ص 291 ، ابن عذارى : ج 1 ص 62 .

(100) ابن عبد الحكم : ص 300 .

(101) اخبار مجموعة ص 36 .

(102) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 62 ؛

(103) الرقيق : ص 118 . وتقع على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، ابن الاثير ج 5 ص 71 .

(104) الرقيق : صفحة 118 .

(105) يذكر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن انشقاقا وقع بين القائدين الصفريين عكاشة وعبد الواحد بسبب الخلاف حول الرئاسة ، لكننا نرجح أن يكون ما حدث من قبيل احكام الخطط للاطباق على القيروان بمحاصرتها من جهتين فى وقت واحد . انظر : تاريخ المغرب العربى ص 273 ، ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 70 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى متناول أيديهم .

ولجأ حنظلة بعد ذلك الى حفر خندق حول القيروان ، عساه ان يحول دون سقوطها ، كما عمل على تثبيط همة عكاشة ، فكتب اليه « يرغبه ويمنيه » دون (106) جدوى فلم ينتظر حتى يستشير الخليفة فى الامر (107)، انما عول على مواجهة الخطر الصفرى توا ، فبذل الاموال والعطايا (108)، وعبأ جيشه واحسن تنظيمه (109) ، ونجح فى استمالة اهل القيروان على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم (110) . وتمكن من هزيمة عكاشة (111) . ويذكر ابن الاثير (112) انه كان نصرا خاطفا احرزه حنظلة قبل أن ينهض عبد الواحد لدخول القيروان . لكن الرقيق (113) يؤكد أن القتال ظل سجالا حتى حلت الهزيمة بالصفرية « وقتل منهم خلق كثير » وأسر عكاشة وقتل سنة 125 هـ (114) (743 م) .

ثم بادر حنظلة بلقاء عبد الواحد ، وانتصر الصفرية فى البداية ، لكنهم هزموا بعد ذلك ، وقتل عبد الواحد ونكل بجيشه ، وفرت فلوله الى جلولاء (115) . وابتهج حنظلة بانتصاره فى معركتى القرن والأصنام ، وطير خبره الى الخليفة مزهوا (116) . والحق أن هاتين المعركتين كانتا نصرا عظيما للخلافة الاموية (117) ، وردا لاعتبارها بعد هزيمتى الاشراف وبقدورة . وحال هذا النصر بين افريقية وبين السقوط فى يد الصفرية ،

---

(106) ابن عبد الحكم : صفحة 299 .

(107) الرقيق : ص 116 ، ابن عذارى : ج 1 ص 73 .

(108) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(109) ذكر الرقيق انه عبأ خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وجعل على الطلائع شعيب ابن عثمان ، وعلى الساقة عمرو بن حاتم ، وعلى الميمنة عبد الرحمن بن مالك الشيبانى . انظر : تاريخ افريقية والمغرب ص 119 .

(110) استمال حنظلة فقهاء المالكية الذين قاموا بدور التعبئة الروحية والمعنوية للجيش الى جانب اشتراكهم فى القتال . انظر : الرقيق : ص 120 ، المالكى : ج 1 ص 13 و 144 . كما قام نساء القيروان بدور كبير فى حض الرجال على الاستبسال فضلا عن اشتراك بعضهن فى القتال كذلك . انظر : الرقيق : ص 120 ، ابن الاثير ج 5 ص 71.

(111) الرقيق : صفحة 117 .

(112) الكامل ج 5 ص 71 ، Biquet : Op. Cit. P. 36

(113) تاريخ افريقية والمغرب ص 117 .

(114) نفس المصدر ص 122 ، ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 63 .

(115) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذارى : ج 1 ص 63 .

(116) اخبار مجموعة ص 36 ، الباجى المسعودى : ص 15 .

(117) يتضح ذلك من قول الليث بن سعد « ما من غزوة كنت احب أن اشهدها بعد غزوة بدر أحب الى من غزوتى القرن والاصنام » . انظر : الرقيق : ص 122 ، ابن الاثير : ج 5 صفحة 71 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأكد نفوذ الخلافة فى المغرب الاوسط .

لكن النفوذ الاموى فى بلاد المغرب ما لبث أن تداعى بضعف الخلافة الاموية على اثر وفاة هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (743 م) . ولعل من أبرز الاحداث دلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب تغلب عبد الرحمن ابن حبيب بن ابى عبيدة (118) على افريقيـــة سنـــة 127 هـ (745 م) ، وارغامه حنظلة بن صفوان على مغادرتها ، وتسليـــم الخليفـــة مروان ابن محمد مضطرا بشرعية ولايته (119) .

والحق أن عبد الرحمن بن حبيب استطاع عن طريق الحيلة (120) والعنف معا قمع حركات الصفرية التى قامت فى عهده ، فقضى على ثورة عروة بن الوليد الصدفى بتونس (121) ، كما بدد الائتلاف الصفرى الـــذى قام بين عبد الله بن سكريد وثابت بن وريدون الصنهاجى فى باجة (122) . لكن أمر الصفرية لم ينقطع من المغرب كما ذهب ابن خلدون (123) ومن أخذ عنه (124) ، بل ازدادت ثوراتهم شدة بعد موت عبد الرحمن بن حبيب . ووجدوا فى اشتغال الخلافة العباسية بمشاكلها (125) ، وفى الصراع حول الامارة بين آل بيت عبد الرحمن بن حبيب فرصة مواتية لاستئناف حركاتهم .

ومرة أخرى تزعمت نفزاوة هذه الحركات ، فقد استطاع عاصم بن جميل زعيم ورفجومة (126) — وهى من بطون نفزاوة — (127) أن يوحد سائر بطون القبيلة ، فانضم اليه رؤساء البطون وأيدوه ، ومنهم عبد الملك

---

(118) اشترك عبد الرحمن بن حبيب مع والده فى موقعة بقدورة ، ونزح الى الاندلس ، مع بلج بن بشر . وهناك وقع فى صراع مع بلج وثعلبة بن سلامة ، فلم يطب له المقام خصوصا فوجود ابى الخطار الحسام بن ضرار عامل حنظلة على الاندلس فغادرها الى تونس ، ودعى لنفسه فالتفت حوله اليمنية . ثم دخل القيروان بعد انسحاب حنظلة منها سنة 127 هـ . وظل على ولائه الاسمى لبنى أمية حتى قامت الدولة العباسيـــة سنة 132 هـ ، فاعلن تبعيته للمنصور . ثم خلع طاعته واستقل بالامر وظل يمارس نفوذا فعليا فى افريقية بمعزل عن الخلافة حتى اغتيل سنة 137 هـ على يد أخيه الياس .

(119) ابـــن خلـــدون : ج 4 ص 190 .

(120) ابـــن عـــذارى : ج 1 ص 65 .

(121) ابن خلدون : المرجع السابق ص 190 .

(122) الرقيق : ص 126 ، ابن خلدون ج 6 ص 111 .

(123) العبـــر : ج 4 صفحـــة 190 .

(124) انظر : السلاوى : ج 1 ص 105 .

(125) ابن وردان : تاريخ الاغالبة ورقة 2 — مخطوط .

(126) ابن خلدون : ج 6 ص 115 . تزعم المصادر السنية أنه كان كاهنا مدعيا للنبوة . انظر : ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(127) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن أبى الجعد ويزيد بن سكوم (128) .

وبلغت نفزاوة الصفرية درجة من القوة جعلت عبد الوارث بن حبيب يلجأ اليها لمناصرته ضد ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن (129) . ووجد عاصم ابن جميل فى ذلك الفرصة المواتية ، فرحب به ووقف معه فى وجه خصومه ، ولم يعبأ بتهديدات حبيب عند ما طلب اليه تسليم عمه والتخلى عن مناصرته. والحق به الهزيمة عند ما عمد الى محاربته (130) .

ويبدو أن عبد الوارث بن حبيب فى صراعه مع ابن أخيه اظهر الولاء لابى جعفر المنصور (131) . ولصلته بعاصم بن جميل ، اعتقد أهل القيروان أن عاصما ايضا من أنصار الخلافة العباسية .

وليس ببعيد أن يكون عاصم بدوره قد اظهر الولاء لبنى العباس ليكسب أهل القيروان ، والا لما أقدم أهل القيروان على استدعائه بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثق والدعاء للمنصور » (132) . وبذلك جذب أعدادا غفيرة منهم ، فانضموا الى جيشه (133) .

أما حبيب بن عبد الرحمن فقد توجه لملاقاة الصفرية بعد أن استخلف على القيروان قاضيها (134) ، لكن عاصما تمكن هزيمته ففر الى قابس ، واتخذ عاصم طريقه نحو القيروان . وخرجت جماعة القيروانيين بزعامة القاضى ابى كريب للحيلولة دون دخوله المدينة ، لكن زملاءهم فى جيشه أثنوهم عن عزمهم ودعوهم الى طاعته (135) ، فاستجابوا لهم وتركوا قاضيهم فى جماعة قليلة من الفقهاء أجهز عليهم الصفرية (136) بظاهر القيروان سنة 139 هـ (137) (756 م) ودخل الصفرية المدينة واستولوا

---

(128) ذهب ابن خلدون والسلاوى الى انهما كانا من زعماء الاباضية ، لكن كتب الاباضية خلو من اى اشارة تؤكد ذلك ، بل تصورهما على أنهما من أعداء ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح الاباضى . انظر : العبر ج 6 ص 115 ، الاستقصا ج 1 ص 109 .

(129) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 ، ابن الاثير ج 5 ص 117 . ابن خلدون ج 4 صفحة 191 .

(130) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(131) ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(132) نفس المصدر والصحيفة .

(133) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

(134) المالكى : ج 1 صفحة 110 .

(135) الرقيق : صفحة 140 .

(136) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 صفحة 171 .

(137) المالكى : ج 1 ص 107 و 110 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليهـــا (138) .

ثم استخلف عاصم على القيروان عبد الملك بن أبى الجعد ليتفـــرغ لملاحقة حبيب بن عبد الرحمن ، وتمكن من هزيمته عند قابس ، ففر الـــى الاوراس لائذا بأهله (139) فاقتفى عاصم أثره ، والتحم معه فى معركـــة هزم فيها الصفرية ولقى حاتم حتفه (140) .

وحاول حبيب بن عبد الرحمن استرداد القيروان فزحف اليها بأنصاره ، لكنه هزم وقتله عبد الملك بن أبى الجعد سنة 140 هـ (141) (757 م) . وبذلك قضى الصفرية على الفهريين فى المغرب واضحت لهـــم السيطـــرة الكاملة « على القيروان وسائر افريقية » (142) .

ويبدو أن الصفرية بعد أن اقتطعوا المغرب الاقصى والاوسط ودانت لهم افريقية والقيروان ، أصبحوا خطرا على بلاد المغرب الادنى التى كانت الغلبة فيها للمذهب الاباضى ، ولعل ذلك يفسر ما حدث مـــن صراع بـــين الاباضية والصفرية ، وقيام ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى بالاستيلاء على القيروان واقصاء الصفرية عنها . وتبدو وجاهة هذا القول اذا ما أدركنا حقيقة أهداف الاباضية فى انشاء دولة لهم ببلاد المغرب بعد نجاح دعوتهم بين بربر المغرب الادنى . وقد سبق القول بأنهم شرعوا فـــى ذلك على اثر عودة دعاتهم من البصرة سنة 140هـ (757م) بعد اجماعهم الرأى مع فقهاء المذهب ومشايخه على ابتداء « امامة الظهور » . ولما كان نجاح الصفرية يشكل حجر عثرة أمام مشروعاتهم فى قيام دولة اباضية ، أصبح الاحتكاك بين القوتين الخارجيتين أمرا مؤكدا .

---

(138) تبالغ المصادر السنية فى وصف فظائع الصفرية بالقيروان فتذكر أنهم « استحلـــوا المحارم وارتكبوا الكبائر ، وسبوا النساء والصبيان » « وربطوا دوابهم فى المسجد الجامع » والواقع أن ذلك محض افتراء . انظر : الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 ، ابن الاثير : ج 5 ص 117 وتضيف هذه المصادر أن شيوخ القيروان وفقهائها استصرخوا الخلافة العباسية لتخليصهم من عسف الصفرية وما أصاب البلاد على أيديهم « من ظلم فاش وأمر قبيح » انظر : المالكى : ج 1 ص 102 ، ابو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 30 .

(139) ابـــن خلـــدون : ج 4 ص 191 .

(140) الرقيق : ص 141 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 .

(141) نفس المصدرين والصفحتين ، ابن الاثير ، ج 5 ص 117 ، السلاوى ، ج 1 ص 110

(142) ابـــن خلـــدون : ج 6 صفحـــة 112 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى ذلك فلا محل لتصديق ما تقدمه المصادر السنية والاباضية (143) على السواء من تعليلات غير مقنعة لتبرير خروج أبى الخطاب وحروبه مع الصفرية فى القيروان ، اذ تذكر أن أبا الخطاب ما خـرج « الا غضبا للـه ولدينه » (144) استجابة لدعوة أهل القيروان لتخليصهم من عسف الصفرية.

فصارى القول ـ أن أبا الخطاب بعد أن بايعه أنصاره بالامامة توجه بجيشه نحو قابس فحاصرها حتى سقطت ، فترك عليها عاملا من قبله وارتحل لمقاتلة الصفرية بالقيروان (145) ، وبث عبد الملك بن أبى الجعد فصائل من جيشه لتحول دون وصول الاباضية ، لكنها منيت بالهزيمة . فخرج بنفسه على رأس الصفرية والتقى بأبى الخطاب خارج القيروان ، فهزم جيشه وقتل فى المعركة (146) . ودخل أبو الخطاب المدينة سنة 141 هـ (758 م) وولى عليها عبد الرحمن بن رستم (147) ، ثم غادرها على وجه السرعة لمواجهة جيوش الخلافة التى أنفذها المنصور ، وعين عبد الرحمن ابن رستم عماله على سائر أقاليم افريقية التى خلصوها من الصفرية (148).

ويخيل الينا أن انهزام الصفرية فى افريقية أدى الى ارتفاع نجمهم مرة أخرى فى بلاد المغرب الاوسط ، حيث نجح أبو قرة الصفرى فى تكوين

---

(143) تجمع هذه المصادر على استبداد الصفرية بعرب القيروان وسومهم سوء العـذاب ، وعلى استدعاء القيروانيين أبى الخطاب لتحريرهم من ظلم الصفرية ، وتذكر فى ذلك روايـات شتـى منهـا :
أ ـ أن رجلا اباضيا دخل القيروان وشاهد بنفسه بعض الصفرية يعتدون قسرا على امرأة فى المسجد الجامع ، فاعلم أبا الخطاب بالامر ، فخرج لينتقم منهم لاستباحتهم حرمـة المسجـد . انظر : الرقيق : ص 141 ـ 142 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118، النويرى ج 22 ورقـة 16 .
ب ـ أن أبا الخطاب قاتل الصفرية على اثر رسالة من احدى القيروانيات تعلمه فيها أنها أخفت وليدتها فى حفرة تحت سرير خشية أن يفسدها الصفرية . انظر ، أبو زكريا : ورقة 7 ، الدرجينى : ج 1 ورقـة 12 .
ج ـ أن احدى نساء القيروان خرجت من المدينة منادية « أغيثونى معاشر المسلمين » وفى رواية أخرى « أغثنى يا أبا الخطاب » ، فمد الله فى صوتها وسمعه أبو الخطاب فأجابها « لبيك يا أختاه » . انظر : أبو زكريا : ورقة 7 .
وهذه الروايات جميعا تميل الى المبالغة والطابع الاسطورى مما يشكك فى صحتها . كذلك فمن المستبعد أن يكون خروج أبى الخطاب سببه دافـع اقتصادى كمـا ذهب الدكتور سعد زغلول عبد الحميد اعتمادا على قول للشماخى بأن عام 140 هـ الـذى خرج فيه أبو الخطاب كان عام جدب . انظر : الشماخى : السير ص 127 ، سعد زغلول : المغرب العربى صفحة 310 .

(144) الشماخى : السير صفحـة 127 .

(145) أبو زكريا : السيرة ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 .

(146) نفس المصدر والصفحات ، ابن الاثير ج 5 ص 118 .

(147) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، السلاوى : ج 1 ص 111 .

(148) أبو زكريا : ورقة 9 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امارة مستقلة بنواحي تلمسان ، كما تمكن أبو القاسم سمكو بن واسول من ارساء دعائم دولة بنى مدرار فى سجلماسة على اثر هزيمة الصفرية فى القيروان سنة 140 هـ .

انتقل اذن مركز الثقل فى نشاط الصفرية من افريقية الى المغرب الاوسط بعد تكوين أبو قرة الصفرى امارته الصفرية فى تلمسان . والواقع أن الغموض يكتنف أصل أبى قرة ، فمن المؤرخين من يرجع بنسبه الى قبيلة مغيلة ، ومنهم من ينسبهم الى بنى يفرن من زناتة (149) . ويرجع الخلاف الى العرف الشائع عند البربر من انخراط القبائل تحت زعامة أكثرها قوة ونفوذا . حقيقة أن بنى يفرن « كانوا اشد قوة واكثر جمعا » ، لكن مغيلة كانت « اشهر بالخارجية من بنى يفرن » (150) . ولما كانت القبيلتان متجاورتين (151) ، فقد حدث اللبس حول أصل أبى قرة . ومهما كان الامر ، فان أبا قرة تزعم صفرية المغربين الأوسط والأقصى بعد خالد بن حميد الزناتى (152) . واشتزك فى حصار القيروان الى جانب عبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ ، ثم عاد ادراجه الى تلمسان على اثر هزيمة الاصنام . ويضيف الرقيق (153) أن عبد الرحمن بن حبيب هزمه هزيمة ساحقة سنة 135 هـ (752 م) فتت فى عضده ، فلم يسهم فى حركات صفرية نفزاوة ضد حبيب بن عبد الرحمن ، وتركها تتلقى سوء المصير على يد ابى الخطاب الاباضى سنة 140 هـ . ولعل ذلك يفسر مبايعته بالامامة فى وقت متأخر سنة 148 هـ (765 م) ـ كما يذكر ابن خلدون (154) ـ بعد أن انضوى صفرية المغرب الادنى تحت زعامته فضلا عن صفرية الأجزاء الساحلية والغربية من المغرب الأوسط (155) .

---

(149) ذكر ابن خلدون فى تاريخه انه « من مغيلة ، وهو الاصح فى شانه » انظر : العبر ج 6 ص 112 . لكنه فى موضع آخر يقول « وقد قيل ان أبا قرة من مطماطة وهذا عندى صحيح ، ولذلك اخرت ذكر أخباره الى أخبار بنى يفرن من زناتة » . انظر : العبر ج 6 ص 125 . ونفس الخلط نجده عند السلاوى حيث ذكره على أنه « أبا قرة بن دوناس اليفرنى » ومرة اخرى يدعوه « أبا قرة المغيلى » . انظر : الاستقصا ج 1 صفحة 116 .

(150) ابن خلدون : العبر ج 7 ص 12 .

(151) نفس المصدر والصحيفة .

(152) نفس المصدر والصحيفة .

(153) تاريخ افريقية والمغرب ص 130 .

(154) العبر ج 6 ص 112 ، ج 7 ص 12 .

(155) نبذ تاريخية ـ جمع برونشال ص 49 ، محمد الشطيبى : الجمان ورقة 203 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى تلك الاثناء كان محمد بن الاشعث الخزاعى (156) يوطد نفوذ الخلافة العباسية فى افريقية (157) ، فاستطاع اقصاء الاباضية عن القيروان ، والحق بهم عدة هزائم دانت بعدها بلاد المغرب وافريقية لسلطانه « واطفأ نار الفتنة فيها » (158) . وبديهى أن يتجه بعد ذلك الى محاولة استرجاع المغربين الاوسط والاقصى ، لذلك عول على انفاذ قائده الاغلب بن سالم التميمى على راس جيش لمحاربة ابى قرة والصفرية فى تلمسان سنة 148 هـ (159) (765 م) . ويخيل الينا ان اضطراب الجند العربى وثورتهم على ابن الاشعث (160) حالت دون قيام هذا الجيش بما ازمع القيام به ، اذ لا تطالعنا المراجع (161) باخبار عن الصراع مع ابى قرة الا ابان ولاية الاغلب بن سالم فى نفس العام . فقد « بعث اليه المنصور عهده بولاية القيروان .. ثم اضطربت عليه الامور لخروج ابى قرة عليه واشتغاله بحربه » .

على كل حال — وجد ابو قرة فى ثورات الجند الخلافى فى افريقية فرصة مواتية لاعداد قواته للقيام بالثورة واسقاط الحكم العباسى فى القيروان (162) وادرك الاغلب خطورة الموقف فعول على الخروج اليه قبل ان تدهمه جيوش الصفرية فى مقر الولاية (163) والتقى الخصمان فى اقليم الزاب ، فآثر ابو قرة الانسحاب ، وقرر الاغلب اقتفاء اثره وضرب معقل قوته فى تلمسان(164) وربما تجاوزت مطامحه تلمسان ذاتها ، فرنى ببصره الى تحرير بلاد المغرب الاقصى كلها حتى طنجة (165) . وكان ذلك سببا فى ثورة جنده عليه وانصرافهم عنه ، تلك الثورة التى انتهت بقتله سنة 150 هـ (156) (767 م). وقبع ابو قرة فى تلمسان (167) يعد العدة لجولة اخرى .

---

(156) اخطأ ابن وردان حين ذكر أن الاشعث بن عقبة الخزاعى هو الذى اضطلع بهذه المهمة وليس ابنه الذى اجمعت عليه المصادر . انظر : تاريخ الاغالبة ص 1 مخطوط .
Biquet : Op. Cit. P. 42.

(157) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .
(158) ابن خلدون : العبر : ج 6 ص 115 .
(159) ابن خلدون : ج 4 ص 192 ، ج 7 ص 12 .
(160) انظر : جغرافية المامون ص 184 .
(161) ابن الابار : الحلة السيراء ج 1 ص 69 ، ابن الاثير : ج 5 ص 217 .
(162) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيفة .
(163) ابن عذارى : ج 1 ص 86 .
(164) ابن خلدون : ج 6 ص 112 .
(165) ابن الاثير : ج 5 ص 217 .
(166) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 18 .
(167) السلاوى : ج 1 صفحة 116 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفى هذا الوقت كان عمر بن حفص والى القيروان قد رحل الى اقليم الزاب (168) وحصن طبنة باقامة سور حولها (169) ليحول دون هجوم الصفرية على القيروان وليتخذ منها قاعدة للانطلاق الى معقلهم فى تلمسان . ويبدو أن عمر بن حفص كانت الخلافة قد عهدت اليه بتصفية نشاط الخوارج فى المغرب اباضية وصفرية (170) . ولعل ذلك كان سببا فى ائتلاف الصفرية والاباضية لاول مرة فى بلاد المغرب . فاجتمعوا على محاصرته بطبنة (171). فمن الاباضية اشتركت جيوش أبى حاتم الملزوزى وعبد الرحمن بن رستم والمسور بن هانىء فى الحصار (172) ، كما أسهم رؤساء الصفرية كذلك ، فكان جيش أبى قرة أربعين الفا (173) ، ووصل عبد الملك بن سكردید على راس الفين من صنهاجة (174) فضلا عن صفرية مديونة بزعامة جرير بن مسعود (175) . وضرب الجميع الحصار حول طنبة وبها عمر بن حفص فى خمسة عشر الف من العرب سنة 153 هـ (176) (770 م) .

وتجمع المصادر على أن عمر ابن حفص اغرى أبا قرة بالمال لينسحب هو واتباعه عن الصفرية . لكنها تختلف فى ذكر التفاصيل ، فبعضها (177) يرجح انه رفض الرشوة وقبلها اخوه الذى ارتحل بالعسكر ، فاضطر أبو قرة للانسحاب ، فى حين يقرر البعض (178) الآخر ان عمرا استمال أبا قرة وليس اخاه . بينما نجد رواية ثالثة مؤداها (179) أن أبا قرة قبل الرشوة

---

(168) ابـن عـذارى : ج 1 ص 88 .

(169) ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، السلاوى : ج 1 ص 117 .

(170) ذكر ابن الاثير أن انتقال عمر بن حفص الى الزاب وتحصينه طبنة كان وفقا لمشورة المنصور. الكـامـل ج 5 ص 221 .

(171) الـرقيـق : صفحـة 143 .

(172) ذكر ابن الاثير والنويرى أن عاصم السدراتى الاباضى اشترك فى حصار طبنة على راس ستة آلاف من الاباضية . انظر : الكامل ج 5 ص 221 ، نهاية الارب ج 22 ورقة 21 . وهو قول مردود لان عاصما مات مسموما سنة 140 هـ ابان حروب أبى الخطاب مع ورفجومة . انظر : ابو زكريا : ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 .

(173) ابن عذارى : ج 1 ص 88 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 371.

(174) ابـن الاثيـر : ج 5 صفحـة 221 .

(175) مديونة احدى بطون بنى فاتن من ضريسة البترية ، ومواطنها فى نواحى تلمسان . ابن خلـدون : ج 6 صفحـة 125 .
ولا محل لتصديق رواية ابن خلدون القائلة بتشيع ورفجومة الصفرية لعمر بن حفص وقتالها الى جانبه . انظر : العبر ج 6 ص 115 .

(176) ابـن عـذارى : ج 1 صفحـة 88 .

(177) ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويرى : ج 22 ورقة 21.

(178) الرقيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 6 ص 112 .

(179) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة ، السلاوى : ج 1 ص 117 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هو وابنه وارتحل بقومه من الصفرية . وأمام هذا الاختلاف نشكك فى الرواية من أساسها . والراجح أن يكون انسحاب الصفرية نتيجة اختلاف مع الاباضية ، اذ أن تعاونهما فى بلاد المغرب ليس مألوفا ، والمعروف أن الفرقتين الخارجيتين كانتا على خصومة وعداء كثيرا ما وصل الى درجة الصراع والتناحر ، وهذا يفسر قيام أبى حاتم بمحاصرة القيروان (180) من دون الصفرية (181) . بينما عاود أبو قرة قتال الحامية التى تركها عمر بن حفص بطبنة (182) بعد أن غادرها ليحول دون وقوع القيروان فى يد الاباضية . وفى عودة أبى قرة لمحاربة اتباع عمر بن حفص ما ينفى ما قيل عن قبوله الرشوة .

على كل حال ــ تسبب الخلاف بين الصفرية والاباضية فى فشل حصار طبنة ، ونجح عمر بن حفص فى هزيمة عبد الرحمن بن رستم الاباضى ، كما تمكن قائده المهنا بن المخارق بن غفار الطائى من هزيمة أبى قرة وردع الصفرية (183) . وعاد أبو قرة الى مقره فى تلمسان .

ولم تقم للصفرية قائمة بعد ذلك ، فضعف شأنهم ، حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم الذى قدم الى المغرب سنة 155 هـ (622 م) على رأس جيش كثيف أوغل به فى نواحى المغربين الاوسط والادنى (184) . كما كان الصراع بين الأدارسة والرستميين حول تلمسان وما حولها من عوامل اختفاء الصفرية من المغرب الاوسط وتحول الكثيرين منهم فى تلك الجهات الى الولاء للادارسة واتباعهم من آل سليمان ، بينما هاجر جزء كبير ممن بقوا على مذهبهم الى سجلماسة التى أضحت ملاذا للصفرية فى بلاد المغرب .

أما عن صفرية افريقية والمغرب الادنى فقد بطش بهم يزيد بن حاتم أيضا ، فقمعت حركة ورفجومة سنة 157 هـ (774 م) على يد ابنه

---

(180) ابن خلدون : ج 4 صفحة 193 .
(181) اختلط الامر على الطبرى فذكر أن أبا قرة اشترك فى حصار عمر بن حفص فى القيروان ذلك أن حصار القيروان الذى ضربه أبو حاتم الملزوزى حدث سنة 154 هـ وليس سنة 153 هـ . وقد وقع فى هذا الخطأ كثيرون ممن نقلوا عن الطبرى . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 42 ، السلاوى : ج 1 ص 118 ، العينى : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .
ويؤكد معظم المؤرخين أن الذين حاصروا عمر بن حفص فى القيروان كانوا جميعا من الاباضية . انظر الرقيق : ص 143 ، ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، 90 ، ابن خلدون ج 6 ص 119 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .
(182) الرقيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .
(183) الرقيق : صفحة 143 .
(184) نفس المصدر : صفحة 159 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المهلب وقائده العلاء بن سعيد (185) . كما فشلت ثورة الصفرية فى بـــلاد الزاب التى تزعمها أيوب الهوارى سنة 164 هـ (780 م) بعد أن رماهم يزيد بن حاتم بالمخارق بن غفار الطائى (186) ومن بعده العلاء بن سعيد ، والى العلاء يعزى الفضل فى قمع الثورة وقتل قائدها والتنكيل بالصفرية أينما وجدوا فى افريقية (187) ، حتى أن بربر ورفجومة رأس صفرية افريقية انقرض امرهم وصاروا أوزاعا فى القبائل (188) .

هكذا قدر ليزيد بن حاتم أن يبدد شمل الخوارج الصفرية فى افريقية والمغرب الاوسط ، وتمكن الادارسة من تأسيس دولتهم فى المغرب الاقصى على حساب نفوذ الصفرية ، وظلت دولة بنى مدرار بسجلماسة موئلا لصفرية بلاد المغرب ومركزا لتجمعهم ، فقد حققت هدفهم فى قيام دولة صفريـــة خالصة فى بلاد المغرب .

---

(185) نفس المصدر ص 161 ، ابن خلدون : ج 6 ص 115 ، السلاوى : ج 1 ص 118 .
(186) ابـــن خلـــدون : ج 4 صفحـــة 193 .
(187) الرقيق : ص 162 ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 .
(188) ابـــن خلـــدون : ج 6 ص 115 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا :

ثورات الخوارج الاباضية

سبق القول بأن المذهب الاباضى غلب على بلاد المغرب الادنى فانتشر بين قبائله وخاصة نفوسة وهوارة . ويبدو ان الخوارج الاباضية لم يكونوا قد تهيئوا بعد لمرحلة الظهور حتى بداية العقد الرابع من القرن الثانى الهجرى اى حتى قيام ثورة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى سنة 140 هـ (757 م) ، بينما سبق الخوارج الصفرية بزعامة ميسرة المطغرى الى الظهور سنة 121 هـ (739 م) فى المغرب الاقصى . ولعل السبب فى تأخر ثورات الاباضية يكمن فى قرب مواطنهم من القيروان مقر الامارة ومركز الجند العربى . يضاف الى ذلك قربها النسبى من عاصمة الخلافة الاموية وولاتها فى مصر مما يجعل مهمة الخلافة وولاتها فى مصر والمغرب فى قمع الحركات المعادية امرا اكثر سهولة من قمع ثورات الصفرية فى المغرب الاقصى .

ويبدو أن نجاح حركات الصفرية فى المغرب الاقصى اغرى اباضية المغرب الادنى بالتعجيل بالقيام بثورات مماثلة قبل ان يتهيئوا لها او تتوافر الظروف المناسبة التى تساعد على انجاحها . وجدير بالذكر ان المصادر الاباضية تسقط من اعتبارها كل نشاط للاباضية فى المغرب سابق على حركة ابى الخطاب عبد الاعلى سنة 140 هـ (757 م)فتعتبره اول الائمة ، وتؤرخ لثورته باعتبارها بداية « لمرحلة الظهور » (189) . واذا كانت ثورة

(189) الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 34 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابى الخطاب ــ حقيقة ــ تعد اول ثورة اباضية ذات طابع شامل وشكل منظم ، فقد سبقتها حركات أخرى لم تتمخض عن شيء سوى اضعاف الحركة الاباضية قبل أن يشتد عودها ، وتأجيل ظهور الاباضية على المسرح السياسى فى بلاد المغرب .

كانت هذه الثورات ثلاثا ، قامت اولاها سنة 126 هـ (744 م) بزعامة عبد الله بن مسعود التجيبى الذى تراس بربر هوارة فى منطقة طرابلس متحديا حكم عبد الرحمن بن حبيب ،واخمدت هذه الحركة دون عناء بعد أن قبض أخو عبد الرحمن وعامله على طرابلس على التجيبى « وضرب عنقه » (190) .

ثم اجتمعت هوارة على اثنين من زعمائها هما عبد الجبار بن قيس المرادى والحارث بن تليد الخضرمى (191) . وزحف الحارث وعبد الجبار الى طرابلس وضربا عليها الحصار حتى استسلم عاملها (192) ، واخذا بثار التجيبى واقتصا من قاتله (193) . وانفذ عبد الرحمن بن حبيب ثلاثة جيوش لاسترداد طرابلس هزمها الاباضية جميعا (194) ، فلجأ الى الحيلة واستمال احد شيوخ هوارة وبعثه «ليستألف الناس ويقطع عن عبد الجبار هوارة » (195) دون جدوى . فعقد العزم على الخروج بنفسه وقاد جيشا لاسترداد طرابلس وصل به حتى قابس ، ثم عاد ادراجه الى القيروان لما علم بتآمر اهلها على خلعه (196) . لكن حادثا مفاجئا افضى الى مقتل الحارث وعبد الجبار سنة 131 هـ (749 م) كفى عبد الرحمن بن حبيب مئونة قتالهما .

---

(190) ابن عبد الحكم : ص 301 ، ابوراس : مؤنس الاحبة ص 43 .

(191) تختلف المصادر حول كيفية اشتراكهما فى قيادة الثورة ، فذكر البرادى انهما « كانا مشتركين فى الملك » اما الشماخى فيرى أن احدهما كان اماما والاخر وزيره ، وبينهم من رواية لابن عبد الحكم ــ وهى الارجح ــ ان عبد الجبار كان امام الصلاة والحارث امام الحرب ، انظر : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشماخى : السير ص 125 ، ابن عبد الحكم : ص 302 .

(192) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .

(193) نفس المصدر والصحيفة .

(194) عن تفاصيل هذا الموضوع راجع : ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 ، الرقيق : ص 128 ، البرادى : الجواهر ورقة 87 ، Masqueray : P. 23.

(195) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .

(196) الرقيق : صفحة 128 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتختلف المصادر (198) حول دوافع هذا الحادث . والراجح انهما اختلفا حول مسائل فقهية او تنازعا حول الحكم (199) ، فاحتكما الى السيف فقتل كل منهما صاحبه . ومهما كان الأمر فقد تمخض الأمر عن حدوث الشقاق (200) بين جماعة الاباضية بالمغرب على غرار ما كان يحدث بين الخوارج المشارقة . ولم تجد نفعا نصائح فقهاء المذهب بالبصرة بالكف عن ذكر هذه المسالة ، فظلت تشغل اباضية المغرب حتى تولى ابو الخطاب الامامة سنة 140 هـ (201) (757 م) .

أما ثالث تلك الثورات فكانت من نصيب قبيلة نفوسة ، اذ بادر زعيمها اسماعيل بن زياد النفوسى بعد ان « عظم شأنه وكبر بيعه » (202) بالاستيلاء على قابس سنة 132 هـ (751 م) (203) . فخرج اليه عبد الرحمن بن حبيب وانفذ طلائعه من الخيالة ليسبر غوره ،لكن عامله على طرابلس التحم بنفوسة الاباضية وقتل زعيمها واسر كثيرا من رجالها (204) . واصطحب عبد الرحمن بن حبيب اسرى الاباضية الى طرابلس وذبحهم وامتحن الناس بهم « فكان يؤتى بالاسير من البربر فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله » (205) كما عهد الى عامله بطرابلس بتوزيع المغانم التى غنمها من الاباضية على جنده (206) ، واعاد بناء سور المدينة (207) لتحصينها من خطر الاباضية،

---

(198) ذكر بعض المؤرخين انهما اختلفا فاقتتلا ، فقتل كل منهما الاخر ووضع سيفه فى جسد صاحبه (ابن عبد الحكم : ص 302 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87) وذكر آخرون أن عبد الرحمن بن حبيب حاربهما فقتلهما (الرقيق ص 129 ، ابن الاثير ج 5 ص 116) . بينما نجد فى رواية ثالثة أن عبد الرحمن بن حبيب اغتالهما خفية ، وأوصى القتلة بوضع سيف كل منهما فى جسد الاخر اثارة للخلاف بين الاباضية . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 12 ، على يحيى معمر : الاباضية فى موكب التاريخ ص 46 ، 47.

(199) الشماخى : السير ص 125 ، Masqueray : Op. Cit. P. 23.

(200) اختلف الاباضية فى تحديد ايهما اخطأ فى حق صاحبه ، ولم يلبث الخلاف أن تشعب الى مسائل فقهية وفلسفية جوهرها « هل يدفع الشك اليقين ؟ ام اليقين يدفع الشك ؟» فقال البعض هما على ولايتهما حتى يتبين أمرهما ، بينما راى البعض الاخر عدم البت فى القضية ، فتحول الخلاف الفقهى الى انشقاق سياسى .. عن مزيد من التفصيلات راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشماخى : السير ص 125 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 11 ظهر .

(201) ابو زكريا ، السيرة ورقة 6 .

(202) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(203) اطفيش : الامكان صفحة 53 .

(204) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(205) الرقيق : صفحة 128 .

(206) ابن عبد الحكم صفحة 302 .

(207) الرقيق : ص 129 ، ابن الاثير : ج 5 ص 116 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم قفل عائدا الى القيروان فى نفس العام .

ولا يخامرنا شك فى أن جهود ابن حبيب وعماله على طرابلس فى قمع حركات الاباضية قد فتت فى عضدهم .

ويخيل الينا أن هذا هو ما دفع زعماء الاباضية فى المغرب الادنى للرحيل الى البصرة للاسترشاد بمشايخ المذهب فى الاعداد للثورة المنظمة الشاملة . وقد عادوا الى المغرب بعد أن مكثوا خمس سنوات بصحبة أبى عبيدة مسلم بن ابى كريمة وجماعة شيوخ المذهب وقد تذرعوا بالاساليب والوسائل الكفيلة بانجاح حركتهم . وحسبنا ان ابا عبيدة اشار عليهم باختيار أحد رجال المذهب من عرب المشارقة لزعامتهم لما له من دراية بأحوال المغرب ولحصافته ودربته بأصول السياسة وفنون الحكم (208) . ويبدو انه أوصى أفراد الوفد المغربى بتعبئة قبائل الاباضية جميعا للاشتراك فى الثورة ، فاشترط ضرورة حشد القوى المادية والبشرية للقيام بالثورة (209) كما تخصص بعض أفراد الوفد فى مسائل الفقه والشريعة لمواجهة ما يعن لهم من مسائل تتعلق بالثورة ومعاملة الخصوم وادارة الاقاليم التى يتسنى لهم انتزاعها من الحكام العرب (210) وأخيرا أوصاهم بموافاته بتطورات حركاتهم وضرورة مشاورته فيما يعن لهم من أمور (211) .

وما أن عاد الوفد الى بلاد المغرب سنة 140 هـ (757 م) ، حتى بادر أعضاؤه بالاتصال بالقبائل وتهيئتها للقيام بالثورة ، ويذكر أبو زكريا (212) أن ابا الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافرى — وهو الذى أشار أبو عبيدة بتقلده زعامة الحركة — أبدى نشاطا ملحوظا « فى الكتمان » فاتصل بمشايخ القبائل للتشاور فى اعلان « امامه الظهور » . وقد كللت مساعيه بالنجاح ، فانضم اليه جمهرة الاباضية ، وكسب الكثير

---

(208) الشماخى : السير ص 125 . يخرج ماسكراى من اختيار عربى لزعامة الحركة بأن العامل الدينى حل محل عامل العصبية فى اعطاء الحركة طابعها ، انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 29.

(209) الشماخى نفس المصدر صفحة 124 .

(210) أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة : رسالة فى احكام الزكاة ورقة 114 — مخطوط .

(211) انظر : ملحق (1) .

(212) السيرة واخبار الائمة ورقة 6 .

(213) اليعقوبى : تاريخه ص 118 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من الاتباع (213) ، واجمع رؤساء المذهب على مبايعته بالامامة (214) . وانضوت قبائل نفوسة وهوارة وزناتة وغيرهـــا تحت لوائـــه (215) . واستطاع ابو الخطاب مداهمة طرابلس على حين غفلة (216) ، وارغم عاملها عمرو بن عثمان القرشي (217) على مغادرتها واستولى على بيت مالها (218) ، وامن اهلها (219) .

وباستيلاء الاباضية على طرابلس اشتد ساعدهم ، فاتخذوها قاعدة للمذهب ، وبعثوا الى ابى عبيدة مسلم بالبصرة يعلموه « بظهور الامامة » . فاغتبط لذلك ونصحهم بالتضامن واقتفاء اثر السلف الصالح (220) . وجنح ابو الخطاب الى التوسع ، فاستولى على جزيرة جربة وجبل دمر سنة 140 هـ (221) (757 م) ، كما ضم قابس فى نفس العام (222) ، ودانت بلاد المغرب الادنى بطاعته ، فرنى ببصره صوب افريقية .

ثم كان استيلاء الصفرية على القيروان وخروج ابى الخطاب وصراعه مع الصفرية وهزيمتهم عند رقادة (223) ، ودخول المدينة بعد مقتـــل عبد الملك بن ابى الجعد مقدم الصفرية ، ونجاح عامله عليها ـــ عبد الرحمن ابن رستم ـــ فى بث نفوذ الاباضية فى سائر جهات افريقية (224) ، بعد

---

(214) تذكر المصادر الاباضية أن رؤساء المذهب كانوا يجتمعون فى مكان يقال لـــه صياد ـــ غربى طرابلس ـــ بحجة اقتسام أرض اخلف القوم عليها ، او للتاليف بين رجل اختلف مع زوجته ، مداراة لوالى طرابلس . انظر : ابو زكريا : ورقة 6 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 11 . وتصور هذه المصادر ابا الخطاب على انه فوجىء بعرض الامامة عليه ، لكنه كـــان فى الواقع على علم بانـــه سيتقلدها منذ غـــادر البصرة مع الوفد المغربى وفقا لمشورة ابى عبيدة مسلم بن أبى كريمة .
انظر : ابو زكريا : ورقة 6 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 11 .

(215) ابـــو زكريـــا : ورقـــة 7 .

(216) تصور المصادر الاباضية سقوط طرابلس تصويرا روائيا اشبه ما يكـــون بسقوط طروادة ، فذكرت ان الجيش الاباضى اختبأ داخل جوالق يحملها الجمال التـــى دخلت المدينة على أنها قافلة تجارية فلما توسطت المدينة ، خرج الرجال شاهرين اسلحتهم صائحين « لا حكم الا لله ولا طاعة الا لابى الخطاب » .
انظر : ابو زكريا : ورقة 7 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 12 .

(217) الرقيق : ص 142 ، ابن عذارى : ج 1 ص 74 .

(218) ابـــو زكـــريـــا : ورقـــة 7 .

(219) نفس المصدر والصحيفة ، الدرجينى : ج 1 ورقة 14 .

(220) انظـــر : ملحـــق (1) .

(221) ابو راس : مؤنس الاحبـــة صفحـــة 45 .

(222) ابو زكريا : ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 13 .

(223) البكرى : المغرب صفحـــة 28 .

(224) ابو زكريـــا : ورقـــة 9 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مغادرة أبى الخطاب القيروان لمواجهة جيوش الخلافة التى بعثها المنصور لاستنقاذ افريقية (225) .

وقد انفذ المنصور محمد ابن الاشعث الخزاعى على راس جيش زاد عدده عن خمسين الف مقاتل الى بلاد المغرب سنة 142 هـ (759 م). ومهما اختلف المؤرخون (226) حول دوافع ارسال هذا الجيش الضخم ، فلا شك أن مهمته الاساسية كانت استرداد نفوذ الخلافة وهيبتها فى بلاد المغرب (227) بعد أن أضحت قسمة بين الصفرية والاباضية من الخوارج. ويبدو أن ابن الاشعث هاله أمر الاباضية الذين سيطروا على المغرب الادنى وافريقية ، فآثر البقاء بمصر ، وانفذ طلائعه بقيادة أبى الاحوص عمرو ابن الاحوص العجلى (228) الى المغرب .

وهذا هو ما حدا بأبى الخطاب عبد الاعلى الى مغادرة القيروان على وجه السرعة للقاء أبى الاحوص ، فالتقى به فى مغمداس (229) بناحية سرت (230) وهزمه واحتوى عسكره ، فعاد أبو الاحوص الى مصر مدحورا (231) .

ويخيل الينا أن هذه الهزيمة فتت فى عضد ابن الاشعث ، فبعث المنصور اليه يستصرخه التعجيل بالتوجه الى المغرب بنفسه (232) ،

---

(225) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، ابن خلدون : ج 4 ص 191 ، الانصارى : المنهل العذب صفحة 65 .

(226) ذكر مؤرخو السنة أن المنصور أنفذ الحملة استجابة لطلب فقهاء القيروان لتخليصهم من عسف الصفرية .
راجع : المالكى : ج 1 ص 98 ، 102 ، أبو العرب تميم : ص 30 . بينما ذهب مؤرخو الاباضية الى أن ارسال الحملة كان نتيجة الحاح أحد رجال أبى الخطاب — ويدعى جميل السدراتى — بعد أن خرج عليه ورحل الى بغداد .
راجع : ابو زكريا : ورقة 9 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 15 ، الشماخى : ص 131 .

(227) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .

(228) زعم ابن تغرى بردى أن أبا الاحوص انفذ الى المغرب من قبل والى مصر حميد بن قحطبة ، واضاف أن حميدا خرج بنفسه للقاء أبى الخطاب بعد هزيمة أبى الاحوص فهزمه وقتله ثم عاد الى مصر .
انظر : النجوم الزاهرة ج 1 ص 349 . والثابت أن ابن الاشعث هو الذى قام بالمهمة ابان ولاية حميد بن قحطبة لمصر .
انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 82 .

(229) البكرى : ص 7 ، ابن عذارى ، ج 1 ص 82 .

(230) البكرى : نفس المصدر والصحيفة ، السلاوى : ج 1 ص 114 .

(231) ذكرت المصادر الاباضية أن أبا الخطاب كان قد هزم جيشا آخر لابن الاشعث بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلى قبل انتصاره على أبى الاحوص . انظر الشماخى : السير صفحة 130 .

(232) ابن عذارى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعول ابن الاشعث على الاستعداد الكامل قبل مغادرته مصر ، فحشد فى جيشه من القواد العظام ثمانية وعشرين قائدا (233) من بينهم الاغلب ابن سالم التميمى والمحارب بن هلال الفارسى والمخارق بن غفار الطائى (234) .

واستعد أبو الخطاب للقاء ابن الاشعث ، فرابط بأرض سرت فى سبعين الف (235) من الاباضية . لكن خلافا وقع فى معسكره تمخض عن انسحاب اباضية لاعتقادهم بتحيزه الى هوارة (236) . وبادر ابن الاشعث بالنزول بجيشه على موارد الماء بمكان يقال له تاورغا (237) ، ومنع عسكر أبى الخطاب من ارتياده (238) . فلما نشب القتال دارت الدائرة على الاباضية ، فقتل أبو الخطاب مع آلاف من رجاله (239) ، ونجى منهم نفر قليل لاذوا بالحصون والقلاع فى الجبال (240) . وعول ابن الاشعث على استئصال شأفة الاباضية ، فأرسل قائده اسماعيل بن عكرمة الخزاعى الى زويلة وودان فقتل من بها من الاباضية (241) . كما لقى اباضية طرابلس عنتا شديدا من عامله

---

(233) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(234) النويرى : ج 22 ورقة 19 .

(235) أبو زكريا : ورقة 10 . ويبالغ ابن عذارى حين يذكر أن جيش أبى الخطاب بلغ مائتى ألف مقاتل ، انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 82 .

(236) ابن عذارى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، النويرى : ج 22 ، ورقة 19 . وتذكر المصادر الاباضية أن العامة فى جيش أبى الخطاب تخلوا عنه حين تظاهر ابن الاشعث بالانسحاب الى الشرق رغم تحذير أبى الخطاب وتتجاهل تماما ذكر انسحاب اباضية زناتة . والحق ما ذهبت اليه المصادر السنية فى تفسير الانشقاق داخل معسكر الاباضية . يؤكد ذلك ما ورد بالمصادر الاباضية ذاتها من اشتراك نفوسة وهوارة وجريشة فى معركة تاورغا الى جانب أبى الخطاب دون أن يرد بينها ذكر لزناتة .
انظر : أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجينى : ج 2 ورقة 15 ، الشماخى السير صفحة 131 ، 132 .

(237) تقع بأرض سرت على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس . الدرجينى : ج 2 ورقة 16 .

(238) أبو زكريا : ورقة 10 .

(239) تقدر المصادر الاباضية عدد القتلى بما يتراوح بين اثنى الف واربعة عشر الف . أما المصادر السنية فتسرف فى تقديرها الذى يصل الى أربعين الف . راجع : أبو زكريا : ورقة 10 ، الشماخى : السير ص 132 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .

(240) أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ،
Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

(241) ابن عذارى : ج 1 ص 84 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المخارق بن غفار ، فقد أسرف فى تقتيلهم وسبى ذراريهم (242) . ولم يسلم اباضية زناتة من بطش ابن الاشعث على الرغم من خروجهم على أبى الخطاب وعدم اشتراكهم فى معركة تاورغا ، فقتل زعيمهم أبو هريرة الزناتى فى ستة عشر الف من أصحابه (243) وعلى الرغم من هزيمة احد جيوشه أمام اباضية زهانة (244) ، فقد القى الرعب فى قلوب اباضية المغرب الادنى ، فهابوه ودانوا له بالطاعة (245) .

وهكذا وضعت معركة تاورغا سنة 144 هـ (761 م) نهاية لامامة الظهور التى استمرت أربعة أعوام سيطر الاباضية ابانها على افريقية والمغرب الادنى ، فلم يقو الاباضية بعدها على الظهور واضطروا الى العمل فى تستر وكتمان وهو ما يعرف فى اصطلاحهم « بامامة الدفاع » .

تولى امامة الدفاع بعد مقتل أبى الخطاب يعقوب بن حبيب المعروف بأبى حاتم الملزوزى (246) سنة 145 هـ (762 م) . ويختلف المؤرخون حول أصله ، فيذكر بعضهم (247) انه من هوارة ، وقيل من سدراته (248) ، و فى قول ثالث انه من مغيلة (249) ونحن نرجح الرواية الاولى لان هوارة من اشد قبائل الاباضية قوة واكثرها عددا ومشاركة فى ثورات الاباضية . أما سدراتة فكان دورها ضئيلا فى الحركة الاباضية بالمغرب ، بينما كانت مغيلة تدين بالمذهب الصفرى ، ومضاربها بنواحى تلمسان أى انها بعيدة عن مسرح نشاط الاباضية فى المغرب الادنى وافريقية (250) .

على كل حال — بويع أبو حاتم بالامامة سنة 145 هـ (251) (762 م)، وظل مستترا طيلة أربع سنوات قضاها فى جمع شمل جماعات الاباضية

---

(242) الشماخى : السير ص 134 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .
(243) ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(244) الشماخى : السير صفحة 134 .
(245) ابن الاثير : ج 5 صفحة 118 .
(246) أخطأ الدرجينى فى تسمية ابى حاتم بيعقوب بن لبيب ، وكذلك البرادى الذى نقل عنه . راجع : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(247) الدرجينى : ج 1 ورقة 17 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(248) البلاذرى : فتوح البلدان ص 75 .
(249) ابن خلدون : ج 6 ص 125 ، برونشال : نبذ تاريخية ص 49 .
(250) والصواب ان يكون من «مليلة » وهى بطن من بطون هوارة راجع : ابو زكريا : ورقة 12 .
(251) نقل الشماخى عن الدرجينى خطأه فى جعل تاريخ مبايعة ابى حاتم بالامامة سنة 154 هـ بدلا من سنة 145 هـ . انظر : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، السير ص 133 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى تفرقت على اثر حروب ابن الاشعث . وكان خلالها يرسل الصدقات الى عبد الرحمن بن رستم (252) الذى كان يعد العدة لقيام دولة بنى رستم الاباضية فى المغرب الاوسط .

ويبدو انه فى سنة 150 هـ (253) (767 م) آنس من نفسه قوة « فأراد الخروج على جند طرابلس وعامل أبى جعفر » (254) .

ويبدو أن عامل طرابلس تنبه لذلك فخرج اليه على رأس جنده وطلب من الاباضية الاذعان لطاعته والدعوة للخليفة العباسى (255) ، فرفضوا ، فاقتتلوا ، وانتصر الاباضية ودخلوا طرابلس . ونعتقد ان الاباضية أمعنوا فى البطش بأهل طرابلس من العرب — على غير عادتهم — تشفيا وانتقاما لما حل بهم من قبل (256) . وظل أبو حاتم مقيما بطرابلس حتى وصل عمر بن حفص الى افريقية سنة 151 هـ (768 م) .

حاول عمر بن حفص استرداد طرابلس واقصاء الاباضية عنها ، فأنفذ ثلاثة جيوش لهذا الغرض هزمها الاباضية جميعا (257) . كان أولها بقيادة الجنيد بن بشار الازدى ، فدهمه أبو حاتم بقابس وضرب عليه الحصار ، فبعث الجنيد يطلب العون من عمر بن حفص ، فأنفذ اليه خالد ابن يزيد المهلبى على رأس أربعمائة فارس عدا الرجالة ، لكن أبا حاتم هزمه أيضا وحال دون دخوله المدينة . فعززه عمر بجيش ثالث بقيادة سليمان بن عبادة المهلبى ، طارده الاباضية فعاد من حيث اتى . وكان عمر قد غادر القيروان اذ ذاك الى طبنة فى اقليم الزاب ، فلم يتوان أبو حاتم عن اقتفاء أثر سليمان بن عبادة (258) وضرب الحصار على القيروان

---

(252) ابو زكريا : ورقة 11 .

(253) بروفنسال : نبذ تاريخية ص 49 ، محمد الشطيبى : الجمان ورقة 303 مخطوط .

(254) أبو زكريا : ورقة 11 .

(255) الدرجينى : ج 1 ورقة 17 ، الشماخى : السير ص 134 .

(256) يفهم ذلك من رواية لابى زكريا يقول فيها أن أبا حاتم لام أصحابه على تعديهم وامرهم برد ما أخذوه من أسلاب ، وهددهم بالتخلى عن الامامة ما لم يجيبوه . انظر : السيرة ورقة 12 .

(257) النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(258) من الملاحظ أن المصادر جميعا تضطرب وتختلط حين تسرد هذه الاحداث ، وقد أثبتنا ما نعتقد أنه الصواب على هدى تلك الروايات المختلفة . انظر : أبو زكريا ورقة 12 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 17 ، الشماخى : السير ص 134 ، ابن عذارى ج 1 ص 88 ، ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة 153 هـ (259) (770 م) .

ثم غادر أبو حاتم القيروان ليسهم فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، ذلك الحصار الذى اشترك فيه الاباضية مع الصفرية جنبا الى جنب لأول مرة . وقد اشترك أيضا عبد الرحمن ابن رستم ومعه خمسة عشر الف فارس (260) ، والمسور بن هانىء الزناتى فى عشرة آلاف فارس (261) ، فضلا عن جموع الصفرية بقيادة ابى قرة . لكن الحصار لم يستمر طويلا ، فقد حدث نزاع بين الاباضية والصفرية اسفر عن فشله . وآثر أبو حاتم العودة لحصار القيروان ، بينما انسحب عبد الرحمن بن رستم برجاله الى تهودة . وهناك لحق به عمر بن حفص وانزل به هزيمة عاد بعدها الى تاهرت مدحورا (262) . أما المسور الزناتى فالراجح انه لحق بأبى حاتم وانضم اليه فى حصار القيروان (263).

شدد أبو حاتم الحصار ، وضيق على أهل القيروان بجيشه البالغ مائة وخمسين الفا (264) ، فاشتد الكرب بالمحاصرين ونفذ ما لديهم من المؤن والأقوات (265) ، واضطر كثيرون منهم الى الخروج من المدينة والانضمام الى الاباضية (266) .

ترك عمر بن حفص طبنة على وجه السرعة لفك الحصار عن القيروان ، وخرج الاباضية بأجمهم ليجهزوا عليه قبل قدومه ، لكنه أخذ

---

(259) تخطىء المصادر الاباضية حين تزعم أن ابا حاتم حاصر ابن الاشعث فى القيروان وارغمه هو وجنوده على الرحيل الى المشرق . فمن المعروف أن ابن الاشعث غادر القيروان سنة 148 هـ بعد ثورة الجند الخلافى عليه . وجدير بالذكر أن هذه المصادر تتجاهل ولاية عمر بن حفص افريقية فتسقطها ، ولا تورد شيئا من ثم عن الصراع بينه وبين الاباضية . راجع : أبو زكريا : ورقة 12 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 .

(260) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(261) ابن الاثير : ج 5 صفحة 221 .

(262) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ذكر الرقيق أن ابن رستم فقد فى المعركة ثلاثمائة من رجاله بينما ذكر ابن عذارى أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف . راجع : تاريخ افريقية والمغرب ص 143 ، البيان المغرب ج 1 ص 19 .

(263) يفهم ذلك من قول ابن الاثير بأن أبا حاتم « كثر جمعه » بعد أن غادر طبنة . راجع الكامل ج 5 صفحة 222 .

(264) ابن عذارى : ج 1 ص 89 وتبالغ بعض الروايات فتذكر أن جيش أبى حاتم بلغ خمسة وثمانين ألف فارس وثلاثمائة وخمسين ألف راجل . راجع : الطبرى : ج 8 ص 42 ، البرادى : الجواهر ورقة 88 ، العينى : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .

(265) ابن الاثير : ج 5 صفحة 222 .

(266) الرقيق : ص 144 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طريقا مغايرا ، فسلك طريق تونس بدلا من الاربس (267) . وبادر بشحن القيروان بالمؤن والاقوات والميرة والرجال وادوات الحصار (268) . وحفر خندقا على باب أبى الربيع جعل عسكره من خلفه مؤثرا سياسة الدفاع (269) .

وقد عادت هذه السياسة على ابن حفص بأوخم العواقب ، فلم يتوان الاباضية عن قتاله ، واضطر للخروج لفك الحصار — الذى فرضه على نفسه — فهزم وارتد الى خندق أبى الربيع معتصما به (270) . وتبعه أبو حاتم حتى جاوز مشارف الخندق ، كما وزع رجاله على سائر أبواب المدينة فمنع المحاصرين داخلها من الخروج ، وظلوا كذلك حتى نفذت أقواتهم (271) . وزاد الامر سوءا ، اختلاف قواد عمر بن حفص عليه وتقاعسهم عن القيام بمحاولة يائسة لفك الحصار (272) وحين وصله خبر قدوم يزيد بن حاتم لنجدته ، استنكف الانتظار وآثر الموت ، فظل يقاتل الاباضية حتى قتل (273) فى منتصف ذى الحجة من سنة 154 هـ (771 م) .

عقد أبو حاتم صلحا (274) مع جميل بن صخر — الذى تزعم الجند بعد مقتل أخيه لامه عمر بن حفص (275) — ثم دخل القيروان « فأحرق أبوابها وثلم سورها » (276) واستخلف عليها عاملا من قبله . واتجه الى طرابلس حين علم بمقدم يزيد بن حاتم على رأس جيش من الشرق لكنه اضطر للعودة الى تونس لقيام ثورات الجند العربى على عماله فى الزاب ،

---

(267) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، والاربس احدى مدن افريقية تقع غربى القيروان بمسيرة ثلاثة أيام . السلاوى : ج 1 ص 118 .

(268) الرقيق : ص 144 ، ابن عذارى : ج 1 ص 89 .

(269) النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(270) الرقيق : ص 144 ، النويرى ج 22 ورقة 21 .

(271) الرقيق : ص 145 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 .

(272) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(273) الرقيق : نفس المصدر ص 146 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 . وثمة رواية لابن وردان تصور هرب عمر بن حفص الى جبل الاوراس وقتله غدرا أثناء نومه . راجع : تاريخ الاغالبة ورقة 5 — مخطوط .

(274) يبدو أن أبا حاتم كان يريد عقد الصلح على وجه السرعة ليتفرغ للقاء جيش يزيد بن حاتم ، ومن ثم اتسم الصلح بالتساهل المفرط مع غريمه ، فقد نص فيه على ألا يكره أحد من الجند على بيع سلاحه ودوابه وعلى أن كل دم اصابه الجند من البربر فهو هدر . انظر : الرقيق ص 146 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(275) ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

(276) الرقيق : ص 147 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فنجح فى تفريق بعضهم (277) ، وعهد الى بعض قواده بمهمة القضاء على البعض الآخر (278) ومضى الى طرابلس لمواجهة يزيد بن حاتم (279) والواقع أن أبا حاتم كان فى موقف لا يحسد عليه ، ففضلا عن ضخامة حملة يزيد بن حاتم وحسن استعدادها (280) دب الخلاف داخل معسكره، فانحازت قبيلة مليلة الهوارية الى يزيد (281) ، وكذلك بعض رجال نفوسة الذين استرشد بهم فى الوقوف على عورات البلاد (282) .

على كل حال — تمكن أبو حاتم بادىء الآمر من هزيمة طلائع جيش يزيد التى قادها سالم بن سوادة التميمى (283) عند مغمداس (284) وقتل منها أعدادا غفيرة (285) . لكن لحسن بلاء يزيد وقيادته الجيش بنفسه (286) ، اضطر أبو حاتم الى الاعتصام بجبل نفوسة فى موضع حصين خلف خندق حفرة الاباضية على وجه السرعة (287) غير أن يزيدًا أفسد خطته ، فتمكن من اجتياز الخندق ، والتحمت جيوشه بالاباضية فهزموهم « وقتل أبو حاتم ومن معه من أهل البصائر » (288) فى المعركة .

---

(277) بدد أبو حاتم شمل جميل بن صخر وجنده عند تونس ، كما أرغم لخارق بن غفار الطائى على مغادرة القيروان . انظر : الرقيق ص 148 .

(278) بعث أبو حاتم جرير بن مسعود المديونى فى اثر عمر بن عثمان الفهرى الى أرض كتامة ، لكن جريرا هزم وقتل . انظر : الشماخى : ص 135 .

(279) الرقيق ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 91 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ؛ النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(280) تجمع المصادر على ضخامة الحملة فتقدر عددها بما يتراوح بين تسعين الف ومائة وعشرين الف ، نصفهم من الفرسان . انظر : اليعقوبى : تاريخه ص 120 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 ، الرقيق : ص 159 ، وابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن خلدون : العبر ج 4 ص 195 ، العينى : ج 13 ورقة 16 ، الشماخى : السير ص 136 .

(281) أبو زكريا : ورقة 12 ، الشماخى : ص 136 .

(282) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 .

(283) النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(284) مكان حصين بجبل نفوسة فى نواحى طرابلس . راجع : الرقيق ص 159 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 .

(285) الرقيق : ص 160 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 . يعتقد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن أبا حاتم هزم فى تلك المعركة على الرغم من اجماع المؤرخين اباضية وغير اباضية على انتصاره فيها . انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 329 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 ، أبو زكريا ورقة 12 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 ، الشماخى : السير ص 139 .

(286) الرقيق : صفحة 160 .

(287) نفس المصدر والصحيفة ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(288) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما قتل جمهور عظيم من الاباضية (289) ، بلغ ثلاثين الفا (290) . واستبدت بيزيد شهوة الثار لعمه عمر بن حفص (291) « فطلب الاباضية فى كل سهل وجبل » (292) وبطش بهم . ثم استعمل احد عماله على طرابلس ونهض الى القيروان سنة 155 هـ (293) (772 م) .

والحق ــ أن تلك الضربة الماحقة التى الحقها يزيد بن حاتم بالاباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج الاباضية فى صورته الشاملة المنظمة حقيقة أن حركاتهم لم تحبط بصورة نهائية فى عهد يزيد ، لكنها كانت تفتقر الى التنظيم والشمول ، ومن ثم لم يجد امراء آل المهلب فى افريقية عناء فى قمعها وردعها . فثورة هوارة بزعامة أبى يحيى بن قرياس سنة 156 هـ (773 م) بنواحى طرابلس انتهت بكارثة لاباضية هوارة على يد عبد الله بن السمط الكندى الذى قتل أبا يحيى وعامة اصحابه (294) . وحسبنا اننا لم نسمع عن أى نشاط للاباضية طوال حكم يزيد بن حاتم الذى امتد حتى عام 170 هـ (786 م) ، ولذلك حق لابن عذارى (295) أن يقول « تهدنت افريقية ليزيد بن حاتم » . واذا كان يزيد بن حاتم قد قضى على ثورات الاباضية فى شكلها الشامل المنظم ، فان خليفته داود بن حاتم تمكن من « حصد شوكتهم » (296) ، ففى عهده ثارت قبيلة نفزة الاباضية بجبال باجة بزعامة صالح بن نصير (297) ، ونجح فى هزيمة قوات داود ، لكن سليمان بن الصمة احد رجال داود تمكن من هزيمته (298) . كما حارب سليمان نفرة فى معركة اخرى بشقنبارية (299) لم يقم لها قائمة من بعدها (300) . كما احبطت ثورة اباضية هوارة سنة 180 هـ (796 م) بزعامة عياض بن

---

(289) اليعقوبى : تاريخه ص 12 .
(290) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 193 ، ويبالغ النويرى فيذكر أن القتلى من معسكر يزيد كانوا ثلاثة فقط والصحيح ما رواه الرقيق من أن عددهم بلغ « ثلاثة رهط » انظر : النويرى نهاية الارب ج 22 ، الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب ص 160 .
(291) الرقيق : صفحة 159 .
(192) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 194 ، ابن الاثير ج 5 ص 223 .
(293) نفس المصادر والصفحات .
(294) ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن الاثير : ج 5 ص 4 .
(295) البيان المغرب ج 1 صفحة 94 .
(296) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 113 ، السلاوى : ج 1 ص 120 .
(297) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 115 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(298) الرقيق : ص 169 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(299) احدى كور الاربس بافريقية . راجع الرقيق ص 169 .
(300) الرقيق : ص 169 ، ابن عذارى : ج 1 ص 99 ، ابن خلدون : ج 6 ص 113 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهب الهوارى (301) . أما اباضية نفوسة فقد استكانوا وغلبوا على أمرهم بعد فشل حركة أبى حاتم . وقبل ذلك كان اباضية زناتة قد بطش بهم ابن الاشعث سنة 144 هـ (760 م) .

وهكذا تصدعت حركات الاباضية فى المغرب الأدنى وافريقية ، بينما نجح عبد الرحمن بن رستم بمؤازرة اباضية المغرب الاوسط فى تأسيس دولة بتاهرت سنة 161 هـ (1977 م) ، تلك الدولة التى امتد نفوذها فيما بعد لتضم اباضية المغرب جميعا بعد أن دانوا بالولاء والتبعية لائمتها ، واقامت دليلا عمليا على نجاح ثورات الاباضية فى تحقيق مراميها فى تكوين دولة اباضية بالمغرب .

(301) ابن الاثير : ج 5 ص 46 ، ابن خلدون : العبر ج 4 ص 195 ، ابن تغرى بردى : ج 2 صفحة 90 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثالثا :

نتائج ثورات الخوارج في بلاد المغرب

نخلص من هذا العرض لثورات الخوارج ـــ صفرية واباضية ـــ فى بلاد المغرب بعدة نتائج منها ان هذه الثورات كانت تتأثر ـــ ان ضعفا وان قوة ـــ بموقف الخلافة فى الشرق اموية وعباسية ، واهتمامها بشؤون بلاد المغرب أو انصرافها عنها . وحسبنا أن اندلاع ثورات الخوارج فى المغرب واكب اضطراب الخلافة الاموية وانشغالها بالخصومات القبلية والصراعات حول السلطة بين أفراد البيت الاموى (302) . وازدادت هذه الثورات تأججا وغلبت على بلاد المغرب جميعا بعد موت هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (303) (743 م) الذى كان يولى بلاد المغرب عناية خاصة ، « فوقع الاضطراب بافريقية » (304) وطرق الخلل .. لخفوت صوت الخلافة بالمشرق (305) . ويكفى أن عبد الرحمن بن حبيب اغتصب حكم افريقية له ولآله من بعده ، ففى غيبة الخلافة وعمالها آنذاك بلغت ثورات الخوارج أوجها حتى غدت القيروان ذاتها ميدانا للصراع بين الاباضية والصفرية ، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بقوله (306) « .. وأعضل

---

(302) الحميدى : جذوة المقتبس ص 8 ، الضبى ، بغية الملتمس ص 14 .
(303) أخبار مجموعة ص 36 .
(304) الحميدى : المرجع السابق ص 8 .
(305) الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 15 .
(306) العبر : ج 6 صفحة 11 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

امر الخارجية ورؤسها » . ولم يكن ذلك الا « لانشغال بنى امية عن قاصية الثغور » (307) .

ومن الطبيعى ان تتفاقم ثورات الخوارج ويزداد خطرها بقيام الدولة العباسية التى اهتمت فى عهد السفاح بأمور المشرق اكثر من اهتمامها بأمور المغرب (308) ، فانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد وسع الهوة بين بلاد المغرب ومقر الخلافة (309) ، ومن ثم خرج عن طاعته « ما بين تاهرت وطبنة الى بلاد السودان وجميع مملكة الاندلس (310) .

وقد تغير الموقف تماما فى خلافة المنصور ، فكانت سياسته قائمة على اساس الاحتفاظ بالمغرب وعدم التفريط فيه (311) ، فاختار ولاته من خاصته الاكفاء « من ذوى الرأى الاصيل والخطر الجليل » (312) ، كابن الاشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، كما انفق المال بسخاء فى اعداد حملاته على المغرب مع ما عرف عنه من بخل وشح (313) . وتغلب على مشكلة طول المسافة وبعد الشقة بين بغداد والمغرب بأن عهد الى ولاته بمصر بمسؤوليات اعداد الجيوش وقيادتها (314) . واقتفى الرشيد نفس السياسة من الاهتمام بأمور المغرب (315) . فقد حرص على اختيار ولاته من ذوى « الخداع والدهاء والغدر » (316) . كما كان على صلة دائمة بهؤلاء الولاة ، وكثيرا ما ساهم فى رسم سياساتهم ووضع خططهم فى محاربة الخوارج (317) . فاستطاع أن يحتفظ بافريقية بعد أن كادت تسقط فى أيديهم (318) .

هذا وقد تأثرت ثورات الخوارج بشخصية الولاة وسياساتهم وما

---

(307) المقرى : نفح الطيب ج 1 صفحة 222 .
(308) عن الطابع الشرقى للخلافة العباسية واهمال السفاح لشؤون المغرب انظر : محمود اسماعيل : الاغالبة ، سياستهم الخارجية ص 1 ، 2 .
(309) عن الطريق البرية بين بغداد وبلاد المغرب انظر : قدامة بن جعفر : الخراج صفحة 220 — 225 .
(310) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص 258 .
(311) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .
(312) الرقيق : ص 151 ، ابن عذارى : ج 1 ص 98 .
(313) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 ، ابن تغرى بردى : ج 2 ص 20 .
(314) ابن تغرى بردى : ج 2 ص 23 .
(315) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .
(316) ابن طباطبا : الفخرى فى الاداب السلطانية ص 127 .
(317) ابن الابار : الحلة السيراء ج 2 ، ص 358 .
(318) ابن الاثير ج 5 ص 221 ، Mercier : Histoire de l'Afrique. P. 142.
Muir : The Caliphate. P. 461.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هم عليه من قوة أو ضعف ، وما لسياساتهم من آثار فى جمع شمل الجند أو بعثرته . فقد أدى نشوب الصراع القبلى بين القيسية واليمنية (319) الى ما حل بجيش كلثوم بن عياض القشيرى من كارثة على يد الصفرية فى موقعة بقدورة سنة 123 هـ (740 م) . وأثبتت تلك الموقعة أن الخوارج كانوا يفيدون من انقسام الجند العربى ، وهى حقيقة يؤكدها سقوط القيروان واستيلاء الصفرية عليها ثم الاباضية بسبب الخلافات بين افراد الاسرة الفهرية (320) .

وكانت ثورات الخوارج تزداد تأججا ونجاحا حين كان الولاة يشغلون عنها بانقاذ حملاتهم خارج المغرب فكان الخوارج يجدون فى غياب الجند العربى فرصة مواتية لتعبئة الجهود واعلان الثورة . وحسبنا أن أولى ثورات الخوارج التى تزعمها ميسرة قامت فى الوقت الذى كانت فيه جيوش ابن الحبحاب تغزو فى صقلية (321) . كما اندلعت هذه الثورات بصورة شاملة حيث « استشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية » (322) فى وقت انشغال جيوش ابن حبيب بغزو سردينية وصقلية (323) . وقد استطاع ابن الاشعث بفضل كفايته العسكرية (324) أن يضعف الخوارج وأن « يضبط افريقية » (325) ويحصن القيروان وطرابلس وطبنة (326) ، لكن لم يقدر له النجاح فى القضاء نهائيا على ثوراتهم بسبب ثورة الجند العربى عليه وطرده من الولاية (328) . وكان القتل من نصيب الاغلب بن سالم لعقده العزم على استئصال شأفة الخوارج ومهاجمتهم فى معاقلهم بتلمسان والمغرب الاقصى ، فقد ثار عليه جنده وقتلوه سنة 148 هـ (329) (765 م) وأعطوا بذلك الفرصة لاستفحال خطر ابن قرة الصفرى .

كما ارتبطت هزائم الخوارج بكفاءة الولاة واستقرار أحوال الجند الخلافى ، ولا يخفى ما بلغه عمر بن حفص من شجاعة ودهاء وحسن

---

(319) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(320) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 190 .
(321) الرقيق : صفحة 109 .
(322) ابن خلدون : ج 6 صفحة 111 .
(323) ابن الاثير : ج 5 صفحة 116 .
(324) الطبرى : ج 7 صفحة 459 ، Biquet : Op. Cit. P. 42
(325) ابن الاثير : ج 5 صفحة 118 .
(326) البكرى : ص 7 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(327) ابن عذارى : ج 1 ص 88 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(328) ابن الاثير : ج 5 ص 119 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بصيرة ، ولعل فى رحيله عن القيروان وتحصينه طبنة ما ينم عن ادراك واع لمكمن الخطر فى نشاط الخوارج وافلاته من حصار خوارج المغرب اباضية وصفرية اضاف الكثير الى قدراته الفذة وفى نهايته البطولية وموته وهو يقاتل الخوارج وحيدا ما جعل المؤرخين يطلقون عليه — بحق — لقب « هزار مرد » (330) . كما استطاع يزيد بن حاتم أن يتصدى لثورات الخوارج ، وبفضل كفايته ومقدرته « سكن الناس فى افريقية » (331) . واثمر هذا الهدوء فى عهد خلفه روح بن حاتم (332) . ثم قدم هرثمة بن اعين الى افريقية سنة 179 هـ (795 م) ليقضى على ما بقى للخوارج من رمق ، واعاد الحياة الآمنة الى بلاد المغرب (333) .

من ناحية اخرى — استفاد الخوارج من اخطاء عمال الخلافة بالمغرب ، وكانوا يتخيرون الوقت للخروج اعتمادا على تلك الاخطاء . فقد خرج ميسرة فى الوقت الذى كان فيه جيش ابن الحبحاب فى صقلية ، كما امتدت ثورات الخوارج وانتشرت ابان الازمات التى اصابت الخلافة فى الشرق او اثناء الفتن القبلية بين الجند العربى قيسية ويمنية كالخصومة التى وقعت بين حبيب بن ابى عبيدة اليمنى وبينكلثوم بن عياض القيسى ، او الصراع بين الجند العربى فى افريقية وبين العناصر الفارسية والخراسانية فى عهد ابن الاشعث والاغلب بن سالم . يضاف الى ذلك الصراع حول الولاية بين عبد الرحمن بن حبيب وبين حنظلة بن صفوان ، ثم الصراع الدموى داخل اسرة بنى حبيب ، فسنحت للخوارج الفرصة لتحقيق انتصاراتهم التى اشرنا اليها .

كما تميزت حركات الخوارج فى المغرب بالشمول وسعة الانتشار . وذلك بفضل الثورة الاولى التى قادها ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (739 م) ، فقد كانت نموذجا اقتفاه ثوار المغرب الاوسط والادنى من الصفرية والاباضية على السواء (334) . وجدير بالذكر أن هذا الطابع المنظم لحركات الخوارج ساعد على انتشارها فى سائر ربوع المغرب فى

---

(329) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ، السلاوى : ج 1 ص 116 ، Muir : Op. Cit. P. 481.

(330) وتعنى بالفارسية « الف رجل » كتابة على شجاعته النادرة .

(331) ابن الاثير : ج 5 ص 4 .

(332) نفس المصدر ص 38 ، ابن خلدون : ج 5 ص 194 ، Biquet : Op. Cit. P. 44

(333) ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، السلاوى : ج 1 ص 121 .

(334) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 14 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقت واحد ، فما أن تظهر الثورة فى ناحية حتى يمتد أثرها الى ما عداها من أقاليم المغرب فتجتاح البلاد من مشرقها الى مغربها (335) .

كما اشتهر الخوارج فى حروبهم بالشجاعة والاستبسال شأنهم فى ذلك شأن الخوارج فى الشرق « فكانوا يحلقون الرءوس وترتفع أصواتهم بالتحكيم » (336) اذكاء للحماس الذى عوضهم عن نقص السلاح .

لقد كان العرب يعتمدون فى خططهم على الفرسان بينما كانت جيوش الخوارج فى الغالب من الرجالة ، ومع ذلك ابتكر الخوارج من الوسائل ما كانوا يرهبون بها خيل العرب وفرسانهم ، فيوقفون تقدمهم برميها « بالأوضاف (337) وهى الجلود اليابسة فيها الحجارة » (338) . كما كانوا يعتمدون الى « الرمك الصعبة فيعلقون فى أذنابها القرب والانطاع اليابسة ويوجهونها نحو الخيل فتنفر » (339) .

والى جانب الحماس والشجاعة تميزت ثوراتهم فى كثير من الاحيان بالتنظيم المحكم الدقيق . وحسبنا أن انتصارات ميسرة جاءت نتيجة اعداد وتخطيط ، فكانت جيوشه تهاجم معاقل العرب فى وقت واحد (340) ، كما نجح خلفه خالد بن حميد الزناتى فى تطويق الجيش العربى رغم ضخامته وايقاعه فى « كمين البربر » (341) ، وحصار القيروان من ناحيتين من قبل عكاشة النفزاوى وعبد الواحد الهوارى فى محاولة للاطباق عليها (342) كان نتيجة تدبير محكم بين القائدين الصفريين ، ولم يحل دون نجاحهما الا فطنة حنظلة بن صفوان لخطتهما وافسادها . ومن أسباب نجاح عاصم بن جميل فى الاستيلاء على القيروان براعته فى ايهام أهلها بأنه يوالى الخليفة المنصور (343) . وكان انسحاب أبو قرة الصفرى أمام جيوش الاغلب ابن سالم تخطيطا ذكيا لجره الى اقاصى المغرب فى بلاد كان سكانها من

---

(335) مجهول : اخبار مجموعة ص 29 ، ابن عذارى ج 1 ص 88 .
(336) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(337) ابن عبد الحكم صفحة 295 .
(338) اخبار مجموعة صفحة 33 .
(339) نفس المصدر والصحيفة .
(340) اخبار مجموعة ، صفحة 29 .
(341) ابن الاثير : ج 5 صفحة 69 .
(342) نفس المصدر : صفحة 70 .
(343) نفس المصدر : صفحة 117 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخوارج الصفرية حتى يضمن القضاء عليها جميعا (344) . وتفيض المصادر الاباضية بالكثير عن خطط الاباضية فى اعداد الجيوش ومباغتة الخصوم اعتمادا على وسائل التمويه والخداع . ومن أمثلة ذلك سياسة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمح فى اعداد جيوشه خارج طرابلس ثم دخوله المدينة وجنوده « مستترين فى جواليق يحملها الجمال » والاستيلاء عليها فى غفلة من اهلها (345) على غرار ما هو مشهور عن حرب طروادة. الا أن أبا الخطاب ذاته كان ضحية حيلة دبرها ابن الاشعث تمكن بواسطتها من هزيمة الاباضية ، على الرغم مما تسوقه المصادر الاباضية من حجج تدلل بها على فطنة القائد الاباضى لحيلة ابن الاشعث (346) .

وفضلا عن ذلك فقد اتسمت حركات الخوارج فى المغرب بالاصرار المستميت على البقاء رغم ما حل بهم من نكبات وخاصة فى عهدى المنصور والرشيد ، وحسبنا فى هذا الصدد مذابح ابن الاشعث فى الاباضية ، وما لاقاه الاباضية والصفرية على السواء فى المجازر التى قام بها يزيد بن حاتم وعماله .

حقيقة أن هذه الضربات أوهنت حركات الخوارج وفتت فى عضدها ، لكنها لم تقض عليها قضاء تاما ، فكان الخوارج عقب تلك المحن يدأبون على اعادة التنظيم ولم الشمل سرا بزعامة من سموه « بامام الدفاع »(347)، فاذا ما انسوا من انفسهم قوة عاودوا الخروج واعلنوا الثورة على الولاة ، وهذا يفسر استمرار هذه الثورات قرابة نصف قرن ، فلم تخب نارها حتى حققت أهدافها وقامت للخوارج دول ببلاد المغرب ذات طابع استقلالى قومى .

ويتضح هذا الطابع القومى بشكل ظاهر فى قيادة ثورات الخوارج فباستثناء ابى الخطاب المعافرى ـ الذىكان من أصل عربى ـ تصدرتثورات الخوارج قيادات من البربر بترا وبرانس ، فميسرة من مطغرة ، وخالد بن حميد الزناتى من زناتة ، وعكاشة بن أيوب من نفزاوة ، وعبد الواحد

---

(344) ابن خلدون : ج 6 صفحة 112 .
(345) ابو زكريا : ورقة 7 .
(346) نفس المصدر ورقة 10 ، الشماخى : السير ص 132 .
(347) الشماخى : صفحة 133 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهوارى من هوارة ، وعاصم بن جميل من ورفجومة ، وأبو قرة من مغيلة وكلهم من زعماء الصفرية . أما زعماء الاباضية ، فقد كان عبد الله بن مسعود التجيبى من هوارة ، وكذلك كان الحارث وعبد الجبار ، ومن نفوسة تولى اسماعيل بن زياد ، وكان أبو حاتم الملزوزى من هوارة . ولا شك أن تصدر هذه الزعامات لثورات الخوارج فى بلاد المغرب تعبير حى عن شخصية المغرب الاسلامى المستقلة وتجسيد لدوره الاسلامى بعد اعتناق البربر مبادىء الخوارج .

هذا ، ولم تسلم حركات الخوارج من نقائص وسلبيات ، ولعل أهمها انه لم يكن هناك ثمة تعاون بين فرقتى الصفرية والاباضية ، وهى آفة موروثة عن خوارج المشرق . ولا نعتقد أنها كانت فى المغرب من جراء التجمعات القبلية التى اعتمد عليها كل فريق ، ذلك أن المذهبين الاباضى والصفرى انتشرا بين البربر واعتنقت بعض بطون القبيلة الواحدة المذهب الصفرى فى حين اعتنق بعضها الآخر المذهب الاباضى كما هو الحال بالنسبة لزناتة وهوارة . انما كان عدم التعاون مرده الى الخلاف الجوهرى بين عقائد كلتى الفرقتين وهو خلاف يحول دون التقائهما فلم يكن قدوم داعيتى الفرقتين الى المغرب على ظهر بعير واحد يعنى تعاونا مشتركا أو توحيدا للجهود كما توهم البعض — وخاصة ابن خلدون — ممن خلطوا بين نشاط الاباضية والصفرية فى المغرب ، بل اتخذت الفرقتان اتجاها مغايرا ، فبينما اتجه الاباضية الى الأقاليم الشرقية من بلاد المغرب ، يمم الصفرية وجههم شطر الاجزاء الوسطى والقصوى منه . واذا كانت بطون زناتة المنتشرة فى سائر جهات المغرب قسمة بين الفرقتين ، فلم يقدر لها أن تكون همزة الوصل بينهما ، بل لا نبالغ اذا قلنا أن اباضية زناتة كانوا معول هدم فى حركات الاباضية ، وحسبنا دورهم المخرب فى ثورة أبى الخطاب المعافرى (348) . وليس من شك فى أن ما حدث من صراع بين الاباضية والصفرية على القيروان سنة 140 هـ (757 م) كان من أهم أسباب اضعافهما ووقوعهما لقمة سائغة لجيوش ابن الاشعث فرقة بعد أخرى . وما يروى عن تعاون بينهما فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) أمر مشكوك فى صحته .

ومن عيوب خوارج المغرب أيضا ما حدث من خلافات وانشقاقات

---

(348) ابن عذارى : ج 1 صفحة 83 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

داخل كل من الفرقتين ، ويخيل الينا أنها كانت من ميراث المشاحنات القبلية التقليدية التى عرفها تاريخ المغرب فمثلا نعتقد أن الخلاف على ميسرة واقصائه عن زعامة الصفرية وتولية خالد بن حميد الزناتى بدلا منه ، كان محاولة من زناتة لتزعم الحركة ، واقصاء مطغرة عن مركز الصدارة كان بسبب تلك النزعة الزناتية (349) . ومن المؤكد أن برغواطة اعتزلت النشاط الصفرى واتخذت عقائدها طابع التطرف من جراء ما حل بحليفها ميسرة المطغرى من اهمال ونكران (350) . وكذلك كان شأن الاباضية ، دب بينهم الخلاف والشقاق ، وقد سبقت الاشارة الى دور زناتة فى تصدع حركة أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح وتخليها عنه فى وقت عصيب لاسباب قبلية كامنة فى التنافس بينها وبين هوارة . كما تخلى بعض رجال نفوسة (351) ومليلة (352) عن أبى حاتم الملزوزى وانضموا الى يزيد بن حاتم ، فأدى ذلك الى هزيمة الاباضية سنة 154 هـ (770 م) .

ويعاب على خوارج المغرب كذلك سطحية الفهم لمبادىء المذهب ، واسرافهم فى تطبيق تعاليمه . لقد حضت مبادىء الخوارج على الثورة على ائمة الجور (353) ، لكن خوارج المغرب أعلنوا الثورة فى كثير من الاحيان على الحكام العرب بغض النظر عن تعديهم وظلمهم أو عدلهم ونزاهتهم ، فلا شك أن بلاد المغرب حكمها ولاة مستنيرون دأبوا على الاصلاح من أمثال عمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، لكن ثورات الخوارج استهدفت الحكم العربى عموما ، فلم يسلم هؤلاء الولاة من خطر الخوارج . كما أسرف الصفرية بوجه خاص فى استخدام العنف والقسوة فكانوا يقتلون الاطفال ويسبون النساء انطلاقا من تطرف المذهب الصفرى فى معاملة الخصوم .

وآفة ثورات الخوارج عموما فى المغرب عدم اتصالها وتنسيقها مع حركاتهم فى الشرق ، ولو أحكم مثل هذا الاتصال لكانت نتائجها أكثر نجاحا ، ولما قدر للخلافة أن تصفى نشاط خوارج الشرق بمثل السهولة التى

---

(349) اليعقوبى : البلدان : صفحة 359 .

(350) عبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ، Marcais : La Berberie Musulmane. P. 48.

(351) ابو زكريا : ورقة 13 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 .

(352) ابو زكريا : ورقة 12 ، الشماخى : السير ص 136 .

(353) البغدادى : الفرق بين الفرق 273 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمت بها (354) .

ومع ذلك كانت لثورات الخوارج آثار واضحة فى تاريخ المغرب ، ذلك أن هذه الثورات احتوت سائر قبائل البربر بترا وبرانس ، ولم تكن حكرا على قبيلة زناتة كما يذهب جوتييه الذى نظر الى ثورات الخوارج على انها ثورات زناتة دون سواها ، الامر الذى جعلنا نقف عند رايه هذا محاولين أن نناقشه متبينين ما فيه من خطأ أو اسراف .

يقول جوتييه « ما هى مراكز الثورات ؟ وما هى القبيلة التى رفعت العلم الذى تركه كسيلة والكاهنة منكسا ، لقد اختلف المؤرخون العرب كعادتهم حول هذا الامر **وان أجمع معظمهم فى اقتضاب على ذلك الشىء الواضح للعيان ، على زناتة** . لقد قامت الثورة بادىء الامر فى طنجة ، وما لبثت أن وصلت الاندلس على التو .. ثم انتشرت على طول الطريق من طنجة الى القيروان .. انتهت الثورة الاولى بمعركة الاشراف على وادى شلف ، والثانية على وادى سبو والثالثة فى القرن على مشارف القيروان ، أما الرابعة فقد وقعت فى الشرق بنواحى طرابلس .. وهذا يعنى أن الاحداث البارزة فى الفترة ما بين عامى 743 ، 752 م (125 ، 135 هـ) تركزت حول طرابلس وتونس وتلمسان . أما تلك التى وقعت فى عامى 757 ، 758 م (140 ، 141 هـ) فكانت القيروان ميدانها حين وقعت فريسة لورفجومة الصفرية . وقد تمثل رد الفعل العربى فى حملة ابن الاشعث الذى هزم الخوارج فى سرت واسترد القيروان لكنه اخفق فى اقصاء الخوارج عن تلمسان التى كانت مركزا لحركة أبى قرة اليفرنى سنة 765 م (148 هـ) .

ثم استرد الخوارج طرابلس مرة اخرى ، ونصبوا الحصار حول القيروان . ويجمع المؤرخون على حصارهم طبنة سنة 770 م (153 هـ) ثم القيروان حيث صرع عمر بن حفص سنة 771 م (154 هـ) أثناء الحصار.

---

(354) من اهم حركات الاباضية فى الشرق والمعاصرة لثوراتهم فى المغرب حركة أبى حمزة وطالب الحق باليمن وحضر موت ، وقد تم القضاء عليها سنة 134 هـ وكذلك حركة الجلندى بعمان التى قمعت فى نفس العام . انظر ابن الاثير ج 5 ص 145 ، 169 . أما حركات الصفرية فاشهرها ثورة شيبان الحرورى بالموصل التى اخمدت سنة 130 هـ ابن الاثير : ج 5 ص 132 . وحركة شيبان بن عبد العزيز سنة 134 هـ ، وقد قتل على يد الجلندى الاباضى حين لجأ اليه هربا من العباسيين : انظر ابن الاثير : ج 5 ص 169 وحركة ملبد بن حرملة الصفرى سنة 137 هـ ، وقد قتل فى عهد المنصور سنة 138 هـ . راجع : ابن الاثير : ج 5 ص 180 ، 181 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتمثل رد الفعل العربى فى حملة يزيد بن حاتم وجهوده غربى القيروان فى الاربس وطبنة والزاب . وبعد ذلك حلت فترة سلام امتدت بين عامى 771 ، 778 م (154 ، 170 هـ) . **وعلى ذلك فان ثورات الخوارج قد شغلت النصف الاخير من القرن الثامن الميلادى . .**

فما هو اذن الميدان الذى دارت فيه تلك الاحداث التاريخية ؟ لقد دارت فى طنجة ووادى سبو وتلمسان ووادى شلف وهدنة وجنوب تونس وطرابلس ، وكلها تقع فى سلسلة السهول والهضاب العالية التى تقطنها زناتة . . لقد كانت روح زناتة اذن هى الدافع وراء هذه الاحداث . وليكن معلوما ان هذا الزلزال العظيم الذى اجتاح بلاد المغرب كان يحركه — ضمن عوامل اخرى — عامل مغربى خالص ظهر على الاقل فى الثورات الاولى التى قامت فى طنجة . ويجب الا يغيب عن البال أن حركات الخوارج انطوت على عناصر تنتمى الى عالم الليفانت (يقصد الفرس والخراسانيين والعرب) . . وعلى الرغم من اسهام بعض القبائل كصنهاجة وكتامة فى ثورات الخوارج ، فمما لا شك فيه أن الزعامة فى هذه الحركات كانت دائما لزناتة . . **وعلى ذلك نسلم بداهة بأن ثورات الخوارج فى المغرب ما هى الا ثورة زناتة** ، وان الدور الذى لعبته فى هذا الصدد هو أولى ادوارها على مسرح التاريخ المغربى » (355) .

ويخيل الينا أن مكمن الخطأ فى رأى جوتييه هو نظرته الى المناطق التى شهدت المعارك الكبرى بين الخوارج والعرب على انها مواطن قبيلة زناتة دون أن يفطن الى أمرين : أولهما ، أن مواطن القبائل البدوية لم تكن ثابتة ثبوتا قاطعا ، فهى دائمة الترحال والانتقال بقطعانها وراء المراعى ومواطن الكلا . وثانيهما ، أن قبيلة زناتة كانت منتشرة فى بلاد المغرب من أدناها الى أقصاها مختلطة بغيرها من القبائل ، فمواطنها كما يقول ابن خلدون (356) « فى سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب ، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى ، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحى افريقية وبجبل أوراس ، والاكثر منهم بالمغرب الاوسط، ومنهم بالمغرب الاقصى أمم أخرى » . فالمعارك الكبرى اذن لم تقع فى مواطن زناتة وحدها انما فى « سائر مواطن البربر » .

---

(355) راجع : Gautier : Les Siecles obscurs du Maghreb. P.P. 264 - 269.

(356) العبر : ج 7 صفحة 2 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم أن جوتييه بنى رايه على اساس أن المؤرخين العرب القدامى ذكروا أن زناتة وحدها تزعمت ثورات الخوارج وساعدت على قيامها . والحقيقة أننا لم نجد مؤرخا واحدا يشير الى مثل هذا الامر البتة . بل نجد عندهم من الاشارات ما يدلل على عكس ذلك ، فابن خلدون (351) مثلا يقول عن ثورات الخوارج فى عهد عبد الرحمن بن حبيب « . . فاستشرى داء البربر ، واعضل أمر الخارجية ورؤسها . فانتفضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الامر بكل ما كان داعين الى بدعتهم ، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة » .

ويكفى أن نشير الى ثورات الخوارج لنتبين هذا الاسراف فى القول . فأولى الثورات فى بلاد المغرب سنة 121 هـ (739 م) قامت بزعامة مطغرة أول الامر ، ثم تصدت زناتة بعد ذلك لقيادتها حين أقصى ميسرة وحل خالد ابن حميد الزناتى محله فى زعامة الثورة . واذا كانت زناتة قد برزت فى هذه الحركة فذلك لا يعنى انها كانت وقفا عليها ، بل ساهمت فيها قبائل المغرب الاقصى برمتها ، وهذا يفسر قول ابن الاثير (358) بأنها « شملت المسلمين والكفار » .

واذا كانت زناتة قد تزعمت هذه الثورة فى مرحلتها الاخيرة فان صوتها قد خفت بعد ذلك ، ثم عادت الى الظهور فى حركة أبى قرة الصفرى . أما الثورة الصفرية الثانية التى تزعمها عكاشة بن أيوب النفزاوى وعبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ (742 م) فقد لعبت هوارة ونفزة (359) دور الصدارة فيها ، واشتركت فيها زناتة كحليف لعبد الواحد الهوارى (360). أما ثالث ثورات الصفرية التى مكنت الصفرية من القيروان سنة 139 هـ (756 م) ، فقد قامت على أكتاف قبيلة نفزة بصفة عامة ورفجومة بصفة خاصة (361) ولم نسمع عن صوت لزناتة فى ثورات الصفرية فى اقليم الزاب ، فقد كانت مقصورة على قبيلتى نفزة وهوارة (362) .

ولم يكن لزناتة دور يذكر فى ثورات الاباضية ، فقد كانت الزعامة

---

(357) العبر ج 6 صفحة 111 .
(358) الكامل ج 5 صفحة 70 .
(359) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .
(360) ابن عبد الحكم : نفس المصدر والقيمة .
(361) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .
(362) ابن خلدون : ج 2 ص 193 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها لهوارة (363) . فحركة عبد الله بن مسعود التجيبى سنة 126 هـ (744 م) وثورة الحارث وعبد الجبار التى استمرت حتى عام 131 هـ (749 م) كانتا حكرا على اباضية هوارة فى أحواز طرابلس (364) . بينما تزعمت نفوسة الحركة التالية بزعامة اسماعيل بن زياد النفوسى سنة 132 هـ (750 م) (365) . ولا نجد لزناتة ذكرا الا فى حركة أبى الخطاب المعافرى سنة 140 هـ (757 م) وهى حركة كانت هوارة مركز ثقلها بينما لعبت زناتة فيها دورا غير مشرف (366) . وثورة الاباضية العظمى التى قام بها أبو حاتم الملزوزى كانت ثورة هوارة أيضا ، وكان أبو حاتم نفسه من مليلة وهى بطن من بطونها (367) ، وظلت هوارة وحدها قائدة للحركات الاباضية التى قامت فى سنتى 156 هـ (368) (773 م) و 180 هـ (796 م) (369) فى المغرب الادنى الى جانب ثورة نفزة بباجة التى قمعها داود بن حاتم (370) .

فصارى القول ـ أن زناتة اسهمت فى ثورات الخوارج الصفرية مع غيرها من القبائل ، وكانت القيادة فى هذه الثورات متداولة بين مطغرة وزناتة ونفزة وهوارة ومغيلة على التوالى . بينما يعتبر اسهامها فى حركات الاباضية ضئيلا للغاية ، فقد تصدرت هوارة دون منازع هذه الحركات من البداية حتى النهاية .

ومهما يكن من أمر فقد اسفرت ثورات الخوارج عن قيام دولتين ببلاد المغرب احداهما للصفرية سنة 140 هـ (757 م) ومركزها سجلماسة والاخرى للاباضية وعاصمتها تاهرت سنة 161 هـ (778 م) ، وكذلك كان قيام دولة الاغالبة فى افريقية سنة 184 هـ (800 م) بمثابة رد الفعل العربى لقيام دول من البربر ، فقد حرص الرشيد على ضمان استمرار نفوذ الخلافة فى افريقية حتى ولو كان هذا النفوذ اسميا ، ومن ثم فقد أقر قيام الامارة الاغلبية لتحول دون زوال هذا النفوذ ولتقف حاجزا امام خطر الدولة الادريسية العلوية والدولتين الخارجيتين المدرارية والرستمية .

---

(363) نفس المصدر ج 6 ص 144 .
(364) ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 .
(365) نفس المصدر ص 302 .
(366) ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(367) ابو زكريا : ورقة 12 .
(368) ابن عذارى : ج 1 ص 94 .
(369) ابن الاثير : ج 5 ص 46 .
(370) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الثالث

دول الخوارج في بلاد المغرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كللت ثورات الخوارج الصفرية بالنجاح فى المغرب الاقصى على يد ميسرة وخليفته خالد بن حميد الزناتى ، كما نجح الخوارج الاباضية فى بسط نفوذهم على المغرب الأدنى بعد قيام « امامة الظهور » على يد ابى الخطاب المعافرى سنة 139 هـ (756 م) . غير أن نشاط الخوارج لازمه الفشل حين رنوا بأبصارهم صوب افريقية لسببين رئيسيين ، أولهما : التنافس بين الصفرية والاباضية على امتلاك القيروان واندلاع الحرب بينهما سنة 140 هـ (757 م) ، الامر الذى اضعفهما معا ، فوقعوا لقمة سائغة لجيوش ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) . وتسبب هذا التنافس أيضا فى فشلهم فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، وأسفر اختلافهم عن تنكيل يزيد بن حاتم بهم جماعة فى اثر اخرى سنة 155 هـ (772 م) .

وثانيهما : صحوة الخلافة العباسية وحرصها على دعم نفوذها فى افريقية بانفاذ الحملات المتتابعة التى عهد بقيادتها الى قواد اكفاء من أمثال ابن الاشعث والاغلب بن سالم وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم .

ولذلك استحال استمرار نشاط الخوارج فى افريقية وخاصة بعد قيام حكم آل المهلب الاقوياء فى القيروان وعدم توانيهم عن ملاحقة حركاتهم ومناهضتها . عندئذ اتخذت حركات الخوارج طابعا عمليا (1) ، فعزفوا عن مناطق النفوذ العربى نهائيا واتجهوا الى المناطق الصحراوية النائية بالمغربين الاقصى والاوسط حيث عول الصفرية على اقامة دولة فى جنوبى المغرب الاقصى معقل الخوارج الصفرية كانت سجلماسة عاصمة لها . بينما آثر الاباضية اقامة دولتهم بالمغرب الاوسط حيث تضرب كثير من القبائل التى تدين بالمذهب الاباضى مثل زناتة ولماية وهوارة ولواتة وسدراتة

---

(1) Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وغيرها (2) . واتخذوا من مدينة تاهرت عاصمة لها .

والواقع ان ظهور دولتى الخوارج يمثل نقلة هامة فى تاريخ الخوارج وتاريخ المغرب على السواء . فقد توجت دعوتهم فى بلاد المغرب بتحقيق اهدافها فى اقامة دولة خارجية (3) بعد ان فشلوا فى تحقيق ذلك بالمشرق واتاح ذلك لهم أن ينعموا بالاستقرار السياسى بعد حروب استمرت ما يقرب من نصف قرن من الزمان . ومن ناحية أخرى فان قيام دولتى الخوارج كان بمثابة تعبير عن روح القومية والاستقلال عند المغاربة . فضلا عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى شهدتها بلاد المغرب وهو ما سندرسه فيما بعد مفصلا .

---

(2) النفوسى : صفحة 4 .
(3) ابو زكريا : ورقة 13 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولا :

دولة بنى مدرار الصفرية

أ ـ قيام دولة بني مدرار

كان الخوارج الصفرية سباقين الى انشاء دولتهم فى سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) ، كما كانت لهم الاسبقية من قبل فى المبادرة بالثورة سنة 121 هـ (739 م) . غير أن المؤرخين الغربيين (4) درجوا على التقليل من شأن هذه الدولة فاعتبروها مجرد دويلة لا يعتد بدورها فى تاريخ بلاد المغرب . ويخيل الينا أن الباعث على ذلك يكمن فى أمرين أساسيين ، أولهما : أن دولة بنى مدرار كانت دولة داخلية صحراوية لم تسهم بدور مباشر فى التيارات السياسية العالمية ـ كدولة الاغالبة المعاصرة لها على سبيل المثال ـ واقتصر نشاطها على المشاركة فى حركة التجارة عبر الصحراء شمالا وجنوبا .

وثانيهما: ندرة المعلومات عن هذه الدولة بدرجة جعلت المؤرخين يحجمون عن التاريخ لها ، فظل تاريخها يلفه الغموض والابهام (5) .

وعلى كل حال ـ استطاع الخوارج الصفرية فى سنة 140 هـ (757 م) أن يستنفذوا من اضطراب الاحوال فى افريقية ويقيموا دولتهم

---

(4) انظر : Gautier : Op. Cit. P. 292, Biquet : Op. Cit. P. 47

(5) انظر المقدمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى سجلماسة على وادى ملوية (6) ، فعمال الخلافة فى المغرب شغلوا آنذاك عن الاقاليم الغربية والجنوبية بتدعيم نفوذها فى المغرب الادنى وافريقية (7) ، فوجد الصفرية فى ذلك فرصة مواتية لتأسيس دولتهم فى مأمن من نقمة الخلافة وعمالها .

وينم اختيارهم اقليم تافيلالت بأقصى الصحراء الكبرى عن حكمة وذكاء ، ذلك ان هذا الاقليم النائى من بلاد المغرب يمثل نهاية العمران من ناحية الجنوب والغرب (8) والطريق اليه غاية فى الوعورة اذ يمتد خلال متاهات من القفار والرمال ، ولذلك فهو فى حماية طبيعية أتاحت لبربر مكناسة ان يتخذوا من قصبته سجلماسة (9) عاصمة لهم .

ومكناسة هى العصبية التى ارتكزت عليها دولة بنى مدرار (10) وليست زناتة او نفوسة (11) ، ومواطنها على وادى ملوية (12) — حيث تقع سجلماسة فى اعلاه — هذا الوادى يصب فى البحر المتوسط ، وكذلك تقطن بعض بطونها فى نواحى تازا وتسول بالمغرب الاقصى (13) . وبربر مكناسة من البتر وبطونهم كثيرة منها « صولات وبوحات وبنو ورفلاس وقيصارة وورقطنة وورصطف » (14) وكلهم من سكان الصحراء (15) .

واسهمت عناصر اخرى غير مكناسة فى قيام الدولة ، ولعل من ابرزها بربر صنهاجة وزويلة وزناتة وزنوج السودان واهل الربض الاندلسيين ، ويفهم هذا من قول اليعقوبى (16) بأن عناصر شتى استقرت

---

(6) البكرى صفحة 149 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 243.

(7) ابن عذارى : ج 1 صفحة 73 ، Bel : Op. Cit. P. 95.

(8) البكرى : ص 148 ، الاستبصار ص 200 ، القلقشندى : ج 5 ص 163 .

(9) الاصطخرى : المسالك والممالك ص 34 ،
Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 143.
كولين : مادة سجلماسة — دائرة المعارف الاسلامية ص 298 .
Gautier : Op. Cit. P. 292. Bel : Op. Cit. P. 167.

(10) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،

(11) انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 137 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 62 ، مؤنس : ثورات البربر ص 187 .

(12) وهو نهر زيز كما يسميه اليعقوبى . انظر : البلدان ص 359 ، كولين : المرجع السابق صفحة 298 .
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(13) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،

(14) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .

(15) نفس المصدر والصحيفة .

(16) البلدان : صفحة 359 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى سجلماسة ، فقبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولمتونة كانت تضرب فى أحواز سجلماسة على طول المفازة بينها وبين غانة السودانية (17) ويبدو أنهم كانوا من الكثرة بالمدينة حتى أن البكرى وصف سكانها بأنهم « كانوا يلتزمون النقاب»(18) . ونعلم أن عنصر السودان اسهم فى قيام دولة بنى مدرار، فكانت جماعات منهم تقيم باقليم تافيللت بعد اعتناقهم المذهب الصفرى على يد أبى القاسم سمكو بن واسول (19) . وحسبنا أن أول من تولى الامامة فى الدولة كان سودانيا يدعى عيسى بن يزيد الاسود .

وكان اشتغال بربر زويلة — ومواطنهم جنوبى سجلماسة — بالوساطة التجارية ومرافقه القوافل عبر المفاوز ما بين سجلماسة وبلاد السودان سببا فى اعتناقهم المذهب الصفرى ومشاركتهم صفرية تافيللت فى انشاء دولة بنى مدرار (20) .

وعلى الرغم من استبعاد الرواية القائلة بتأسيس ربض الاندلس مدينة سجلماسة وأن أول ائمة الدولة كان منهم (21) ، فلا شك فى انهم قاموا بدور واضح فى تدعيم الدولة بعد نزول اعداد غفيرة منهم بسجلماسة واعتناقهم المذهب الصفرى (22) ، وخاصة فيما يتعلق بالنواحى المهنية والعمرانية .

على أن الفضل يعزى الى مكناسة فى جمع شمل هذه العناصر جميعا فى نظام سياسى واحد بعد أن كانت تضرب فى اقليم تافيللت دونما صلة أو رباط يجمعها (23) ، فتمكن زعيمها أبو القاسم سمكو بن واسول من تجميعها حول المذهب الصفرى وضمها فى كيان واحد . ويعزى دور مكناسة القيادى هذا الى أسبقيتها فى اعتناق المذهب الصفرى ، فقد وصلها فى وقت مبكر اذ تلقاه المكناسيون « عن ائمتهم ورؤسهم من المغرب » (24) فكان زعيمهم أبو القاسم سمكو على صلة بعكرمة منذ وصوله الى القيروان، وهو من اشهر دعاة الصفرية فى بلاد المغرب على الاطلاق . وبعد نشره

---

(17) مجهول : الاستبصار ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 231 .
(18) المغرب صفحة 148 .
(19) نفسه : صفحة 149 .
(20) الاصطخرى : ص 34 ، الاستبصار ص 201 ، المقدسى : احسن التقاسيم ص 231 .
(21) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(22) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 80 .
(23) النفوسى : الازهار الرياضية ج 2 ص 93 .
(24) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المذهب بين قومه من مكناسة ، عكف على بثه بين سكان اقليم تافيللت ، وهذا يخالف قول صاحب الأزهار الرياضية (25) بأن المذهب الصفرى انتقل الى مكناسة عن طريق أهل تافيللت فى وقت متأخر أثناء شروعهم فى اقامة دولة بنى مدرار . اذ الثابت ان بربر مكناسة وزعيمهم ابى القاسم سمكو اشتركوا فى ثورة ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (26) (739 م) .

ولم نقف على دور لابى القاسم فى ثورات الصفرية بعد ميسرة ، ويبدو أن سيطرة زناتة على الحركة ، وتولى من هم اقل منه مكانة وسابقة فى المذهب زعامتها ، جعله يعزف عن المشاركة فيها ، أو لعله زهد فى اسلوب الثورة وآثر الانقطاع لنشر المذهب فى الاصقاع الجنوبية تمهيدا لانشاء دولة للصفرية هناك ، فتوجه الى تافيللت حيث تضرب جماعات من السودان وبعض بطون صنهاجة وهم غالبية سكانها (27) . وجدير بالذكر ان هذه الجماعات « كانوا أهل بادية وحواضر وحراثات » (28) ، فكانوا يعملون بالرعى والزراعة (29) الى جانب التجارة (30) كما عرفوا بالتدين وحب العلم والرغبة فى طلبه الى جانب شدة البأس والنجدة وقوة العريكة ، « فهم أهل علم وسلاح » (31) . لذلك وجد فيهم أبو القاسم سمكو — الملقب بمدرار (32) — ضالته المنشودة ، فكانوا اعونا له على انشاء الدولة التى نسبت اليه .

نزل ابو القاسم أرض تافيللت سنة 138 هـ (33) (755 م) واشتغل

---

(25) النفوسى : صفحة 93 .
(26) ابن خلدون ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292.
(27) اليعقوبى : البلدان صفحة 359 .
(28) اسماعيل حامد (جامع) : نبذة فى تاريخ الصحراء القصوى ص 7 .
(29) نفسه : صفحة 3 .
(30) مجهول : الاستبصار صفحة 200 .
(31) اسماعيل حامد : المرجع السابق ص 7 .
(32) نرجح أن مدرارا كان لقب ابى القاسم كما يذهب ابن الخطيب ، وليس اسم جده كما اعتقد ابن عذارى ، أو اسمه هو حسبما ذكر صاحب كتاب الاستبصار ونجد فى رواية اخرى لابن الخطيب خلطا بين شخص ابى القاسم سمكو وبين عيسى بن يزيد ، فينسب دور ابى القاسم الى عيسى ولا يورد للاول ذكرا . أما البكرى فينسب الفضل فى قيام الدولة المدرارية الى جهود ابى القاسم لكنه يشير الى لقبه . وجدير بالذكر أن رواية البكرى عن دولة بنى مدرار أصح الروايات واكثرها صدقا ، وقد أخذ بها كبار الدارسين مثل فورنل ومرسييه . انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 138 ، 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، البكرى : ص 149 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique : P. 243.
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.
(33) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 138 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالرعى واخذ يتصل بغيره من الرعاة الذين كانوا ينتجعون بقطعانهم موضع سجلماسة ، ويعلمهم أصول المذهب الصفرى (34) ، واصبحت خيمة أبى القاسم بمثابة مجمع يلتقى به انصاره (35) . ولما اشتد ساعده وكثر أتباعه نصبوا خيامهم الى جواره (36) ويذهب بعض المؤرخين (37) الى أن أبا القاسم شرع فى اعلان قيام دولته سنة 140 هـ (757 م) لما بلغ عدد أنصاره أربعين رجلا ، « فعندئذ بايع بالامامة عيسى بن يزيد الاسود وحمل قومه من مكناسة على طاعته » .

على كل حال — كانت مبايعة عيسى بن يزيد الاسود بالامامة (38) وهو من موالى العرب (39) — وانصياع صفرية مكناسة لبيعته بعد أن حملهم أبو القاسم على الاعتراف بامامته (40) ، تطبيقا عمليا لرأى الخوارج فى الامامة .ولما كان عيسى بن يزيد الاسود لا يرقى الى منزلة أبى القاسم سمكو من حيث السابقة فى المذهب او الافضلية فى العلم ، فان اختياره

---

(34) لا اعتبار لما يقال عن أن أبا القاسم كان اباضيا (الازهار الرياضية ج 2 ص 93) او انه كان اباضيا صفريا كما ذهب ابن خلدون (العبر ج 6 ص 130) . فنحن نعلم أن أبا القاسم كان من دعاة عكرمة مولى ابن عباس و « مقدم الصفرية » انظر : بروفنسال : نبذ تاريخية ص 48 ، الشطيبى : الجمان ورقة 203 .

(35) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(36) البكرى : ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(37) نفس المصدرين والصفحتين ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(38) النفوسى : صفحة 93 .

(39) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .

(40) ينفى هذا ما ذهب اليه بل من التفاف برابر مكناسة حول عيسى بن يزيد ومبايعته طائعين مختارين . La religion Musulmane. P. 176. والواقع أن الفضل يعزى الى أبى القاسم سمكو فى تقديم عيسى بن يزيد ، ولعل ذلك كان سببا فيما درجت عليه بعض الروايات من الخلط بينهما ، اذ تذهب الى أن الذى تولى الامامة شخصا أسود يدعى مدرارا . وتزعم أنه كان حدادا قدم من الاندلس بعد موقعة الربض . انظر :البكرى : ص 149 ، الاستبصار ص 201 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.

ومن المعروف أن اهل الربض رحلوا عن قرطبة سنة 198 هـ بينما قامت دولة مدرار سنة 140 هـ . انظر : ابن خلدون ج 4 ص 126 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.

ومع ما تنطوى عليه تلك الرواية من أخطاء فلا شك فى اهمية مغزاها لما تبرزه من نزوح اعداد غفيرة من الاندلسيين بعد حادث الربض الشهير الى سجلماسة ، واستيطانهم بها — على غرار ما فعلوه بفاس — واسهامهم فى عمارتها واشتغالهم بالحرف والصناعات كالحدادة واعمال البناء وغيرها . انظر : ابن خلدون : ج 3 صفحة 126 ، Condé : Op. Cit. P. 262. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى صفحة 405) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للامامة يدل على ثقل وزن عنصر السودان ورجحانه على سائر العناصر الصفرية باقليم تافيللت . ومما يؤكد ذلك أن غالبية بربر مكناسة لم يكونوا قد انتقلوا بعد من مواطنهم الاولى ليستقروا فى اقليم تافيللت ، فلم يحدث هذا الا بعد اختطاط سجلماسة ، يؤيد ذلك قول ابن خلدون (42) « . . وبعد أن اختطوا سجلماسة سنة 140 هـ دخل سائر مكناسة من اهل تلك الناحيـــة فى دينهم » .

أجمع الصفرية اذن على مبايعة عيسى بن يزيد بالامامة (43) سنة 140 هـ (757 م) . وفى نفس السنة شرعوا فى اختطاط سجلماسة (44) لتكون حاضرة للدولة (45) . وقد أصبحت سجلماسة مركزا للامارة (46) ومقرا للمذهب الصفرى .

وقد حرص الصفرية على انشاء هذه العاصمة فى مكان حصين ، فأقاموها فى « موسطة الصحراء » (47) جنوبى تلمسان بعشرة مراحل ، وفى موضع التقاء فرعى نهر ملوية (48) . وأسس الصفرية حصنا فى وسط المدينة أسموه العسكر ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الامارة (49) . ثم اقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن (50) ، فاتسع العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية (51) . وقد أسهم فى بنائها معماريو الاندلس

---

(41) العبـر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(42) العبر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(43) لم يرد بالمصادر ذكر تقلد أمراء بنى مدرار الخلافة أو الامامة باعتبارهم رؤساء روحيين وسياسيين كما يفهم من لقب الامام أو الخليفة . ونعتقد أن سبب ذلك يمكن فى أن تواريخ الصفرية لم تصل الينا ، وكل ما وصلنا عنهم مستمد من المصادر المعادية لهم .. عن ألقاب الامامة والخلافة . انظر : حسن الباشا : الالقاب الاسلامية ص 60 .

(44) الثابت أن مدينة سجلماسة استحدثها بنو مدرار ولم يكن لها وجود من قبل على عكس ما قيل من أن الاسكندر ذو القرنين أسسها لتكون موطنا للعجزة والمرضى من جنوده ، فتلك رواية أسطورية ، وما ذكره الحسن الوزان من أن أحد قواد الرومان أسسها باسم Sigillm mese عقب احدى انتصاراته . انظـر : كولين : مـادة سجلماسـة ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ ص 298 .

(45) المقـدسى : صفحـة 219 .

(46) كان يتبع سجلماسة عدد من الحصون والمنازل والقرى كدرعة وتدانقوست وأثر ايلا وحصون النحاسين وهلال وغيرها . انظـر : اليعقـوبـى : البلـدان ص 359 ، المقـدسى : صفحـة 219 .

(47) المراكشى : المعجب صفحـة 357 .

(48) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(49) المقـدسى : صفحـة 231 .

(50) الاستبصـار : صفحـة 201 .

(51) الادريسـى : صفحـة 60 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فضلا عن اليهود الذين استقروا بها لاستغلال التبر (52) . كما أسس سورها سنة 208 هـ (823 م) فى عهد اليسع بن أبى القاسم ، وبه من الأبواب اثنتى عشر بابا (53) . « منها الباب القبلى والباب الغربى وباب غدير الجزارين وباب زناتة » (54) . ويصف ابن حوقل (55) — الذك زارها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى — أبنيتها بأنها « شاهقة كأبنية الكوفة » . لأنها بنيت بالصخر فبقيت قائمة عدة قرون حتى وصفها ابن مقديش (56) بأنها « مسنة » .

ولما كانت سجلماسة محصورة بين فرعى نهر ملوية ، فقد توفرت لها المياه . لهذا عمل عيسى بن يزيد على تنظيم الافادة منها ، فشق القنوات « وصرف الى كل ناحية قدرها من مائة » واستكثر من غرس النخيل (57) . وهذا يعنى أن تأسيس سجلماسة ارتبط به تحول فى حياة السكان من الرعى والبداوة الى الزراعة والاستقرار (58) ، ولا غرو فقد غدت سجلماسة مدينة النخيل والاعناب والفاكهة (59) . وقد أفاض الجغرافيون (60) والرحالة فى وصف غروسها التى غطت مساحة قدرها أربعين ميلا . والى جانب الفاكهة تنوعت المحاصيل « حسب زروع مصر فى الفلاحة » (61) مما حدا بالادريسى (62) الى أن يصف المدينة بأنها « كثيرة الخضر والنبات » . وبفضل هذه المنتجات المتعددة قدر لها أن تلعب دورا تجاريا هاما فى بلاد المغرب (63) والسودان حتى أضحى سكانها « سراة مياسير يباينون سائر أهل المغرب بالمخبر والمنظر » (64) .

ولا شك فى أن هذا الازدهار الاقتصادى الذى واكب انشاء سجلماسة

---

(52) الاستبصار صفحة 202 .
(53) نفس المصدر : صفحة 201 .
(54) المقدسى : صفحة 231 .
(55) المسالك والممالك . صفحة 65 .
(56) نزهة الانظار صفحة 11 .
(57) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 139 .
(58) الاستبصار : صفحة 201 . Juliene : Op. Cit. P. 339.
(59) البكرى : صفحة 148 .
(60) انظر : البكرى ص 148 ، ابن حوقل : ص 65 ، القلقشندى : ج 5 ص 164 .
(61) ابن حوقل : ص 65 ، سعيد بن مقديش : ص 10 .
(62) صفة المغرب ، صفحة 60 .
(63) نفس المصدر والصفحة .
(64) ابن حوقل : ص 65 ، القلقشندى : ج 5 ص 164 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ساعد على تدعيم دولة بنى مدرار ، فقد غدت قبلة للخوارج الصفرية فى بلاد المغرب بأسره . وقصدها جموع الصفرية من كل صوب لائذين هربا من انتقام ولاة بنى العباس من آل المهلب . وكان لذلك أثره فى تقوية الكيان السياسى لدولة كانت تعانى من نقص فى السكان (65) . كما أدت هـذه الهجرات بدورها الى نتائج سياسية غاية فى الأهمية فى التطور السياسى لدولة بنى مدرار ، اذ هجرت بقية بطون مكناسة مواطنها الأصلية ، واستقرت بالمدينة الجديدة ، وغدت أكثر العصبيات وأقواها ، واهلها ذلك للزعامة السياسية والتطلع لمنصب الامامة .

ثم انتقلت الامامة بالفعل الى أبى القاسم سمكو ، حين سخط صفرية مكناسة على الامام عيسى بن يزيد ونحوه ، وولوا زعيمهم أبا القاسم سمكو مكانه . وما يسوقه المؤرخون من أسباب فى هذا الصدد تتسـم بالابهام وتفتقر الى التحديد ، اذ ذكر بعضهم (66) «أنهم نقموا عليه كثيرا فى أحواله»

وثمة راى ثالث ساقه البكرى (68) . حيث قال أن « ابا الخطاب قال يوما لاصحابه فى مجلس عيسى ، السودان كلهم سراق حتى هذا ، واشار على عيسى . فأخذوه وشدوه وثاقا الى شجرة فى راس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض » . كما يذهب ابن الخطيب (69) الى ان الصفرية ـــ بعد قتل عيسى بن يزيد ـــ « ولو على أنفسهم أبا الخطاب الصفرى » . ويرجح الدكتور سعد زغلول عبدا لحميد (70) أن يكون أبو حاتم الاباضى أو عبد الرحمن بن رستم هو الذى أمر صفرية سجلماسة بعزل امامهم وقتله .

ولحق ـــ ان البكرى ومن أخذ عنه قد جانبهم التوفيق . وليس أدل على ذلك من أن مقتل عيسى بن يزيد حدث سنة 155 هـ (772 م) (71) اى بعد ان ظل اماما لمدة خمسة عشر عاما (72) ، بينما قتل ابو الخطاب المعافرى سنة 144 هـ (761 م) فى معركة تاورغا . كما أن المصادر الاباضية ـــ على وفرتها ـــ لم تشر الى مثل هذا الامر ، فلم يكن من المألوف تدخل

---

(65) البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، مجهول : الاستبصار ص 201 .
(66) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، الاستبصار : ص 112 .
(67) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الاثير : ج 6 ص 3 .
(68) المغـرب صفحـة 149 .
(69) أعمـال الاعـلام ج 3 صفحـة 139 .
(70) تاريـخ المغـرب العـربـى صفحـة 401 .
(71) ابن الاثير : ج 6 ص 3 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(72) البكـرى : صفحـة 148 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاباضية والصفرية بالمغرب فى شؤون بعضها البعض (73) ، الامر الذى يشكك فى هذه الرواية من اساسها .

ومع ذلك يستفاد منها ان عيسى بن يزيد انحرف عن خط المذهب ، واسرف فى تطبيقه واشتط فى احكامه . كما ان نقمة الصفرية عليه وتعذيبه وقتله بطريقة قاسية تنم عن تطرف الخوارج الصفرية وميلهم الى العنف (74) لكن الذى نؤكده ان الدافع الاساسى للثورة عليه هو ازدياد قوة مكناسة بعد قدوم بطونها من مواطنها الاصلية الى سجلماسة ، وتطلعها الى الحكم والسلطة .

على كل حال — آلت الامامة الى ابى القاسم سمكو ، وظلت من بعده حكرا على صفرية مكناسة التى اختصت باختيار الائمة من آل بيت ابى القاسم واخذ البيعة لهم من جمهور الصفرية فى سجلماسة وتوابعها (75) .

وعكف ابو القاسم طيلة امامته (155 — 168 هـ) (76) (772 — 784 م) على ارساء قواعد دولته ، عازفا عن المشاركة فى ثورات الصفرية فى العصر العباسى الاول ، ولعل هذا يفسر قول ابن خلدون (77) ومن أخذ عنه (78) أن ابا القاسم « خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس » . والواقع أن ابا القاسم لم يسهم فى حركات الصفرية الاخيرة لا لكونه تابعا للخلافة العباسية — كما يذهب ابن خلدون — ولكن لاحساسه بعدم جدوى هذه الحركات التى اتخذت شكل ثورات غير منظمة ولانشغاله من ناحية أخرى بمشاكل دولته الجديدة . وليس ببعيد أن يكون قد اضطر امام هذه المشاكل الى مسالمة الولاة العباسيين فى المغرب ومن المحتمل أن يكون قد وعدهم بتبعية اسمية ليضمن سلامة دولته التى لم تكن قد

---

(73) انظر : بنو مدرار والرستميين .
(74) الشهرستانى : ص 121 ، Gautier : Op. Cit. P. 299.
(75) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 553, Bel : Op. Cit. P. 167.
(76) ابن عذارى : ج 1 صفحة 215 .
(77) العبر ج 6 صفحة 130 .
(78) السلاوى : ج 1 صفحة 112 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استقرت بعد ، وان كان من الراجح أن دولة بنى مدرار تمتعت باستقلال سياسى تام عن سلطة الخلافة وعمالها .

وهكذا ـــ استطاع ابو القاسم سمكو بن واسول المكناسى « مقدم الصفرية » (79) بالمغرب الاقصى تحقيق اهداف الخوارج الصفرية باقامة دولة لهم فى بلاد المغرب توارثها بنوه من بعده .

---

(79) يخلط ابن خلدون بين الاباضية والصفرية ، فيذكر أن أبا القاسم كان « اباضيا صفريا »، وهو قول سبق تخطئته لان أن ائمة بنى مدرار جميعا كانوا من الخوارج الصفرية . انظر : العبر ج 6 ص 130 .
ومن خطأ ابن خلدون انظر : ابن حزم : نقط العروس ص 76 ،
كولين : دائرة المعارف الاسلامية ـــ مادة سجلماسة ص 289 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب ـ سياسة بني مدرار الداخلية

تأثرت سياسة بنى مدرار الداخلية ـ بدرجة كبيرة ـ بعاملين اساسيين ، العامل العنصرى والدينى ، فتعيين الامراء وعزلهم ، وقيام الثورات والفتن ، واحتدام المنازعات بين افراد البيت المدرارى ، واتساع الدولة وتقلصها ، وقوتها وضعفها ، كل ذلك كان مرتبطا اشد الارتباط بالصراع القبلى او الخلاف المذهبى .

وقد تمثل العامل العنصرى القبلى فى تباين الكيان الاجتماعي فى سجلماسة واختلاف عناصر سكانها ما بين بربر وسودان واندلسيين ، فضلا عما هو معروف من انقسام البربر الى بتر وبرانس . ولئن كان المذهب الصفرى اطارا جمع هذه العناصر جميعا وخفف من حدة النعرات العنصرية والتناحر القبلى داخل الدولة المدرارية ، الا اننا لا نعدم وجود اقليات دينية لعبت دورا واضحا فى أحداث الدولة . كان هناك اليهود الذين هيمنوا على مصائر البلاد الاقتصادية باحتكارهم استغلال مناجم الذهب والفضة فى درعة (80) . والمعتزلة « الذين كانوا يبعثون بزكاة اموالهم الى رئيسهم بتاهرت يصرفها حيث شاء » (81) . كما وجد بسجلماسة اقلية من الخوارج الاباضية كان لها دورها البارز فى تطور الاحوال السياسية داخل دولة بنى مدرار (82) .

والحق أن المصادر لا تمدنا بمعلومات وفيرة عن السياسة الداخلية (83) ، ومع ذلك يمكن القول بأن الصراع العنصرى ظهر واضحا

---

(80) الاستبصار صفحة 202 .
(81) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 ـ مخطوط .
(82) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .
(83) انظر : المقدمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الاحداث المتعلقة بقيام الدولة . فنعلم أن تقليد عيسى بن يزيد الاسود امامة الصفرية كان مرتبطا بتفوق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى القاطنة باقليم تافيللت . كما كانت هجرة مكناسة الى هذا الاقليم سببا فى سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها الامامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التى اختفى صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين افراد بنى مدرار المكناسيين .

اما العامل المذهبى فيظهر بوضوح فى نشاط الاباضية بسجلماسة ، ومما يؤكد دورهم فى تاريخها السياسى ما درج عليه بعض المؤرخين من الخلط بين أئمتهم وبين أمراء سجلماسة الصفريين ، واعتبار بعضهم بعض أمراء آل مدرار من الاباضية . فابن الخطيب (84) يذهب الى أن الصفرية بعد قتلهم عيسى بن يزيد الاسود « ولوا عليهم أبا الخطاب الصفرى » الذى احتضن أبا القاسم سمكو وعقد له الامر من بعده . وقد سبق أن فندنا تلك الرواية واثبتنا أن أبا القاسم سمكو المكناسى تولى الامامة على اثر مقتل عيسى بن يزيد سنة 155 هـ (772 م) واحتفظ بها حتى وفاته فى سنة 168 هـ (85) (784 م) .

ولم نقف على دور للاباضية فى عهد الياس بن ابى القاسم الملقب بأبى الوزير (86) ، ذلك لان المصادر لا تمدنا بأية أخبار عن أحوال الدولة فى عهده الذى امتد حتى عام 174 هـ (87) (790 م) . ويبدو أنه كان خاملا فاتر الهمة مما جعل الصفرية ينقمون عليه حكمه « فانتفضوا عليه وخلعوه وولوا مكانه اخاه اليسع » كما يذهب ابن خلدون (88) ولا يبعد أن يكون اخوه دبر أمر خلعه واقصائه ليظفر بالامارة لنفسه حسبما ذكره البكرى (89)

---

(84) اعمال الاعلام ج 3 صفحة 141 .

(85) ذكر ابن الخطيب — خطأ — ان وفاة ابى القاسم سمكو حدثت سنة 199 هـ . راجع : اعمال الاعلام ج 3 صفحة 142 .

(86) البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 . وفى رواية اخرى لقب بـ « الوزير » . انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 صفحة 112 .

(87) البكرى : ص 150 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 . وهذه الرواية اكثر ثقة من غيرها التى تضطرب فى تحديد مدة حكمه وسنة خلعه . فابن عذارى يذكر أنه خلع سنة 170 هـ ، وابن خلدون يجعل ذلك سنة 194 هـ ، أما ابن الخطيب فيقول بأن امارته لم تتجاوز ستة اشهر خلع بعدها . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 215 ، العبر ج 6 ص 130 ، اعمال الاعلام ج 3 ص 142 .

(88) العبر ج 6 صفحة 130 .

(89) المغرب صفحة 150 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع ذلك نعتقد أن فتن الاباضية قد تفاقمت فى عهده ، وهذا يفهم من جهود خليفته اليسع بن أبـى القاسم الملقب بأبـى المنصـور (90) (174 — 208)(91) (790 — 823 م) فى قمعها . فقد طمعوا فى تقلد الامارة بعد استقلالهم بنواحى درعة الشهيرة بمعادنها (92) . غير أن اليسع عمد الى تعبئة الجند والانصار (93) الى أن تسنى له اعداد جيش قوى تمكن به من اخماد الفتنة « وظفر بمن عانده » (94) .

ويبدو انه اسرف فى البطش بخصومه حتى وصف بأنه « كان جبارا عنيدا ، فظا غليظا » (95) . لقد قضى على الفتنة فى مهدها ، واظهر مذهب الصفرية (96) بعد أن « قاتل عليه » (97) فى حروب انتصر فيهـا جميعا حتى قيل بأنه « دوخ المغرب » (98) . واسفرت هذه الحروب عن مد نفوذ الدولة حتى درعة ، وفرض الخمس على ما يستخرج بها من معادن (99).

ويبدو أن هذه الحروب الطويلة التى خاضهـا احـدثت اضرارا بسجلماسة وتخريبا بعمائرها وسورها ، ولعل جموع الاباضية بالمدينـة لعبوا دورا فى هذا الصدد . وهذا ما يرجحه اقدام أبى المنصور اليسـع على اخلاء المدينة واعادة تخطيطها ، فتخبرنا المراجع (100) انه امر القبائل

---

(90) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 . وقد لقبه البكرى « بابى المنتصر » وكذلك ابن عذارى . انظر : المغرب ص 149 والبيان المغرب ج 1 ص 215 . ومما يؤكد خطأ تلك الرواية ما ذكره البكرى فى مكان آخر بأنه لقب « بابى المنصور » . انظر : المغرب ص 150 . أما لقب « أبى المنتصر » فقد كنى به ابنه فيما بعد .

(91) اجمع المؤرخون على وفاة ابى المنصور اليسع سنة 208 هـ . انظر : البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 143 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 . لكنهم اختلفوا فى تقدير سنى حكمه ، فابن عذارى يذكر انه ظل اميرا ثمانية وثلاثين عاما ، وابن خلدون يذكر أنه قضى فى الحكم اربعة عشر عاما ، وابن الخطيب يحدد مدة حكمه بثمانية أعوام . وسبب هذا الاختلاف يرجع الى اختلافهم حول تاريخ تقلده الامارة ، فابن عذارى يجعله سنة 170 هـ وابن خلدون يحدده بسنة 194 هـ وابن الخطيب يذكر أنه تولى الامـاره سنـة 200 هـ . والصحيح ما ذكره البكرى من أنه تولى الامارة سنة 174 هـ وظل بها اربعة وثلاثين عاما . انظر : نفس المصادر والصفحات .

(92) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص 80 .

(93) النفـوسى : ج 2 صفحـة 94 .

(94) البكـرى : صفحـة 150 .

(95) نفس المصدر والصحيفة ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(96) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(97) البكرى : ص 150 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(98) ابـن خلـدون : ج 6 صفحـة 130 .

(99) البكرى : ص 150 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(100) القلقشندى : ج 5 ص 165 ، النفوسى : ج 2 ص 94 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمبارحة سجلماسة وسكنى الصحراء . ثم أعاد بناء مسجدها الجامع واختط بها المصانع والقصور حتى استردت بهاءها وزينتها (101) وشرع فى تحصينها ببناء سور جديد أنفق فيه أموالا طائلة بذلها من ماله الخاص (102) . وقد بنى أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب (103) وجعل به اثنتى عشر بابا صنع معظمها من الحديد (104) . ولما انتهى من اتمام تعمير سجلماسة ، أعاد تقسيم خططها بين القبائل بما يكفل له الهيمنة على سائر أجزائها والسيادة على كافة سكانها (105) . بذلك استطاع أبو المنصور اليسع أن يحقق أهدافه وأصبح لا ينازعه فى الامامة منازع . ومن هنا يمكن اعتبار حكمه عصر الازدهار والاستقرار فى تاريخ دولة بنى مدرار.

يؤكد ذلك تطلع جيرانه من بنى رستم الاباضية الى كسب وده ليأمنوا جانبه من ناحية ، وليضمنوا الاستقرار والامن لاخوانهم فى المذهب بسجلماسة من ناحية اخرى ، يفسر ذلك تزويج عبد الرحمن بن رستم احدى بناته لاحد ابناء ابى المنصور اليسع ويدعى مدرار، لربط الدولتين الخارجيتين بصلة المصاهرة (106) . وقد اثمرت تلك المصاهرة ، فاستكان الاباضية بسجلماسة لحكم ابى المنصور ودانوا بطاعته حتى وفاته سنة 208 هـ (823 م) .

لكن ثوراتهم اندلعت من جديد فى عهد مدرار بن ابى المنصور اليسع الذى خلف اباه وتلقب بالمنتصر (107) ، اذ ما لبث الصراع بين الاباضية والصفرية فى سجلماسة أن وجد طريقه الى البيت المدرارى .

وتجمع المصادر (108) على أن المنتصر مدرارا كان له ولدين يدعى كل منهما ميمونا ، أحدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى

---

(101) ابن خلدون : ج 6 ص 130 — 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(102) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، ابن الخطيب ج 3 ص 143 .
(103) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .
(104) البكرى : صفحة 148 .
(105) نفس المصدر والصحيفة ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(106) النفوسى : ج 2 ص 94 ، Bel : Op. Cit. P. 168.
(107) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، القلقشندى : ج 1 ص 165 .
(108) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقية فعرف ابنها بميمون بن بقية (109) . وتضيف أن المنتصر كان يؤثر ابن الرستمية على أخيه حتى انه عهد اليه بولاية عهده (110) . وكان ذلك بداهة انتصارا لاباضية سجلماسة ، فازر صفريتها ميمون بن بقية ، ودخل الطرفان فى صراع استمر ثلاثة أعوام (221 — 224 هـ) (111) (835 — 838 م) كان المنتصر ابانها سليب الارادة . ثم اقدم المنتصر على خرق تقاليد الامامة فخلع نفسه وولى ابن الرستمية مكانه بعد طرده ابن بقية من سجلماسة (112) . واغضب هذا التصرف شيوخ الصفرية بالمدينة لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيادة الاباضية (113) من ناحية اخرى ، فصمموا على خلع ابن الرستمية ، وتم لهم ما أرادوا . ويذكر النفوسى (114) أن ذلك تم بتحريض من ميمون بن بقية لرؤساء الصفرية ومقدميهم . غير انهم حين عرضوا عليه الامامة أبى واكتفى بطرد أخيه ابن الرستمية الى درعة (115) ، فأعادوا اباه مدرارا للامامة (116) .

لكن المنتصر ما لبث ان بعث فى طلب ابنه ابن الرستمية من درعة ليوليه الحكم مرة اخرى ، وعندئذ ارغمه الصفرية على التنحى وبايعوا ميمون بن بقية سنة 224 هـ (117) (838 م) ولقبوه بالامير (118) . وبادر ميمون الامير بطرد أبيه من سجلماسة الى بعض القرى (119) ؛ فظل بها حتى وفاته سنة 253 هـ (867 م) (120) .

---

(109) ثمة تحريف ببعض المراجع فى اسمى زوجتى المنتصر . فمن المعروف ان الرستمية تدعى « أروى » والاخرى تسمى « بقية » لكن ابن الخطيب يطلق على الاولى « هنو » والثانية « تقية » كما نجد عند ابن خلدون والسلاوى تحريفا لكلمة « بقية » الى « بغى » والصواب ما ذكره البكرى وابن عذارى . انظر : اعمال الاعلام ج 3 ص 143 ، العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(110) النفوسى : صفحة 295 .

(111) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .

(112) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

(113) النفوسى : صفحة 95 .

(114) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 95 .

(115) ابن خلدون : ج 6 صفحة 131 .

(116) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 .

(117) البكرى : صفحة 150 .

(118) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(119) ابن عذارى : ج 1 صفحة 139 .

(120) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، القلقشندى : ج 5 ص 166 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبقى ميمون أميرا حتى توفى سنة 263 هـ (121) (877 م) . ولا نعلم شيئا من أخباره الا ما ذكره ابن خلدون (122) من انه كان مستبدا فى حكمه وكان مضطرا الى ذلك ليواجه فتن الاباضية ومؤامراتهم . ويبدو أن جمهورهم هجر سجلماسة الى درعة لاستجماع قواهم ومناصرة ميمون ابن الرستمية على الظفر بالامارة ، وهذا ما حدا بمحمد بن ميمون الامير ان يقتفى اثرهم ويناهض حركاتهم ، اذ يخبرنا ابن الخطيب (123) بأنه « غزا وطهر بلاد القبلة » . ويبدو أنه استأصل شأفة الاباضية فى هذه الاصقاع ، فلم نسمع عن حركات لهم طوال حكمه وقد توفى سنة 270 هـ (124) (884 م) . ويخيل الينا أن الدولة المدرارية فى ذلك الحين تخلصت من مشاكلها الداخلية وحققت الامن والهدوء فى سائر ربوعها ، فانصرفت الى التوسع خارج حدودها وقد اضطلع بتلك المهمة خليفة الامير محمد بن ميمون ويدعى اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن ابى القاسم (125) الملقب بالمنتصر (126) .

وبديهى أن يتطلع اليسع الى ضم صفرية مطغرة لدولته ويوحد صفرية المغرب الاقصى تحت لوائه ، وجدير بالذكر أن مطغرة اذ ذاك كانت تحت حكم الادارسة الذين اسرفوا فى اضطهاد الصفرية داخل دولتهم ، ومن المحتمل أن يكون شيوخها قد اتصلوا بالعاهل المدرارى لتحريرهم باعتباره امام الصفرية ببلاد المغرب . ويذكر ابن الخطيب (127) أن اليسع المنتصر عقد العزم على الاضطلاع بتلك المهمة ، فشرع فى تجنيد الجيوش لهذا الغرض، ولم يثنه عن عزمه سوى مداهمة الخطر الشيعى سجلماسة نفسها .

ففى عهده وقعت حادثة الغزو الشيعى لسجلماسة التى انتهت بقتل اليسع وسقوط الدولة المدرارية سنة 297 هـ (911 م) وهو ما سنفصله فى الباب الرابع .

وهكذا ـ لعبت الخلافات العنصرية والقبلية والمذهبية دورا موجها فى سياسة دولة بنى مدرار الداخلية .

---

(121) البكرى : ص 150 . ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(122) العبر : ج 6 صفحة 131 .
(123) أعمال الاعلام : ج 3 صفحة 144 .
(124) نفس المصدر صفحة 145 .
(125) البكرى ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(126) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .
(127) أعمال الاعلام : ج 3 صفحة 145 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جـ ـ علاقات بني مدرار الخارجية

كانت دولة بنى مدرار دولة داخلية صحراوية ، فلم تسهم بدور كبير فى احداث عصرها ، بل انصرف هم امرائها الى الحفاظ على استقلالها السياسى ، ومذهبها الدينى ، ومصالحها الاقتصادية . لكنها مع ذلك لم تكن بمنأى عن التيارات السياسية فى العالم الاسلامى عموما وفى بلاد المغرب بوجه خاص ، فكان على امرائها ان يتخذوا موقفا ـ ان وديا وان عدائيا ـ حيال القوى الاسلامية الكبرى او ما يدور فى فلكها من الدول الصغرى ببلاد المغرب . حقيقة ان دورهم كان سلبيا على وجه العموم ، ونادرا ما بادروا بالخروج عن دائرة العزلة السياسية التى فرضتها طبيعة بلادهم الجغرافية ، ومع ذلك يمكن ان نشير الى علاقاتهم السياسية بطابعها الودى او العدائى ، وبجوانبها السلبية او الايجابية مع كافة القوى الاسلامية المعاصرة فى بلاد المغرب ، فضلا عن الدولة العباسية والاندلس وبلاد السودان (128) .

على كل حال ـ كانت سياسة بنى مدرار الخارجية تسير فى اتجاهين بارزين ، عاقات عدائية تجاه الخلافة العباسية ودولة الاغالبة ودولة الادارسة ، ثم علاقات ودية مع بنى رستم والامويين بالاندلس .

ا ـ العلاقات العدائية :

1) بنو مدرار والعباسيون :

اتخذت علاقات بنى مدرار بالخلافة العباسية وعمالها فى المغرب

(128) ذكر مورنل ـ وهو صاحب اكبر واشمل مؤلف فى تاريخ المغرب ـ معلقا على سياسة بنى مدرار الخارجية « نحن لا نعلم ثمة علاقات خارجية لهذه الاسرة اللهم الا عن صلاتها مع دولة الاغالبة » . انظر : Les Berbers. Vol. 2. P. P. 24 - 25.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طابعا عدائيا . حقيقة أن هذا العداء لم يصل الى درجة قيام الحروب بين ائمة سجلماسة وأمراء القيروان ، فقد شغل كل منهم بمشاكله الذاتية عن مناجزه خصومه ، وحالت الظروف السياسية والعوامل الجغرافية دون تناحرهم ، فانصرف هم الخلافة وعمالها الى الاحتفاظ بافريقية واسقطوا اقاصى بلاد المغرب من حسابهم بعد أن انسلخت تماما عن نفوذهم . كما آثر الأمراء المداريون حياة الهدوء والموادعة داخل بلادهم النائية بعد ما تعرضت له حركات الخوارج على ايدى ولاة بنى العباس منذ ولاية محمد ابن الاشعث حتى عهد هرثمة بن اعين . ومن ثم قنع العباسيون باستخلاص افريقية وحمايتها من اخطار الخوارج ، كما زهد أمراء سجلماسة فى مناجزة ولاة القيروان ، ولم يكلفوا انفسهم مشقة اعداد الجيوش بسجلماسة فى اقصى الجنوب لخوض حروب غير مأمونة العواقب فى اقصى الشمال ، وانصرفوا لمواجهة المشاكل الداخلية فى دولتهم ، فضلا عن الاهتمام بمصالحهم التجارية كوسطاء فى حركة التجارة عبر الصحراء شرقا وشمالا وجنوبا .

وقد ادى هذا الى ان بعض المؤرخين اعتبروا أمراء سجلماسة عمالا للعباسيين بسبب عزوف الطرفين عن محاربة بعضهما البعض ، فيذكر مرسييه (129) أن « بنى مدرار كانوا يعترفون بالتبعية للعباسيين » أما فورنل (130) فيقرر « أن أمراء سجلماسة كانوا يدعون لبنى العباس » . وكذلك بل (131) فانه يقول « وليس غريبا ان يدخل أمراء سجلماسة فى علاقات التبعية للعباسيين رويدا رويدا » . وربما كان بروفنسال (132) أكثر انصافا فى قوله « كان المداريون فى كثير من فترات حكمهم يتبعون بغداد اسميا » . ويخيل الينا أن هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا على نصين عند ابن خلدون ، ذكر فى أحدهما (133) أن أبا القاسم سمكو بن واسول « خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس » ، وفى الآخر (134) أن « الشاكر لله أعلن ولاءه لبنى العباس عندما قام بحركته ضد الفاطميين ». كما اعتمدوا ايضا على رواية اخرى مشكوك فيها تفيد أن اليسع بن مدرار

---

(129) Histoire de Constantine P. 92.

(130) Les Berberes. Vol. 2. P. 22.

(131) La religion musulmane. Vol. I. P. 168.

(132) Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 249.

(133) العبر ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(134) نفس المصدر صفحة 131 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أمير سجلماسة أودع عبيد الله المهدى السجن على اثر رسالة من الخليفة العباسى يأمره فيها بالقبض عليه .

واذا صح ما ذكره ابن خلدون من خطبة أبى القاسم سمكو للمنصور والمهدى فى سجلماسة ، فانه قد فعل ذلك خوفا من عمال الخلافة فى المغرب من أمثال يزيد بن حاتم وخلفائه ممن عرفوا بالقسوة والبطش فى ملاحقة حركات الخوارج . واقدام ابى القاسم على هذا العمل يدخل فى اطار « مبدأ التقية » الذى تجيزه تعاليم المذهب الصفرى (135) تحاشيا لاخطار محدقة بدولته وهى لم تزل فى المهد .

أما مناداة الشاكر لله بالدعوة لبنى العباس ، فمن المعتقد أنها كانت لهدف سياسى هو تأليب أهل السنة ببلاد المغرب ضد الفاطميين الشيعة ، وهو ما فعله أبو يزيد مخلد بن كيداد فى ثورته على الفاطميين .

وحسبنا أن الشاكر لله ضرب العملة باسمه — من دون الخليفة العباسى (136) — كما لقب نفسه « امير المؤمنين » (137) ، بما يؤكد صدق قول القلقشندى (138) « فدعا لنفسه مموها بالدعاء لبنى العباس ».

أما عن الرواية المتواترة عن حبس اليسع بن مدرار للمهدى بسجلماسة وفقا لمشيئة الخليفة العباسى فالمعتقد انها مشوبة بالخلط والاضطراب الامر الذى يشكك فى صحتها . يقول ابن خلدون (139) « . . ولحق عبيد الله الشيعى وابنه ابو القاسم بسجلماسة لعهده ، وأوعز المعتضد اليه فى شأنهما — وكان على طاعته — فاستراب بهما وحبسهما » بينما يذكر فى مقدمته (140) أن « المعتضد أوعز الى الاغالبة امراء افريقية بالقيروان وبنى مدرار بسجلماسة بأخذ الآفاق عليهما (المهدى وابنه) واذكاء العيون فى طلبهما ، فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفى مكانهما ببلدة واعتقلهما مرضاة للخليفة » . وفى رواية ثالثة (141)

---

(135) انظر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 51 .
(136) انظر : Lavoix : Catalogue des monnaies musulmane, P. 402.
(137) صبح الاعشى : ج 5 ص 167 ؛
Lane-Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins. P. 328.
(138) نفس المصدر والصحيفة .
(139) العبر : ج 6 صفحة 131 .
(140) مقدمة ابن خلدون : ج 1 صفحة 240 .
(141) العبر : ج 3 صفحة 363 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول ابن خلدون « وذهب عبيد الله الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار فأكرمه ثم جاء كتاب زيادة الله ، ويقال كتال كتاب المكتفى بأنه المهدى الذى داعيه فى كتامة فحبسه » .

ولا يمكن ان تكون هذه الروايات المضطربة ذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بنى مدرار وبين العباس كما ذهب بل (142) . والاكثر غرابة أن يقال أن « امير سجلماسة كان سنيا » (143) .

ومكمن الاضطراب فى روايات ابن خلدون قوله فى أولى رواياته أن الخليفة المعتضد هو الذى أوحى الى ابن مدرار بالقبض على المهدى ، بينما يذكر فى روايته الثالثة ان ابن مدرار استجاب لطلب الخليفة المكتفى وليس المعتضد . فضلا عن ذلك فان هذه الروايات لا تحدد ما اذا كان الخليفة العباسى أم الامير الاغلبى هو الذى بعث بكتبه ليستحث اليسع بن مدرار القبض على المهدى ، ومهما كان الامر فان عبيد الله المهدى كان معروفا لدى أمير سجلماسة الذى كان يجله ويكرمه (144) ، وكان المهدى يغدق الهدايا والصلات على حكام البلاد الذى مر بها او اقام فيها ، « فمنهم من لم يعرفه واكرمه لذلك ، ومنهم من عرفه وترك التعرض له لما كان منه اليه ، ومنم من عرفه وقدره » (145) . ولم ينكر المهدى نسبه وانه « يدعو الى الرضى من آل محمد » حين سأله ابن مدرار ، بل كتم عنه صلته بداعيته أبى عبد الله الشيعى ونفى معرفته له (146) .

ويخيل الينا أن ابن مدرار حين قبض عليه وحبسه لم يقصد بذلك « مرضاة الخليفة » أو لانه « كان على طاعته » كما ذهب ابن خلدون ، بل اقدم على ذلك حين علم « بأنه هو الذى يدعو الى بيعته أبو عبد الله الشيعى بافريقية » (147) ، الذى كان خطرا على سائر دول المغرب هددها بالزوال (148) . وقد نمى ذلك الى علمه « من جهات كثيرة » (149)

---

(142) انظر : La religion musulmane en Berberie. P. 156.

(143) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص 54 .

(144) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 70, Mamour : Op. Cit. P. 107.

(145) شرح الاخبار : صفحة 32 .

(146) نفس المصدر والصحيفة .

(147) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 272 .

(148) شرح الاخبار : صفحة 32 .

(149) نفس المصدر والصحيفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليس عن طريق الخلافة العباسية وحدها .

فصارى القول أن واقعة المهدى بسجلماسة لا تدل على تبعية آل مدرار لبنى العباس بقدر ما تدل على خوف الامير المدرارى على دولته من الخطر الشيعى الجديد . فالقول بتبعية الاسرة المدرارية للخلافة العباسية أمر يتعارض والظروف السياسية التى قامت فيها دولة بنى مدرار ، كما لا يستقيم مع طابعها الدينى المذهبى المتطرف ، وواقع صلاتها السياسية بالقوى المعادية لبنى العباس .

فقيام دولة بنى مدرار بسجلماسة كان على حساب النفوذ العباسى فى بلاد المغرب ، فاقتطع هذا الجزء نهائيا عن سلطان الخلافة ، واستقل به أمراء بنى مدرار « عن ولاة القيروان والعرب » (150) « وخلعوا طاعة الخلفاء » (151) . ولما كانت دولة بنى مدرار بمثابة مجمع للخوارج الصفرية اساسا ، فقد غلب عليها الطابع الدينى المذهبى ، وجدير بالذكر أن مذهب الخوارج عموما لا يعترف بامامة بنى العباس باعتبارهم مغتصبين للخلافة « وكلهم يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم ان امكن او قتلهم » (152). واذ لم يكن بمقدور صفرية المغرب الاقدام على ذلك ، فلا اقل من مناصبتهم العداء وانكار شرعية امامتهم . وليس من المقبول ان يدين صفرية سجلماسة لبنى العباس فى الوقت الذى كان اخوانهم فى المذهب يعانون من سطوة الخلافة بالشرق ، ففى السنوات 162 هـ ، 169 هـ ، 171 هـ ، 178 هـ (779 ، 786 ، 788 ، 895 م) عمد العباسيون الى استئصال شأفة الخوارج الصفرية فى قنسرين وارض الموصل والجزيرة وارض السواد ، فابادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم (153) . واستمرت تلك السياسة طوال القرن الثالث الهجرى حتى ضعفت شوكة الخوارج الصفرية فى الشرق الاسلامى (154) . ولا غرابة بعد ذلك اذ اضمر امراء بنى مدرار بسجلماسة العداء للخلافة العباسية وعمالها فى المغرب واقدموا على مشايعة الد اعدائها وهم بنو امية بالاندلس .

---

(150) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 ص 112 ، كولن : مادة سجلماسة بدائرة المعارف الاسلامية : ص 289 .

(151) القلقشندى : ج 5 صفحة 164 .

(152) البغدادى : الفرق بين الفرق : ص 273 ، احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 ص 337 ، Bel : Op. Cit. P. 168.

(153) انظر : ابن الاثير : ج 6 ص 162 ، 169 ، 171 ، 178 .

(154) نفس المصدر : ج 7 ص 61 ، 67 ، 74 ، 75 ، 119 ، 155 ، 156 ، 157

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

2 ـ بنـو مـدرار والاغالبـة :

من الطبيعى أن تكون علاقات الاغالبة ببنى مدرار امتدادا لعلاقات بغداد بسجلماسة ، فدولة الاغالبة التى قامت بافريقيـة سنـة 184 هـ (800 م) كانت تدين بالولاء السياسى والتبعية الاسمية للخلافة العباسية على الرغم مما تمتعت به من استقلال ذاتى ، وحسبنا أنها كانت تمثل البقية الباقية لنفوذ الخلافة فى بلاد المغرب وقاعدتها لاسترداد سلطانها المفقود فى هذه الجهات . ولا غرو فقد سمح الرشيد بقيام هذه الدولة حرصا منه على استمرار نفوذه فى افريقية من ناحية واسترداد هذا النفوذ فى الاجزاء التى انسلخت عنه من ناحية أخرى لو استطاع الاغالبة الى ذلك سبيلا (155) . ومن ثم عادى الاغالبة أعداء الخلافة فى المغرب ومنهم بنو مدرار .

لكن الذى لا شك فيه أن هذا العداء لم يبلغ حد التناحر والصراع بين الدولتين، فانصرف الاغالبة عن مشاكل المغرب لتحقيق أهدافهم التوسعية فى حوض البحر المتوسط . وربما كان وجودهم وسط حشد من الاعداء (156) دافعا لهم على تولية الظهر للقارة والاتجاه الى البحر ، وبديهى أن يخفف هذا الاتجاه من حدة عدائهم لبنى مدرار وخاصة أن الاخيرين كانوا بعيدين عن متناول خصومهم ،حيث قامت الدولة الرستمية حائلا بين الطرفين (157) وتعرضت بذلك للاحتكاك مع الاغالبة .

واذا كانت دولة بنى مدرار قد سلمت من مناجـزة أمـراء القيروان وتطاولهم ، فذلك لا يعنى انتفاء عداوتهم ، أو بمعنى آخـر لم يكن عـدم قيام الحروب بين سجلماسة والقيروان دليلا على الود المتبادل كما ذهب فورنل (158) . والحقيقة أن كلا من الطرفين لم يعبأ بالآخر طالما لم يكن بوسعه أن يسير الجيوش لقتاله ، ومن ثم اتخذت عداوتهما طابع الاغفـال وعـدم الاكتـراث .

ومن الخطأ أن يفسر ذلك على أنه استكانة من جانب بنى مـدرار

---

(155) الاصطخرى : ص 37 ، Vonderhey den : Op. Cit. P. 8.

(156) كانت دولة الاغالبة محاطة بعديد من القبائل المعادية سياسيا ومذهبيا ، وهـذه القبائل هى بنو يفرن الصفرية وأوربة الادريسية ، ولماية ونفوسة الاباضية الوهبية ، وهوارة النكارية ، وزواغة الخلفية ، وكتامة الشيعية الاسماعيلية . انظر : Masqueray : Op. Cit. P. 195.

(157) انظـر الخـريطـة .

(158) راجـع : Les Berberes Vol. 2. P. 22.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقناعة منهم بالتبعية للاغالبة ، فقد ذهب ابن أبى دينـــار (159) الى أن « اليسع بن مدرار كان يحكم سجلماسة لبنى الاغلب » . ويخيل الينا انه استنتج هذا القول من حادثة القبض على عبيد الله المهدى بسجلماسة على اثر رسالة بعثها الامير زيادة الله بن الاغلب وفقا لرواية بعض المصادر (160) او أرفقها برسالة اخرى للخليفة العباسى فى رواية اخرى (161) . وقـــد سبق أن ذكرنا أن الامير المدرارى اقدم على سجن المهدى اتقاء للخطـــر الشيعى الذى هدد دولته . لقد كان قبض اليسع على المهـــدى وسجنـــه بسجلماسة من قبيل التوافق غير المقصود بين اهداف الخلافة والامارة وبين مصالح الاسرة المدرارية التى تهددها خطر الشيعة ، ولا يعنى هذا الحدث وجود أدنى نفوذ للأغالبة على امراء بنى مدرار .

لقد كان الخلاف السياسى والمذهبى بين الامارتين الاغلبية والمدرارية يحول دون أدنى تقارب بينهما ، ولا غرو فقد هادن بنو مدرار جيرانهـــم الرستميين كيما يتفرغوا لمواجهة الاغالبة عدوهم المشترك . كما التقوا بأموى الاندلس للوقوف أمام اطماع الاغالبة فى المغـــرب والحيلولـــة دون تسربهم الى ما وراء حدود افريقية . ولعل من اهم ما يبرز اسباب الجفوة والعداء بين المداريين والاغالبة ما تعرض له الخوارج الصفرية من بطش واضطهاد فى القيروان ، فقد كان اعتناق المذهب الصفرى تهمة تصم صاحبها بالمروق والعصيان والزندقة (162) . وعلى الرغم مما يقال (163) عـــن تسامح الاغالبة مع أهل المذاهب الاخرى بالقيروان ، فقد تعرض الصفرية ـــ بوجه خاص ـــ لاضطهاد شديد ـــ بعد ولاية سحنون قضاء القيروان ـــ فقد حظر عليهم الاجتماع والصلاة فى المسجد الجامـــع (164) ، وبـــددت حلقاتهم (165) ، كما منعوا من تعليم الصبيان وتأديبهم (166) ، وتعرض من خالف ذلك لمزيد من البطش والتعنيف (167) .

---

(159) المؤنس فى اخبار افريقية وتونس ص 49 .
(160) انظر شرح الاخبار ـــ ملحق (أ) ص 32 من كتاب :
Ivanova : Ismaili tradition.., Mamour : Op. Cit. P. 107.
(161) افتتاح الدعـــوة . ص 43 ، ابن خلدون : ج 3 ص 363 ، المقريـــزى : اتعـــاظ الحنفا ص 84 ، الخطط : ج 1 ص 350 .
(162) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية : ص 80 .
(163) انظر : حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية ج 1 ص 58 .
(164) أبو العرب تميم : المرجع السابق ص 102 .
(165) المالكى : رياض النفوس ج 1 ص 276 .
(166) الدباغ : معالم الايمان . ج 2 ص 55 .
(167) أبـــو العـــرب تميم صفحـــة 102 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل ذلك قمين بأن يذكى العداء بين بنى مدرار والاغالبة ، وينفى بشكل قاطع أى قول بوجود علاقات ودية بينهما ، كما يدحض الزعم القائل بتبعية أمراء سجلماسة لبنى الأغلب .

3 ــ بنــو مــدرار والادارســة :

تحفل المراجع بكثير من القرائن والشواهد (168) التى تؤكد طابع العداء الصارخ بين بنى مدرار والأدارسة ، فقد قامت دولة الأدارسة بالمغرب الاقصى سنة 172 هـ (789 م) على حساب نفوذ الخوارج الصفرية، اذ نعلم أنهم اقتطعوا هذه الجهات عن نفوذ الخلافة وولاتها بالقيروان منذ ثورة ميسرة سنة 121 هـ (739 م) . فلما نجح ادريس الاول فى اقامة دولته ،ذوى شأن الصفرية فيها وتعرضوا للبطش والاضطهاد من جانب آل ادريس ،وزاد هذا العداء (169) حدة بسبب الخلاف المذهبى، فالادارسة من الشيعة الزيدية ، وبنو مدرار من الخوارج الصفرية ، ولا يخفى العداء التقليدى بين الشيعة والخوارج .

لا ننكر وجود حاجز جبلى يفصل بين الدولتين ، وأن الطبيعة الجبلية فى المغرب الأقصى شكلت نوعا من الحماية لكلتى الدولتين (170) الى حد كبير ، لكن ذلك لم يكن عائقا دون امكانية غزو احداها للاخرى . فثمة طريق ممهد يبدأ من « فاس الى صفرو فقلعة مهدى فتادلة فوادى شعب الصفا » ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث توجد سجلماسة (171) . وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج « من باب الغوارة بفاس الى مدينة سجلماسة » (172) حيث تتوافر الزروع والمياه فى اقليم اغمات الموجود على يساره (173) . بل لا يخالجنا شك فيما ذهب اليه جورج

---

(168) ذهب بعض الدارسين الى صعوبة تتبع علاقات بنى مدرار بالادارسة بسبب ندرة المعلومات . انظر : حسن عبد الواد : دولة الادارسة ص 250 ،
Basset : Op. Cit. P. 333.

(169) اخطأ البعض حين انتهى الى أن « حسن الجوار كان العلاقة السائدة بين دولة الادارسة ودولة سجلماسة » . انظر : حسن عبد الواد : دولة الادارسة صفحة 253 .

(170) ابن فضل الله العمرى : مسالك الابصار ج 5 قسم 2 ورقة 17 ــ مخطوط .

(171) الادريسى : صفحة 76 .

(172) ابن ابى زرع : صفحة 53 .

(173) ابن حوقل : صفحة 65 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مارسيه (174) بأن « ادريس الاول وخلفائه كانوا عازمين على استئصال شأفة صفرية تافيلالت » . ويخيل الينا أنهم عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد مع الاغالبة الذين نجحوا فى اثارة القلاقل وحيك المؤامرات فى وجه ائمة فاس ، فاغتالوا ادريس الاول (175) والثانى (176) ، ومولاهما (177) راشد والبوا وزراءهم وكبار دولتهم عليهم ، واستمالوا بعضهم الى جانبهم (178) . كذلك كان ضعف الدولة بعد موت ادريس الثانى ونشوب الخلافات بين أفراد الاسرة الادريسية (179) من أسباب تقاعس الادارسة عن غزو سجلماسة ، واكتفائهم بتصفية نفوذ الصفرية داخل دولتهم ، فضلا عن استقطاع بعض أطراف الدولة المدرارية .

أما عن بنى مدرار ، فلم يكن بوسعهم — أمام مشاكلهم الداخلية — الشروع فى تدبير غزو بلاد الادارسة خاصة فى عهدى ادريس الاول والثانى . وحين اتيح لهم القيام بهذا الدور فى عهد اليسع بن مدرار ، دهمه الخطر الفاطمى الذى قضى على بنى مدرار والادارسة معا . لكن بنى مدرار لم يعدموا وسائل الكيد والدس لجيرانهم ، واثارة القلاقل فى دولتهم عن طريق صنائعهم من الصفرية فى الدولة الادريسية .

وقد اتخذ هذا العداء السياسى بين فاس وسجلماسة مظاهر من الفعل ورد الفعل ، كان الادارسة يمسكون فيها بزمام المبادرة ، بينما لاذ بنو مدرار ازائها بالصمت حينا وتصدوا لمواجهتها حينا آخر .

وتجلت مظاهر العداء فيما قام به ادريس الاول من حملات لاستئصال شأفة صفرية تلمسان من بنى يفرن الزناتيين (180) بعد أن بايعته القبائل الصفرية الاخرى قسرا ، ومن بينها بعض بطون مكناسة (181) .

ففى منتصف رجب من عام 173 هـ (790 م) توجه ادريس على

---

(174) La Berberie Musulmane et l'orient. P. 124.

(175) ابن ابى دينار : المؤنس : ص 99 ، اطفيش : الامكان ص 81 .

(176) ابن الابار : الحلة السيراء ص 200 .

(177) ابن خلدون : ج 4 صفحة 13 .

(178) النويرى : ج 22 ورقة 28 .

(179) البكرى : صفحة 123 .

(180) اطفيش : الامكنان ، صفحة 57 .

(181) ابن خلدون ج 4 ص 12 ، محمد على السنوسى : الدرر السنية : ص 44 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رأس حملة الى تلمسان وأخضع أهلها دون عناء (182) ، وظل مقيما بها حتى عام 174 هـ (791 م) ليوطد نفوذه فيها . ثم أسند حكمها الى أخيه سليمان (183) ، وعاد الى وليلى . وهكذا تدر له الاستيلاء على كل معاقل الصفرية فى بلاد المغرب الاقصى فيما عدا سجلماسة . غير ان اغتياله المفاجىء شجع صفرية تلمسان على الانتفاض ، وظلوا خارجين على الادارسة حتى عام 197 هـ (813 م) حين عول ادريس الثانى على اعادتهم الى طاعته ، فأعد الحملة التى جهزها « لمحو آثار دعوة الخوارج الصفرية » (184) فى تلك السنة واستمر يحاربهم طيلة ثلاث سنوات (185) الى أن ادعنوا لطاعته (186) .

ولم يستطع صفرية سجلماسة مديد العون لاخوانهم بتلمسان واستنقاذهم من ضربات الادارسة ، ويعزى ذلك الى استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان الا عبر أراضى الدولة الادريسية ، فكان الطريق اليها يمر بدرعة وأغمات وتادلا وفاس ومنها الى تلمسان (187) .

وعول خلفاء ادريس الثانى على اقتطاع الاجزاء المجاورة لدولتهم والتابعة لبنى مدرار ، فتمكن عبد الله بن ادريس — الذى تولى أغمات والسوس الاقصى وبلاد نفيس — من مد نفوذه على صنهاجة اللثام الضاربة حول سجلماسة واستولى على بعض الحصون التابعة لبنى مدرار (188) . كما اقتطع يحيى بن ادريس بلدة تامدلت — قرب درعة — وهدد بحرمان بنى مدرار من مناجم درعة الغنية بالذهب والفضة (189) .

وتمثل رد الفعل من جانب بنى مدرار فى تحريض الصفرية فى فاس

---

(182) ابن ابى زرع القرطاس : ص 22 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I P. 475.

(183) نفس المصدر والصحيفة .

(184) ابن خلدون : ج 4 ص 13 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاف اعلام الناس : ج 2 ص 19 .

(185) ابن ابى زرع : ص 69 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 198 ؛ السنوسى : الدرر السنية . ص 59 .

(186) المنيش : الامكان : ص 57 ، Masqueray Op. Cit. P. 172.

(187) الادريسى : صفحة 81 .

(188) اليعقوبى : البلدان ص 359 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 71 .

(189) اليعقوبى : نفس المصدر والصحيفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على الثورة ضد الامير على بن عمر بن ادريس . وبالفعل نجح أحد صنائعهم ويدعى عبد الرزاق الصفرى فى لم شمل صفرية مديونة وغياثة ومكناسة وغيرهم ، واستولى على مدينة صفروى — جنوبى فاس — وبايعه كافة الصفرية في نواحيها ، ثم اتجه بجموعه الى فاس وهزم على بن عمر ابن ادريس الذى فر لائذا بقبيلة اوربة ، وتمكن عبد الرزاق من دخول العاصمة ، وخطب له على منابر عدوة الاندلسيين . لكن حركته لم تستمر طويلا ، فقد استدعى أهل عدوة القرويين يحيى بن القاسم بن ادريس المعروف بالعدام وبايعوه بالامامة . وتمكن العدام من طرد عبد الرزاق الصفرى من عدوة الاندلسيين ، وظل يقاتل الصفرية فى عدة وقائع حتى فل شوكتهم وقتل زعيمهم سنة 293 هـ (907 م (190)) ونحن نرجح ما ذهب اليه جورج مارسيه (191) من أن حركة عبد الرزاق الصفرى هذه كانت من تدبير بنى مدرار فى سجلماسة ، ومما يرجح ذلك قيامها فى المناطق المجاورة للامارة المدرارية وامتدادها الى الشمال حتى وصلت الى قصبة دولة الادارسة .

ولعل ما احدثته تلك الحركة من تصدع فى دولة الادارسة ، وما وصلت اليه دولة بنى مدرار من قوة واستقرار على عهد اليسع بن مدرار هو ما جعل الأمير المدرارى يعد العدة لبسط نفوذه على اخوانه فى المذهب المقيمين داخل الدولة الادريسية . فعول على تجهيز جيش يغزو به دولة الادارسة لتحقيق هذه الغاية ، لكن جهوده فى هذا الصدد لم تتم بسبب تعرض بلاده للخطر الشيعى (192) .. وهكذا غلب طابع العداء على العلاقات السياسية بين سجلماسة وفاس .

ب — العلاقات الودية :

1) بنو مدرار والرستميون :

اتخذت علاقات بنى مدرار ببنى رستم طابعا وديا ، تمثل فى سياسة حسن الجوار التى حرص كل منهم على مراعاتها . ومن ثم انعدمت الحروب

---

(190) انظر : البكرى : ص 125 ، ابن أبى زرع : ص 112 — 115 ، ابن خلدون : ج 4 ص 15 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 208 — 209 ، السلاوى : ج 1 ص 162 164 ، سلفاتور كوسا : تواريخ مدينة فاس ص 6 ؛
Masqueray : Op. Cit. P. 172.

(191) La Berberie Musulmane. P. 126.

(192) ابن الخطيب : اعمال الاعلام : ج 3 ص 145 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينها على الرغم مما كان بين الصفرية والاباضية من تنافر وصل الى درجة الصراع ابان ثورات الخوارج فى بلاد المغرب .

وفى تقديرى أن هذا التقارب مرتبط بالظروف السياسية القاسية التى واجهتها حركات الخوارج فى المغرب على اثر الحملات الضخمة التى عكف بنو العباس على انفاذها لقمع ثورات الخوارج فى المغرب ابتداء بحملة ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) ، تلك الظروف الصعبة التى احدثت تحولا عمليا فى سياسة الخوارج فى المغرب حيث لجأوا الى اقاصى الجنوب ، واقاموا دولتين متجاورتين احداهما للصفرية فى سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) والاخرى فى تاهرت للخوارج الاباضية سنة 162 هـ (779 م) .

فوحدة الظروف السياسية المتمثلة فى العداء لبنى العباس وعمالهم بالقيروان وكذلك الادارسة ومصادقة أموى الاندلس ، ووحدة الظروف الجغرافية والتشابه فى نمط الحياة القائمة على البداوة واختلاط القبائل وانتقالها بين الدولتين المتجاورتين ، فضلا عن وحدة المصير ، كل ذلك حدا ببنى مدرار وبنى رستم الى الموادعة وتحاشى الشقاق والخلاف وكل ما يوجب الخصومة والعداء (193) . لكن الثابت أن العلاقة بينهما لم تتعد مجرد تجنب الخصومة والعداء ، فلم تتطور الى مرحلة التحالف أو حتى التعاون المشترك بسبب الخلاف المذهبى والعداء التقليدى بين الصفرية والاباضية فى المغرب . وعمدت الدولتان الى تجنب الحروب وتحاشى التدخل فى الخلافات التى كانت تنشب بين الاقليات الاباضية فى سجلماسة وبين أمراء بنى مدرار ، أو تلك التى حدثت بين صفرية تاهرت وبين أئمتها (194)، فقد صم حكام كل دولة آذانهم عما تعرض له اخوانهم فى المذهب داخل الدولة الاخرى حرصا على السلام .

فالمعروف أن عدة آلاف من الاباضية اقاموا بدولة بنى مدرار (195) ، وقد سبقت الاشارة الى دورهم فى مناهضة أمراء بنى مدرار ، وطمعهم فى السلطة ، وما قام به أمراء سجلماسة من قمع حركاتهم والبطش بهم . وحسبنا انهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ المذهب بتاهرت اكثر من ولائهم للدولة التى كانوا يعيشون فى كنفها ، فقد درجوا على ارسال زكاة

---

(193) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .
(194) ابن الصغير : صفحة 52 .
(195) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أموالهم الى مشايخهم بتاهرت ليصرفوها حيث شاؤا (196) . ولا مراء فى أن مشكلة الاقلية الاباضية فى دولة بنى مدرار كانت أهم المشاكل التى واجهها أمراء سجلماسة على الاطلاق .

كذلك لم تخل تاهرت من وجود أقلية من الخوارج الصفرية لها وزنها (197) . وقد استقرت غالبيتهم فى حصن « تالغمت » المشرف على المدينة (198) وبديهى أن يسهموا فى احداث الدولة الداخلية ويقفوا موقف المعارضة من ائمة تاهرت . فيخبرنا ابن الصغير (199) انهم لعبوا دورا بارزا فى الثورة على أبى حاتم يوسف بن محمد ، حيث انضموا لاهل تاهرت من غير الاباضية ضد الامامة الرستمية .

وقد حرص حكام سجلماسة وتاهرت على تحاشى التدخل فى هذه الفتن . فأحجموا عن اذكائها أو تشجيعها ، ولولا تغاضيهم عنها ؛ « لكانت الحروب بينهم متوالية والفتن متتابعة » ع حيث يطلب كل فريق منهم الانضمام الى امام مذهبه ويظهر التظلم حقا أو باطلا من مخالفة فى المذهب الحاكم عليه » (200) بل بادر بعضهم الى توثيق أواصر الود بين الدولتين عن طريق المصاهرة ، فطلب اليسع بن ابى القاسم سمكوا من عبد الرحمن ابن رستم تزويج ابنه مدرارا من أروى ابنة عبد الرحمن (201) مؤملا تعضيد حكمه فى سجلماسة بجيرانه الرستميين وقبل الامام الرستمى « رغم اعتراض المعترضين والمنكرين » مستهدفا توثيق علائق الوداد بين المملكتين فلا يطرقه منهم طارق سوء ، ولا يأتيه من قبلهم ما يكدر راحته أو يوجب له خلفا أو خللا فى داخليته (202) » .

وعلى الرغم من قصور هذه المصاهرة عن تحقيق أهدافها فى ايجاد حل لمشكلة الاقليات المذهبية داخل الدولتين ، الا انها أدت الى حرص المدراريين والرستميين « على تحقيق التضامن والوئام بين دولتى الخوارج »

---

(196) ابن الصغير : ص 46 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 ــ مخطوط .
(197) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .
(198) نفس المصدر : صفحة 69 .
(199) تاريخ الائمة الرستميين ص 51 ، 52 .
(200) النفوسى : صفحة 94 .
(201) ابن خلدون : ج 6 صفحة 131 ،
Provencal : Op. Cit. P. 249, Bel : Op. Cit. P. 168.
(102) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ كما ذهب جوتييه (203) ـ واحجام كل منهما عن التدخل فى الامـور الداخلية فقد مارس حكام كل من الدولتين سيادة كاملة على سائر الاقليات المذهبية داخل دولتهم « من الاباضية والصفرية والواصلية » (204) جميعا، ولم يتساءوا من وجود صلات بين هذه الاقليات وبين شيوخها سواء فـى تاهرت او سجلماسة (205) .

2 ـ بنـو مـدرار وأمويـو الاندلس :

لم يحل الاختلاف المذهبى بين بنى مدرار وأموى الاندلس ، ولا البعد الجغرافى بين سجلماسة وقرطبة دون وجود صلات ودية بينهما ، فقـد جمعهما العداء المشترك للخلافة العباسية والاغالبة والادارسة . وقد سبق أن وقفنا على أسباب الجفوة بين سجلماسة وبغداد والقيروان وفاس .

ولا يخفى العداء التقليدى بين قرطبة وبغداد ، فحسبنا أن قيـام الدولة الاموية بالاندلس تم على حساب النفوذ العباسى هناك ، ولما كان الاغالبة على ولاء لبنى العباس (207) ، فقد ورثوا عداوتهـم لامـوى الاندلس ، وازداد هذا العداء حدة بسبب التنافس البحرى بينهما فى وسط وغرب البحر المتوسط . بل ان نجاح الاغالبة فى هذا التنافس البحـرى وتهديدهم النفوذ الأموى فى جزر البليار كان من العوامل التى دفعت عبد الرحمن الثانى (206 ـ 238 هـ) (208) (821 ـ 853 م) الى توثيق صلاته مع امارات المغرب . واذا كانت الامارة الاموية فى قرطبة قد أخفقت فى توطيد صلاتها بالادارسة (209) ، الا انها نجحت فى اقامة علاقات طيبة مع بنى رستم وبنى مدرار الذين التقوا فى مصالحهم السياسية مع أهداف الامارة الاندلسية . ذلك أن المصالح السياسية سمت علـى الاختـلاف المذهبى بين بنى مدرار الصفرية وبنى أمية السنة ، كما أن وحدة المصير تغلبت على الاحقاد القديمة بين الخوارج والامويين . ولم تحل شقة البعد

---

(203) انظـر : Les Siecles obscurs. P. 293.

(204) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، البرادى : الجواهر ورقة 93 ، أطفيش : الامكان ص 57 ، ياقوت : معجم البلدان ج 3 ص 815 .

(205) الشمـاخـى : السير صفحـة 223 ، 224 .

(206) النـويـرى : ج 22 ورقـة 26 ، 27 .

(207) نفس المصدر والورقات .

(208) ابن عبد ربه : العقد الفريد . ج 4 ص 493 . Scott : Op. Cit. Vol. I. P. 456.

(209) ابن عذارى : ج 2 ص 106 ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بينهما دون امكانية الاتصال ، حقيقة لم يكن لبنى مدرار موانىء على ساحل البحر المتوسط (210) ، لكنهم لم يعدموا وجود منافذ على ساحل الاطلنطى كانت على صلة دائمة بموانىء الاندلس كاشبيلية وشاطبة (211) . ومن ثم فليس من المستغرب أن تحفل مدن الاندلس فى ذلك الحين بعناصر صفرية من سجلماسة (212) كما غصت سجلماسة بالكثيرين من اهل الاندلس (213).

والواقع أن المؤرخين لا يقدمون معلومات وفيرة تساعد على تتبع هذه الصلات الودية قبل عهد الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 ــ 273 هـ) (214) (853 ــ 898 م) ، لكنه من الراجح انها ترجع الى عهد عبدالرحمن الداخل (138 ــ 172 هـ) (215) (755 ــ 788 م) المعاصر لامراء بنى مدرار الاوائل والذى استقل بالاندلس فى ظروف مماثلة لتلك التى اقام فيها بنو مدرار دولتهم بالمغرب . ونعتقد ان نجاحه فى ذلك شجع بنى مدرار على الاقدام على اقامة حكمهم المستقل بسجلماسة .

ويبدو أن هذه العلاقات الودية قد تكدرت اواخر عهد الحكم بن هشام (180 ــ 206 هـ) (797 ــ 821 م) على اثر ثورة الربض بقرطبة ونزوح اعداد غفيرة منهم الى سجلماسة (216) . لكن الجفوة لم تدم طويلا فسرعان ما استعادت العلاقات طابعها الودى فى عهد الخليفة عبد الرحمن الثانى الذى وثق صلاته ببنى مدرار ، وخاصة بعد استفحال الخطر الاغلبى فى البحر المتوسط . ومن المحتمل أن يكون ميمون بن مدرار الملقب بالامير قد آزر صديقه الاموى عبد الرحمن الثانى فى مواجهة القحط الذى حل ببلاد الاندلس سنة 232 هـ (847 م) ، فبعث اليه ما توافر لديه من الحنطة والسكر والتمر (217) . وازدادت صلات الود فى عهد الامير محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم الذى اتسم عصره بالاستقرار السياسى (218)

---

(210) اليعقوبى : البلدان صفحة 359 .
(211) الحميرى : صفة جزيرة الاندلس : ص 21 ، ابن الدلائى : نصوص من الاندلس صفحة 18 ، 19 ، Provencal : Op. Cit. P. 248.
(212) ابن بشكوال : الصلة ج 2 ص 418 ، ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواة ج 1 صفحة 123 .
(213) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(214) ابن عبد ربه : ج 4 صفحة 493 .
(215) نفس المصدر : صفحة 488 .
(216) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(217) جغرافية المامون ورقة 197 ، القلقشندى : ج 5 ص 164 ، Conde : Op. Cit. Vol. I. P. 291.
(218) ابن عبد ربه : ج 4 ص 494 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الوقت الذى نعم فيه أمراء سجلماسة بالامن والهدوء فى عهد ميمون الامير واليسع المنتصر ، حتى ادى ذلك الى أن يعتبر المؤرخون الامير الاندلسى صاحب سيادة فعلية على أمراء سجلماسة . يقول ابن عذارى (219) « . . وكان الامير محمد مأمولا محبوبا فى جميع البلدان ، وكان محمد بن افلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته الا عن رايه وأمره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » ، كما يضيف ابن الخطيب (220) « . . وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة » . ولا شك أن هذا القول ينطوى على مبالغة لا سند لها من الواقع ، فليس ثمة ما يشكك فى الاستقلال التام الذى تمتعت به دولتى بنى مدرار وبنى رستم .

كان من البديهى أن تتوطد صلات المودة والصداقة هذه وتزداد رسوخا بظهور الخطر الشيعى فى بلاد المغرب وتطلعهم الى الاندلس اذ اهتم أمويو الأندلس بمتابعة أخبار الدعوة الفاطمية عن طريق أصدقائهم فى سجلماسة وتاهرت ،وخاصة بعد الانتصارات المتوالية التى أحرزها داعيتهم أبو عبد الله الشيعى على دولة الاغالبة (221) . ولا شك أن بنى مدرار ارتاعوا بدورهم لهذا الخطر ، ومن المحتمل أن يكونوا قد بذلوا جهودا للاشتراك مع أموى الاندلس فى مجابهته . لكن هذه الجهود لم تسفر عن شىء ، فقد سقطت دولة بنى مدرار سنة 297 هـ (909 م) فى يد الشيعة دون أن يحرك أمير الاندلس ساكنا ، ولم تقم قرطبة بجهود لمناوءة الفاطميين فى المغرب الا فى عهد عبد الرحمن الناصر (222) . وهكذا لم تتمخض صلات الود والصداقة بين سجلماسة وقرطبة عن نتائج سياسية ذات بال .

والخلاصة أن علاقات بنى مدرار الخارجية تأثرت بظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وطبيعتها الجغرافية ومذهبها الدينى .

---

(219) البيان المغرب ج 1 صفحة 116 .

(220) أعمال الاعلام ج 2 صفحة 22 .

(221) ابن عذارى : ج 1 ص 150 ، محمود مكى : التشيع فى الاندلس ص 111 .

(222) عول الناصر على مناهضة الفاطميين فى بلاد المغرب لشغلهم عن التفكير فى غزو الاندلس واستطاع بالفعل أن يستحوذ على بعض معاقل العدوة كسبته وطنجة . ولعل حرص الحكم المستنصر من بعده على معرفة طبيعة بلاد المغرب واحوال سكانها كان تمهيدا لمد نفوذه فيها واقصاء الفاطميين عنها . انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 155 ، الضبى : بغية الملتمس ص 131 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيـا :

دولة بني رستم الاباضية

أ ـ قيام دولة بني رستم

يرتبط قيام دولة بنى رستم بمؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسى الاباضى ، فاليه يعزى الفضل فى تاسيس دولة للخوارج الاباضية كان حكمها فى اسرته من بعده . وليس غريبا أن يرضخ بربر المغرب الاوسط لزعامة امام من غير البربر ، فان كافة الدول التى قامت ببلاد المغرب حتى قيـام الدولة الفاطمية اعتمدت على شخصيات من غير البربر تمتعت بمنزلة دينية خاصة (223) فى معظم الاحيان .

وغنى عن الذكر ان المصادر جميعا تتفق على انتماء عبد الرحمن بن رستم الى الفرس ، وتجمع على نسبته لطبقة الحكام الاكاسرة ، لكنها تختلف فى التفاصيل . فابن خلدون (224) يذكر انه « من ولد رستم امير الفرس بالقادسية » والبكرى (225) ينسبه الى « سابور ذى الاكتـاف الملـك

---

(223) ينطبق هذا القول على دول بنى مدرار وبنى رستم والادارسة والاغالبة والفاطميين وكذلك امـارة برغواطـة .

(224) العبر ج 6 ص 121 . وهى رواية خاطئة لان رستم هذا قتل سنة 16 هـ ، وتوفى عبد الرحمن سنة 168 هـ فيكون قد عمر اكثر من مائة وخمسين عاما .

(225) المغـرب : صفحـة 67 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفارسى » ، بينما ترجح تواريخ الخوارج (226) صلته « بكسرى انو شروان ملك الفرس » .

وتضطرب تواريخ الاباضية حين تتحدث عن نشأة عبد الرحمن وتورد من الروايات ما يشير الى أن امر المغرب سيؤول الى الفرس (227) ، وتصور رستم والد عبدالرحمن على انه كان يدرك هذه النبوءة التى سوف تتحقق على يد ذريته ، فانتقل الى العراق ومنها الى مكة على امل الرحيل الى المغرب لتحقيق نبوءته . ورواية ابن عذارى (228) عن نشأة رستم وابنه عبد الرحمن بالحجاز أكثر قبولا ، فهو يذكر أن بهراما والد رستم كان من موالى عثمان بن عفان ، ولما مات رستم والد عبد الرحمن تزوجت امه من أحد الحجاج المغاربة الذى اصطحبه معها الى بلاد المغرب . والراجح أن وصول عبد الرحمن الى المغرب حدث فى اواخر القرن الاول الهجرى (229) ، فنعلم انه كان شابا يافعا عند ما قدم سلمة بن سعيد يدعو للمذهب الاباضى فى بلاد المغرب ، ويخبرنا الشماخى (230) عن لقاء عبد الرحمن بسلمة وشغفه بتعاليمه « وتعلق قوله بقلبه » .

ثم توجه عبد الرحمن بن رستم الى البصرة وانضم الى اخوانه المغاربة فى حلقة ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة سنة 135 هـ (752 م) ، حيث قضى خمس سنوات فى حضرته يتلقى اصول المذهب وفروعه ويعد مع اخوانه « حملة العلم المغاربة » مع مشايخ المذهب فى البصرة لاقامة « امامة الظهور » عقب عودتهم الى بلاد المغرب .

ولما عادت بعثة المغاربة الى المغرب سنة 140 هـ (757 م) وتولى ابو الخطاب المعافرى الامامة ، اختار عبد الرحمن بن رستم قاضيا على طرابلس (231) . وعند ما اقصى ابو الخطاب الصفرية عن القيروان ودخلها سنة 141 هـ (758 م) تولى عبد الرحمن بن رستم حكمها نيابة

---

(226) ابو زكريا : ورقة 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 138 .
(227) تنيض هذه المصادر بذكر احاديث منتحلة ومأثورات عن كبار الصحابة — مشكوك فيها — تبين فضائل الفرس وعظيم شمائلهم وفضلهم على الاسلام ، وتنبىء عن قيامهم باعادته الى سيرته الاولى ، عن طريق اقامة دولة لهم فى بلاد المغرب . انظر : ابو زكريا : ورقة 2 ، 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 .
(228) البيان المغرب : ج 1 ص 277 .
(229) ينفى هذا ما قاله ابن خلدون من أن عبد الرحمن قدم الى افريقية « مع طوالع الفتح » انظر : العبر : ج 6 ص 121 .
(230) السير : صفحة 123 .
(231) النفوسى : ج 2 صفحة 84 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنه (232) فى حين توجه أبو الخطاب لملاقاة جيوش ابن الاشعث ، فكان عبد الرحمن لذلك « خليفته على افريقية » (233) .

وقد خرج عبد الرحمن بجيش القيروان لنجدة امامه حين دهمته جيوش ابن الاشعث ، لكنه توقف عند قابس عند ما وصلته أنباء قتله وهزيمة جيوشه ، واضطر للعودة الى القيروان لثورة أهل قابس عليه ، لكنه أسرع بمبارحتها عند ما علم بثورة أهلها على نائبه فيها (234) . وتخطىء تواريخ الاباضية (235) حين تزعم أن عبد الرحمن بن حبيب استولى على القيروان اذ ذاك وانه ظفر بابن رستم وهم بقتله لولا شفاعة بعض القيروانيين فيه ، فأطلقه ابن حبيب على أن يغادر القيروان توا ، لان هذه الاحداث وقعت سنة 144 هـ (761 م) بينما قتل عبد الرحمن ابن حبيب سنة 137 هـ (236) (754 م) ، وانتهى حكم أسرته بمقتل ابنه حبيب على ايدى الصفرية سنة 140 هـ (237) (757 م) .

والمعقول أن يكون عبد الرحمن قد نزل القيروان فى محاولة لجمع شمل الاباضية فيها ، ثم أسرع بمغادرتها لثورة أهلها على الاباضية من ناحية ولوصول ابن الاشعث وجيوشه اليها من ناحية أخرى (238) .

وبديهى أن يتجه عبد الرحمن الى المغرب الاوسط لائذا بالقبائل الاباضية هناك . وكانت رحلته هذه شاقة وعسيرة ، اذ آثر المسير فى الطريق الجنوبى المار بقسطيلية — وهو طريق وعر وطويل — الى أن وصل الى جبل سوفجج (239) فاتخذ منه ملاذا لمناعته (240) . ثم أخذت جموع الاباضية تفد اليه ، فقصده شيوخ المذهب ورؤسائه من طرابلس وما جاورها (241) ، كما توجه اليه علماء الاباضية وأعلامهم من سائر

---

(232) ابن عذارى : ج 1 ص 277 ، ابن خلدون : ج 6 ص 111 .
(233) البكرى : صفحة 68 .
(234) أبو زكريا : ورقة 10 ، النفوسى : ص 2 .
(235) ابو زكريا : ورقة 10 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ، النفوسى : ص 2 .
(236) الرقيق : صفحة 124 .
(237) نفس المصدر : ص 141 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 .
(238) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(239) ذكر النفوسى أن هذا الجبل مجهول الموقع ، ويعتقد دبوز انه هو نفس الجبل المعروف بسونيف الكائن بين مدينتى سلالة والسوفر . انظر : الازهار الرياضية ج 2 ص 3 ، المغرب الكبير . ج 3 ص 256 .
(240) أبو زكريا : ورقة 11 .
(241) نفس المصدر والصحيفة ، Gautier : Op. Cit. P. 301.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اقاليم المغرب (242) . وعول عبد الرحمن على جمع شمل اتباع المذهب بهدف استرداد نفوذه ، ولعل هذا ما حدا بمحمد ابن الاشعث الى اقتفاء اثره بقصد القضاء عليه قبل استفحال خطره . فتحصن عبد الرحمن بالجبل وخندق على نفسه (243) . وضرب ابن الاشعث وجيشه الحصار على ابن رستم ورجاله دون طائل ، فاضطر للعودة من حيث اتى بعد أن حل الوباء بجيشه ، وافنى كثيرين من رجاله (244) ، فضلا عن خوفه من تمرد اهل القيروان عليه ولما يكن قد وطد فيها سلطانه بعد (245) .

وبرحيل ابن الاشعث اتيح لابن رستم ومن معه من شيوخ المذهب واعلامه الاتصال باباضية المغرب الاوسط ، فغادر سوفجج الى تاهرت القديمة ، وكانت تنزل حولها قبائل من هوارة ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية واغلبها اباضية (246) ، وقد احسن ابن رستم الاختيار لنزوله فى اقليم عامر بالخوارج الاباضية (247) . وبديهى أن ترحب هذه القبائل بمقدمه وخاصة اباضية لماية « لقديم حلف بينه وبينهم » (248) ايام كان نائبا لابى الخطاب على افريقية ، فلم يعتمد ابن رستم اذن — كما زعم جوتييه (249) — على قبيلة زناتة .

على كل حال — اثمرت اتصالات ابن رستم باباضية المغرب الاوسط ، فآزروه فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 151 هـ (768 م) ، وكانت هزيمتهم فى تهودة فى نفس العام سببا فى اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تلم شمل اباضية المغرب ،وانشاء مدينة تكون قصبة للدولة ومركزا للمذهب.

وقد تريث الاباضية فى اختيار موضع مدينتهم ، وحرصوا على اقامتها « فى مكان جيد الهواء ، كثير المياه ، خصب الارض ، قابل للعمارة ، مأمون من العدو » (250) . وطفق الرواد يجوبون اطراف الاقليم بحثا عن

---

(242) النفوسى : صفحة 3 .
(243) نفس المصدر والصحيفة .
(244) ابو زكريا ، ورقة 11 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 17 .
(245) النفوسى : صفحة 3 .
(246) نفس المصدر : ص 4 ،
Mercier : Histoire de l'établissement des Arabes ... P. 79.
(247) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية صفحة 92 .
(248) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .
(249) انظر : Les Siecles obscurs. P. 312.
(250) النفوسى : صفحة 6 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموضع المختار ، وأجمعت آراؤهم على استحسان موضع تاهرت (251) . وكان هذا الموضع فى مكان مسطح مرتفع (252) ، فهو ملائم ليكون مكانا لعاصمة « امثال هؤلاء السكان الجبليين » (253) ، فضلا عن ملاءمته للرعى ، فهو بمثابة « منتجع صيفى للقبائل الرعوية فى شمالى الصحراء » (254) ، هذا بالاضافة لوقوعه « فى قلب ديار الاباضية ومنازلهم » (255) ، « ووقوعه بين نهر يأتى من الجنوب يسمى مينة وآخر ينبع من عيون ويشق مجراه الى أن يصب فى وادى شلف » (256) . فهذا المكان اذن غيضة بين ثلاثة انهار (257) ، توجه انظارها نحو الداخل وتولى ظهرها للبحر الذى تبعد عنه بمسيرة ثلاث مراحل (258) .

ولهذه الميزات الفريدة ساوم الاباضية سكان موضع تاهرت من بربر صنهاجة (259) على بيعه فأبوا ، لكنهم سلموه اليهم على أن يستصلحوه ويكون لهم نصيب من خراجه . ثم اخذ الاباضية فى تأسيس المدنية ، فشرعوا فى ازالة الآجام وحرق الاشجار تمهيدا لاختطاطها (260) . وقد استعانوا بالاموال التى كانت ترد اليهم من اباضية طرابلس فى اختطاط المدينة وتعميرها (261) . ثم بادروا باختطاط تاهرت سنة 161 هـ (262) (777 م) ، وبدأوا ببناء المسجد الجامع ، فأقاموه على أربع بلاطات (263) فى المكان الذى خصصوه لصلاتهم عند ما كانوا يزيلون الاشجار ويمهدون الارض (264) . وتلى ذلك بناء القصور والبيوت (265) والاسواق

---

(251) ابو زكريا : ورقة 13 ، الشماخى : السير : ص 139 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 .
(252) الشماخى : صفحة 146 .
(253) Bernard : Op. Cit. P. 134.
(254) Faroughy : Apersian dunasty in noth Africa P. 14.
(255) Ibid. P. 12
(256) البكرى : ص 66 ، 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .
(257) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(258) اليعقوبى ، البلدان : ص 358 ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص 375 .
(259) البكرى : صفحة 68 .
(260) ابو زكريا : ورقة 13 .
(261) نفس المصدر ورقة 11 .
(262) ابن عذارى : ج 1 ص 277 . وهى رواية اكثر دقة من رواية ابن خلدون ومن اخذ عنه حيث يجعل تاسيس تاهرت سنة 144 هـ . انظر : العبر ، ج 6 ص 121 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(263) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(264) ابو زكريا : ورقة 13 ، الشماخى : السير ص 139 ، النفوسى : ص 8 .
(265) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 ، الشماخى : السير ص 139 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والحمامات والفنادق (266) . ويبدو أن نزاعا نشب بين الاباضية وبين بربر صنهاجة آنذاك ، فيخبرنا البكرى (267) « انهم كانوا يبنون النهار ، فاذا جن الليل وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم » . والراجح أن الاباضية ردعوهم بالقوة واجلوهم عن المكان برمته حتى قال ابن رستم « هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب ابدا » (268) . وبديهى أن يهتموا بتحصين المدينة وحمايتها ، فأقاموا سورا حولها (269) جعلوا له ابوابا اربعة (270)، واصبحت المدينة الجديدة فى مأمن من اعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها « معسكر عبد الرحمن بن رستم (271) وقيل « المعسكر المبارك » (272). واضحت تاهرت على اثر ذلك حاضرة للدولة ، وقصبة لعديد من المدن والقرى والقلاع والحصون التابعة لها (273) .

بادر رؤساء الاباضية ومشايخهم باختيار امام بعد اختطاط تاهرت حتى تستكمل دولتهم طابعها السياسى وتبلغ امامتهم « مرحلة الظهور » . والواقع ان ثمة خلاف بين المؤرخين حول توقيت مبايعة ابن رستم بالامامة ، وهذا الخلاف يدور حول ما اذا كانت المبايعة قد تمت على اثر مقتل ابى الخطاب ونزول عبد الرحمن بن رستم على اباضية المغرب الاوسط ، أو ان ذلك لم يحدث الا بعد اختطاط تاهرت يقول البكرى (274) « بعد أن هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله وترك القيروان اجتمعت اليه الاباضية واتفقوا على تقديمه » . ويقول ابن خلدون (275) « لحق عبد الرحمن بن رستم بأباضية المغرب الاوسط من البرابرة ونزل على لماية .. فاجتمعوا اليه وبايعوه بالخلافة » . أما النفوسى (276) فيذهب الى « أن علماء المذهب بعد انشاء المدينة تداولوا وقالوا : قد علم ما حل بنا من الشتات والافتراق

---

(266) البكرى : صفحة 68 .
(267) المغرب . صفحة 67 .
(268) نفس المصدر صفحة 68 .
(269) النفوسى صفحة 8 .
(270) هى : باب الصبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن . راجع البكرى : ص 66 .
(271) نفس المصدر : صفحة 68 .
(272) ابو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، ياقوت : ج 1 ص 816 .
(273) من هذه المدن والقلاع يممه وتاغليه وهزارة ومنداس وسوق ابراهيم وجبل تجان وشلف والبطحة والزيتونة والخضراء وتنس وتامزيت وفكان وغيرها . انظر : المقدسى : احسن التقاسيم ص 219 .
(274) المغرب صفحة 68 .
(275) العبر ج 6 صفحة 121 .
(276) الازهار الرياضية ج 3 ص 83 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد وفاة امامينا (يقصد أبا الخطاب وأبا حاتم) ومبارحتنا طرابلس ، وقد أجمعنا على اختيار مكان غيرها يليق بمنصب الامامة ويكون ملجأ للاسلام . واذا رزقنا بهذا المكان وتم تحصينه على حسب المرام وجب نصبه امام (277) »

وفى تقديرى أن عبد الرحمن بن رستم بويع بالامامة مرتين : الاولى على اثر موت أبى الخطاب سنة 144 هـ (761 م) ونزوله على اباضية المغرب الاوسط . والثانية سنة 162 هـ (779 م) بعد تأسيس تاهرت . كانت مبايعته الاولى على أنه « امام دفاع » نظرا لما تعرض له الاباضية من بطش على يد جيوش ابن الاشعث ولا ينفى هذا ما حدث من مبايعة أباضية طرابلس لابى حاتم الملزوزى فى ذات الوقت بامامة الدفاع (278) ، ففقه الاباضية يجوز وجود امامين فى وقت واحد « اذا وجد بينهما عدو يخشى بأسه ، أو لبعد المسافة » (279) . فلا غرابة فى وجود امامين للاباضية أحدهما فى المغرب الادنى والآخر فى المغرب الاوسط وفى ضوء ذلك يمكن تفسير ارسال أبى حاتم الاموال لابن رستم لتكون له عونا على بدء « امامة الظهور » (280) . فلما استتب الامر لاباضية المغرب الاوسط بعد انشاء تاهرت وتحصينها سنة 161 هـ (778 م) ، لم يكن هناك ما يحول دون تجديدهم مبايعة عبد الرحمن بن رستم « لامامة الظهور » سنة 162 هـ (779 م) وخاصة بعد نزوح كثير من أباضية المغرب الادنى الى تاهرت ليعيشوا فى كنف الامامة الجديدة بعد مقتل أبى حاتم الملزوزى « امام الدفاع فى طرابلس » (281) .

أجمع مشايخ الاباضية اذن على اختيار عبد الرحمن (282) « لدينه وسابقته ومكانه وغير ذلك من حميد الصفات » (283) وحسبه انه كان

---

(277) وقد اختلطت آراء المحدثين لهذا السبب وتضاربت فذكروا أن المبايعة تمت قبل انشاء المدينة ، ثم ذكروا فى مواضع اخرى أنها حدثت بعد تأسيسها . انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 380 ، 383 ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 542 ، 545 .

(278) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .

(279) أطفيش : الامكان ص 107 ، 108 .

(280) ابو زكريا : ورقة 11 .

(281) نفس المصدر ورقة 13 ، انظر : مقدمة تاريخ ابن الصغير Motylinski : P. 5.

(282) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 83 .

(283) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 . وقد راعى الاباضية الشروط المتعارف عليها فى اختيار الائمة وهى « العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء » دون اشتراط الاصل القرشى كما هو شأن اهل السنة . انظر : ابن خلدون ، المقدمة ج 2 ص 522.

« أحد حملة العلم الخمسة » الى المغرب ، وعامل ابى الخطاب على افريقية (284) فضلا عن انه « ليس له من قبيلة تمنعه اذا تغير او تبدل » (285) ، ومن ثم ارتضته القبائل لتتحاشى تسلط احداها عليها اذا ما حظى رئيسها بالامامة (286) .

وقبل عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 162 هـ (287) (779 م) « على سنة الله ورسوله وآثار الخلفاء الراشدين » (288) بعد ان عاهده رؤساء المذهب « على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه » (289) ، واصبح اول ائمة الدولة الرستمية التى اشتقت اسمها من اسمه .

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته فى العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ، ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياستها الخارجية أو الداخلية وجدير بالذكر انه كرس جهوده لمواجهة الاعباء الداخلية ملتزما سياسة المهادنة فى الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس فى افريقية (290) — كما اصهر الى اليسع بن ابى القاسم رغبة فى مسالمة بنى مدرار (291) .

ولما اطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع فى ارساء دعائمها . وكان عليه أن يبسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى نظمها فى الحكم والادارة .

والواقع انه كان بحاجة الى الاموال ليستعين بها على مواجهة تلك المهام فضلا عن تعبئة الجند وشراء الاسلحة واسترضاء الاتباع (292) . ويخيل الينا انه استعان باباضية المشرق فى هذا الصدد ، وبديهى أن يخفوا لغونه وشد أزره لتحقيق آمالهم فى اقامة دولة اباضية كبرى (293).

---

(284) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .
(285) ابن الصغير : ص 6 ، ابو زكريا : ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 140 ، Masqueray : Op. Cit P. 58, Faroughy : Op. Cit. P. 139.
(286) ابن الصغير : ص 9 .
(287) ليس صحيحا ما اورده بعض مؤرخى الاباضية من رفض عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 140 هـ قبل أن تعرض على ابى الخطاب المعافرى . انظر : الشماخى : السير ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .
(288) الشماخى : السير ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .
(289) ابن الصغير : ص 9 ، النفوسى ص 84 .
(290) النفوسى : صفحة 93 .
(291) نفس المصدر والصحيفة .
(292) النفوسى : صفحة 86 .
(293) ابن الصغير : ص 10 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فبادروا بانفاذ بعثه محملة بالاموال الى تاهرت (294) وتفيض مصادر الاباضية (295) بمزيد من التفصيلات حول بعثة المشارقة فى تاهرت ، واعجابهم بحكم الامام عبد الرحمن وما هو عليه من زهد وعدل وورع وتسليمهم الاموال له ، وحرصه على استشارة أهل الراى فى كيفية توزيعها وانفاقها ، وتلبيته مشورتهم بأن تنفق فى ثلاثة أوجه « ثلثا فى الكراع وثلثا فى السلاح وثلثا توزع فى فقراء المسلمين وضعفائهم » .

واستطاع عبد الرحن بهذه الاموال تسليح رجاله من الاباضية ، وتمكن بفضلهم من بسط سيادة الدولة على سائر قبائل البربر الضاربة داخل حدودها ، وانضوت كافة الجماعات داخل تاهرت وخارجها تحت لواء المذهب الاباضى فى شكل ائتلاف شمل البربر وما عداهم من العناصر الاخرى (296) .

وفضلا عن ذلك فقد اولى عبد الرحمن النواحى الاقتصادية والعمرانية اهتماما كبيرا ، وتذكر المصادر جهوده فى غرس البساتين وشق القنوات واقامة المطاحن عليها (297) . كما زاد فى تعمير تاهرت واقام الفنادق والمبانى الخاصة للتجار ورتب الاسواق ونسقها ، ونظم الاحتساب عليها ، فقصدها التجار من سائرارجاء العالم الاسلامى وخاصة من فارس والعراق والقيروان وسجلماسة (298) فضلا عن بلاد السودان (299) . وقد أسهم هذا الازدهار الاقتصادى فى تدعيم الدولة الرستمية ، وليس ادل على انتعاش أحوال الامامة فى ذلك الحين من رفض عبد الرحمن معونة اخرى بعثها اليه أباضية المشرق (300) ، الذين ابتهجوا لاستقرار الامامة واشتداد ساعدها فاعترفوا بها « ووصلوا الامام بكتبهم ووصاياهم » (301) .

---

(294) يذكر فروخى ان هذه الاموال بعثها خوارج فارس والبحرين ، بينما تروى المصادر الاباضية أنها من لدن خوارج البصرة . وليس من المستبعد ان يكون اباضية فارس والبحرين قد بعثوا بهذه الاموال الى البصرة حيث يوجد مشايخ المذهب الذين أرسلوها بدورهم الى بلاد المغرب . انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ؛
Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(295) انظر : ابو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 20 ، الشماخى : السير ص 140، 141 ، النفوسى : ص 86 ، 87 .

(296) ابن الصغير : ص 12 ، النفوسى : ص 88 ؛
Smith : The Ibadites. P. 279.

(297) نفس المصادر والصفحات .

(298) ابن الصغير : صفحة 16 ، Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(299) نفس المصدر : ص 13 .

(300) نفس المصدر ص 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .

(301) النفوسى ص 87 ، Julien : Op. Cit. P. 333.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعكف عبد الرحمن على تنظيم دولته وتوطيد سلطانه ، ولا شك انه استفاد من عبقرية الفرس فى الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الدينى المذهبى على ما اتخذه من اجراءات فى هذا الصدد فكانت نظم الادارة والقضاء والشرطة والاحتساب وادارة بيت المال ونظم الجباية والصدقات كلها تسير وفقا لتعاليم المذهب الاباضى (302) ، مع مراعاة ظروف السكان باعتبار غالبيتهم من البدو الرحل (303) .

وبذلك استطاع ابن رستم أن يرسى قواعد الدولة ويضع نظمها الادارية (304) والمالية (305) ويكسبها « رونق الملك » (306) وحسبه نجاحا قدرته على التصدى للمشاكل الداخلية والخارجية الكثيرة التى واجهته . فبفضل سياسته فى مهادنة القيروان وسجلماسة ، وبفضل قدرته على ايلاف العناصر والعصبيات المختلفة داخل الدولة « لم ينقم عليه احد فى خصومة ولا حكومة » (307) « ولم يكن على يديه افتراق » (308) .

ولكى يضمن استمرار الاستقرار لدولته أوصى قبل وفاته (309) بتعيين مجلس شورى يختار امام الدولة من بين أعضائه .

وهكذا نجح عبد الرحمن بن رستم فى اقامة دولة أباضية فى تاهرت وتتويج ثورات الخوارج الاباضية فى بلاد المغرب بتأسيس أسرة حاكمة ضمت معظم اقاليم المغربين الادنى والاوسط ، ظل ائمتها يتنابون حكمها قرابة قرن وربع قرن من الزمان .

---

(302) ابن الصغير : صفحة 16 .

(303) مجهول : الاستبصار : صفحة 179 ، Gautier : Op. Cit. P. 300.

(304) اليعقوبى : البلدان : صفحة 149 .

(305) ابن الصغير : صفحة 16 .

(306) النفوسى : صفحة 90 .

(307) الشماخى : صفحة 140 .

(308) أبو زكريا : ورقة 14 .

(309) اختلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاته ، فذكر بعضهم انه توفى بعد سنتين من امامته أى سنة 164 هـ انظر : اطفيش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب : ص 101 . بينما ذكر ابن عذارى انه مات سنة 168 هـ انظر : البيان المغرب ج 1 ص 277 . والراجح ما اورده النفوسى من أن وفاته وقعت سنة 171 هـ انظر : الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 99 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ب - سياسة بني رستم الداخلية

اضطربت أحوال الدولة الرستمية بعد عبد الرحمن بن رس
فامتلات بالفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراع العنصرى
حدا بالمؤرخ جوليان (310) الى القول بأن تاريخ تاهرت لم يكن
سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية . والواقع أن تلك الظاهرة
اكثر بروزا ووضوحا فى الدولة الرستمية اكثر منها فى اية دولة اخرى
دول المغرب المعاصرة لها . حقيقة أن هذه الاضطرابات رغم كثرتها لم
الى سقوط الاسرة الحاكمة فى تاهرت لكنها على كل حال فتت فى عض
واوهنت من نفوذها فى كثير من اقاليمها وخاصة الاجزاء الشرقية منها
لم تمارس عليها سوى مجرد تبعية اسمية ، بل كثيرا ما انسلخ عن
تاهرت بعض هذه الجهات مثل جبل نفوسة ونفزاوة وجربة وطرابلس و

ونعتقد أن هذه الاضطرابات يرجع بعضها الى أسباب فقهية مذ
بينما يعزى بعضها الآخر الى عوامل عنصرية او قبلية او طائفية . و
أن معظم القلاقل الداخلية فى عهد الائمة الثلاثة الاول اتخذت فى ال
الاعم طابع الانشقاق المذهبى فى حين وضح الطابع العنصرى القبلى
سائر الحركات التى قامت فى عهد الامامين الرابع والخامس ، بينما
عهدى الامامين الاخيرين بالصراع على الحكم بين افراد البيت الرستم
فضلا عن ظهور الطوائف المذهبية غير الاباضية كعامل جديد فى
الصراعات . ولم تخل هذه الاضطرابات السياسية - فى كثير من الاحيا
من وجود مؤثرات خارجية . وعلى ذلك يمكن التمييز بين ادوار ثا
واضحة فى مسار التطور السياسى الداخلى لدولة بنى رستم، كان الدور

---

(310) re de l'Afrique Septentrionale. P. P. 335, 36.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيها ــ ويشمل عهدى عبد الوهاب بن رستم وابنه أفلح ــ يمثل سطوة الامامة وقوتها ، وقدرتها على احباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبى سواء بالقوة كما فعل الامام عبد الوهاب أو عن طريق السياسة كما فعل افلح بن عبد الوهاب .

اما الدور الثانى ، فيشمل عهدى أبى بكر بن افلح واخيه ابى اليقظان محمد ، وهو يمثل الصراع العنصرى والقبلى ، وفيه خفت صوت الامامة ووهنت قوتها ، ونجحت بعض العناصر فى اغتصاب السلطة فى تاهرت ، ولم يستردها البيت الرستمى الا بتعضيد عناصر اخرى . ولم يحل دون سقوط الامامة سوى ضعف العصبيات من جراء الصراع بينها ، واسلوب الملاينة والموازنة الذى اتبعه ابو اليقظان محمد فى موقفه من هذه العصبيات.

ويتسم الدور الاخير من الحكم الرستمى ــ ويشمل امامتى ابى حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن ابى اليقظان ــ بتداعى الامامة واضمحلالها وتحكم عامة تاهرت فى تعيين الائمة وعزلهم ، وطمع الطوائف والفرق غير الاباضية فى تقلدها انهاء للحكم الرستمى الاباضى ، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة واقاليمها الشرقية . كما زادت الحالة سوءا بتفاقم الخلافات داخل البيت الرستمى وتدبيرهم المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتسنم الحكم . وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط دولة بنى رستم سنة 297 هـ (909 م) .

وفيما يلى تفصيل دراسة هذه الاطوار الثلاثة فى سياسة بنى رستم الداخلية .

الدور الاول (171 ــ 258 هـ) (788 ــ 873 م) .

الانشقاقات المذهبية :

تم اختيار عبد الرحمن بن رستم للامامة سنة 162 هـ (779 م) وفقا لمبايعة اهل الحل والعقد واجماع كافة مشايخ القبائل ، كما كانت سياسته الادارية والمالية تقوم على المساواة وعدم التعصب لعصبية دون سواها . وبالاجمال كانت امامته متمشية مع تعاليم المذهب الاباضى، الامر الذى هيأ لحكمه الثبات والاستقرار . على أن الخروج عن هذه السياسة فى عهد ابنه عبد الوهاب (171 ــ 208 هـ) (788 ــ 824 م) وحفيده أفلح (208 ــ 258 هـ) (788 ــ 873 م) سبب الاضطرابات والقلاقل التى حفل بها حكميهما .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد تحولت الامامة عن مبدأ الاختيار الى فكرة التنصيب بالتوريث (311) كما ظهرت سياسة الميل لعناصر دون سواها وتمكينها من الاستئثار بمراكز الدولة ووظائفها ، مما شكل خروجا عن تعاليم المذهب الاباضى ، وتمزقا للوثاق الذى ربط بين عناصر وعصبيات شتى ، ونجم عن ذلك انفراط العقد الذى جمع هذه القوى جميعا لتبرز حزازاتها فى شكل حركات وثورات على الائمة اتخذت فى اغلبها طابع الانشقاق المذهبى (312) .

وكانت اولى هذه الثورات واخطرها حركة يزيد بن فندين وجماعته التى عرفت « بالنكار » (313) . وتكمن الدوافع الاساسية لثورة ابن فندين فى رفض امامة عبد الوهاب لعدم اعترافه بجماعة المشورة — التى اقترح ابن فندين استرشاد الامام برأيها (314) — ولان جماعة المذهب لم يجمعوا على امامته لذلك (315) ، ولان فى جماعة الاباضية من يبز عبد الوهاب علما (316) ، ومن ثم يصبح مغتصبا للامامة يضاف الى ذلك نقمته على سياسة عبد الوهاب الادارية ومحاباته لبعض العناصر والقبائل واختصاصهم بمناصب الدولة دون غيرهم (317) ، وبالذات نفوسة (318) والعجم (319).

وقد نجح ابن فندين فى استمالة العديد من الانصار (320) ، ونحى بهم خارج المدينة حيث تأهبوا لقتال عبد الوهاب وجماعته (321) . ويبدو أن القتال نشب بين الجماعتين بالفعل ، وأن الدائرة دارت على عبد

---

(311) ابن الصغير : صفحة 16 ، 20 .
(312) انظر : ابن الصغير : المقدمة : صفحة 6 .
(313) انظر : السوفى : شرح السؤالات ورقة 99 ، 115 مخطوط . وعرفوا أيضا «بالنجوية» لانهم اكثروا الاجتماع والنجوى ، كما اطلق عليهم اعداؤهم أسماء أخرى ، فعرفوا « بالشعبية » لادخالهم الشعب والفرقة فى المذهب ، وقيل « الشغبية » لاحدائهم الشغب ، كما دعوا « بالنكاث » لنكثهم بيعة عبد الوهاب . انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ،الدرجينى : ج 1 ورقة 23 .
(314) الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 102 .
(315) ابن الصغير : ص 18 . والاجماع من شروط صحة الامامة عند فقهاء الاباضية ، كما هو الحال عند اهل السنة . انظر : الشماخى : شرح مقدمة أصول الفقه ورقة 64 — مخطوط ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص 5 .
(316) ابو زكريا : ورقة 15 .
(317) الشماخى : السير : صفحة 146 .
(318) ابن الصغير : صفحة 22 .
(319) النفوسى : صفحة 114 .
(320) الدرجينى : ج 1 ورقة 22 .
(321) عرف انصار عبد الوهاب « بالوهبية » كما يذهب ابن الصغير وليس كما يعتقد البرادى بانهم ينسبون الى عبد الله بن وهب الراسبى . انظر : سيرة الائمة الرستميين ص 16 ، الجواهر المنتقاة ورقة 89 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوهاب ، يفهم هذا من رواية للنفوسى (322) يقول فيها « أن الامام اضطر الى طلب الهدنة ووضع أوزار الحرب حقنا للدماء الى أن يكتبوا لاخوانهم المشارقة بايضاح القضية » . وقبول ابن فندين مبدأ تحكيم فقهاء المذهب فى الشرق فى قضية الامامة (323) ، مما يؤكد ايمانه بعدالة موقفه وشرعيته، ومما يدحض دعوى المصادر الاباضية فى انه ثار لاسباب شخصية صرفة (324) .

على كل حال ــ يذهب مؤرخو الاباضية الى أن شيوخ المذهب فى مصر ــ وعلى راسهم شعيب بن المعرف ــ افتوا فى صالح عبد الوهاب فقالوا « الامامة تامة والشرط باطل » (325) . وكذلك جماعة فقهاء المذهب فى مكة ورئيسهم الربيع بن حبيب (326) الذين بعثوا جوابهم (327) الى عبد الوهاب وابن فندين حيث افتوا « بأن الامامة صحيحة والشرط باطل » وانه « يجوز تولية رجل من المسلمين اذا كان فيهم من هو اعلم منه » (328) .

ويخيل الينا أن فتوى المشارقة كانت فى صالح ابن فندين بدليل وصول فقهاء مصر ورئيسهم شعيب بن المعرف وانضمامهم الى ابن فندين فى الثورة على عبد الوهاب (329) ، ثم ورود عبارة عند الشماخى (330) توضح أن « المشارقة عابوا على عبد الوهاب اشياء وامروه أن يرجع عنها » وكذلك ضعف الرواية الاباضية الوهبية التى تصور تريث الربيع واخوانه فى اصدار فتواهم ريثما يجتهدوا (331) ويتباحثوا فى مسألة تعد من بديهيات الفقه

---

(322) الازهار الرياضية : ج 2 ص 106 .

(323) ابو زكريا : ورقة 15 ، الشماخى : السير ص 146 .

(324) تزعم هذه المصادر أن ابن فندين قام بالثورة لان الامام عبد الوهاب لم يختره لتولى احد المناصب العامة « التى اختص بها اهل العلم والبصيرة فى الدين » . انظر : ابو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 .

(325) الشماخى : السير : صفحة 147 .

(326) تقلد الربيع زعامة المذهب فى الشرق بعد موت ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة . وقد عرف بتعمقه فى الاصول والفروع وتبحره فى مسائل الامامة والولاية والبراءة وفقا للقرآن والسنة . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 116 . الورجلانى : الدليل لاهل العقول : ج 2 ص 75 .

(327) انظر : الملحق رقم (4) .

(328) من المعروف أن الشريعة الاسلامية تجيز امامة المفضول اذا لم يكن متصرا فى شروط الامامة مع وجود الافضل ، وكذلك يجوز الفقه الاباضى امامة المفضول اذا كان على شىء « من القناعة والفضل » . انظر : الماوردى : ص 8 ، ابو زكريا : ورقة 16 .

(329) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 .

(330) السير : صفحة 147 .

(331) ابو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 106 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاباضى . ومهما كان الامر فان ما تذكره المصادر الاباضية (332) من أن شعيب بن المعرف « خرج من مصر فى نفر من أصحابه بغير مشورة من مشايخ مصر طمعا فى الامارة » أمر مبالغ فيه ،والاقرب للتصديق أنه توجه لنصح عبد الوهاب وانهاء الخلاف فى تاهرت ، فلما لم يجبه انضم الى ابن فنديـن وخرجت جموع النكار الى الجبال المحيطة بتاهرت واستقروا فى كدية عرفت « بكدية النكار » . أما الرواية المتواترة (333) التى توردها هذه المصادر عن تدبير النكار مؤامرة اغتيال عبد الوهاب فهى ذات طابع اسطورى بحت ، كما ان أسلوب الاغتيال كان مرفوضا عند الخوارج (334) .

على كل حال ــ تأهب الطرفان للقتال فكان النكار « يدخلون المدينة ويخرجون منها بالسلاح » (335) كما « أمر الامام رعيته وأصحابه بامساك السلاح » (336) وانتهز النكار فرصة غياب عبد الوهاب عن تاهرت وبادروا بمهاجمتها والاستيلاء عليها ، ولما كانت المدينة محصنة ومسورة ، فقد اغلق الوهبية أبوابها ، ونجح افلح بن عبد الوهاب (337) بمن معه فى صدهم ، ثم تتبعهم وهزمهم وقتل ابن فندين وكثيرا من النكار ، ولادت فلولهم بالجبال واستقروا فى كديتهم . أما شعيب بن المعرف فقد هرب الى طرابلس ، واخذ يؤلب اباضيتها على الامامة فى تاهرت (338) .

ونشك أيضا فيما يروى من اغتيال النكار ميمون بن عبد الوهاب

---

(332) انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 23 ، الشماخى : السير ص 147 ، النفوسى : ص 108 .

(333) عن هذه الرواية الاسطورية انظر : ابو زكريا : ورقة 16 ، 17 الشماخى السير : ص 103 ــ 106 .

(334) الثابت أن مبادىء الخوارج تنكر هذا الاسلوب وتحض على المواجهة العلنية للخصوم كما يتضح من مبادىء الاستعراض والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واعلام الخصوم وأخذ الحجة عليهم قبل قتالهم .. الخ . ونلحظ أن الخوارج فى حروبهم ــ سواء فى المشرق أو فى المغرب ــ التزموا بهذه المبادىء وخاصة الاباضية منهم حتى بلغت مثاليتهم حد عدم تتبع المدبر وتحريم نهب الخصوم .. الخ . وما حدث من تدبير اغتيال على بن أبى طالب كان حادثا فريدا له دوافعه الخاصة . انظر السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 ، الاسفرائيى : التبصير فى الدين : ص 28 .

(335) الشماخى : السير : صفحة 148 .

(336) الدرجينى : ج 1 ورقة 24 .

(337) تحفل المصادر الاباضية بقصص روائية عن شجاعة افلح واستبساله فى الزود عن المدينة . انظر : أبو زكريا : ورقة 18 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 25 ، النفوسى : صفحة 111 ــ 121 .

(338) نفس المصادر والصفحات . وجدير بالذكر أن اختلاف فقهاء الاباضية حول موقف شعيب وانقسامهم بين مؤيد ومعارض مما يبرز الطابع المذهبى للحركة . وهذا شأن خلافات الخوارج فى الشرق أيضا . عن هذه الخلافات انظر : الشماخى : السير : صفحة 151 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتمثيلهم بجثته (339) ، فهذا الاسلوب غير مألوف عند الخوارج عموما ـ كما سبق القول ـ ولو صح قول البكرى (340) أن ميمونا هذا كان ابنا لعبد الرحمن بن رستم وليس لعبد الوهاب ، لبطلت تلك الرواية من اساسها . واغلب الظن أن مؤرخى الاباضية الوهبية اصطنعوها لتبرير حملة عبد الوهاب على النكار بقصد استئصال شأفتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد افلح عبد الوهاب فى هزيمتهم وقتل منهم أعدادا غفيرة (341) . لكنه لم يقض عليهم نهائيا ، فظلوا معتصمين بكديتهم فى جبال تاهرت ثم ظهروا على المسرح السياسى بعد ذلك فى ثورة بربر سدراته ومزاته الذين انكروا امامة عبد الوهاب .

وكان من الطبيعى أن تتصل الفلول الباقية من النكار ـ بعد أن وهنت شوكتهم (342) ـ بقبائلهم المقيمة خارج تاهرت ليعاونوهم فى محاولة الخروج على الامام عبد الوهاب (343) ، وكانت غالبيتهم تنتمى الى قبيلتى سدراته ومزاته الضاربتين على جانبى حدود الدولة الاغلبية فى اقليم الزاب (344) . ولا يخامرنا شك فى تحريض الاغالبة لهم على اثارة العراقيل فى تاهرت . على كل حال ، فقد قدموا الى ذويهم بكدية النكار (345) وانضموا اليهم فى معارضة امامة عبد الوهاب (346) واعتصموا معهم بكدية النكار « خارج تاهرت » (347) . واحس عبد الوهاب بخطرهم ، فدهمهم واطبق عليهم بأنصاره وقتل منهم خلقا كثيرا « الا من شد وولى » (348) ، لائذا بمواطنهم الاولى . ويبدو أن هذه الهزيمة فتتت فى عضدهم ، واوهنت شوكتهم ، فلم تقم لهم بعدها قومة طوال عهد الدولة الرستمية (349) . وتمكن عبد الوهاب بذلك من قمع حركة « الانشقاق الاباضى الاول » (350) المعروف بثورة النكار .

---

(339) انظر : ابو زكريا : ورقة 18 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .
(340) المغرب صفحة 67 .
(341) تسرف المصادر الاباضية فى تقدير عدد القتلى فتذكر أن عدد من تسمى منهم باسم هرون ـ اقل الاسماء ـ بلغ ثلاثمائة . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .
(342) الشماخى : السير صفحة 154 .
(343) ابن الصغير : صفحة 20 .
(344) النفوسى : صفحة 129 .
(345) ابن الصغير : صفحة 20 .
(346) النفوسى : صفحة 130 ـ 131 .
(347) ابن الصغير : صفحة 20 .
(348) نفس المصدر والصحيفة .
(349) نفس المصدر والصحيفة .
(350) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 133 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومما لا شك فيه أن حركات النكار رغم اخمادها ، شجعت على قيام ثورات أخرى على الحكم الرستمى ، وصدق النفوسى (351) اذ قال بأن الامامة « اضحت مرمى لسهام الطاعنين والظاعنين » . وجدير بالذكر أن هذه الثورات ظلت طوال عهدى عبد الوهاب وافلح ذات طابع مذهبى فى الغالب ، سواء ما قام به جمهور الاباضية وتمخض عن انشقاقات داخل المذهب ، أو ما قامت به الطوائف المذهبية الاخرى كالواصلية على وجه التحديد .

فقد تشجع الواصلية الضاربون فى كنف الدولة الرستمية ، وهبوا لمناوءة الامامة الاباضية فى تاهرت اعتقادا منهم بخروج عبد الوهاب على الشريعة واغتصابه الامامة قسرا . ولو صح ذلك ، فالراجح أنهم تذرعوا بهذه الدعوى اخفاء لمطامعهم فى الانسلاخ عن الحكم الاباضى وانتهاز فرصة انشغال عبد الوهاب بثورات النكار (352) لتحقيق هذه المطامع . وليس من المستبعد أن يكون « عزمهم فى الخروج من حكم الامام » (353) تمهيدا للانضمام لاخوانهم بدولة الادارسة . فتذكر المصادر أن حركتهم لم تقتصر على واصلية الدولة الرستمية فحسب ، بل ضمت كافة عناصرهم « من كل أوب » (354) . حيث تجمعوا خارج تاهرت لقتال الاباضية (355) . وهذا امر طبيعى اذا ما ادركنا سياسة عبد الوهاب القائمة على التعصب والمحاباة وقد اذكى هذا التنافر بين الواصلية والامامة الرستمية عوامل مذهبية وقبلية ، اذ لا يخفى العداء التقليدى بين الخوارج والمعتزلة — أو الواصلية — الناجم عن الخلاف الفكرى بينهما (356) ، وحسبنا ما كان يحدث من مساجلات ومعارك جدلية بين اقطاب الاباضية فى الشرق وبين واصل بن عطاء راس الواصلية (357) كما زاد التشاحن القبلى من غلواء هذا العداء، فمن المعروف أن قبيلة لواتة الاباضية كانت على عداء مرير لبعض بطون

---

(351) الازهار الرياضية ج 2 ص 20 .
(352) ابو زكريا : ورقة 19 .
(353) النفوسى : صفحة 117 .
(354) الدرجينى : ج 1 ورقة 26 .
(355) اطفيش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 38 .
(356) على الرغم من التقارب بين فكر المعتزلة والخوارج فى مسالة الوعد والوعيد ، فهناك كثير من القضايا التى اختلفوا حولها اختلافا جوهريا ، كمسالة مرتكبى الكبائر ، والراى فى اصحاب صفين وغيرها . . انظر : الشهرستانى : ص 50 — 52 .
(357) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زناتة الواصلية ، بل يذهب مسكراى (358) الى أن هذه البطون الزناتية لم تعتنق مذهب الواصلية الا نكاية فى لواتة التى دانت بالمذهب الاباضى .

ومهما كان الامر — فقد كان الواصلية يشكلون اقلية لها وزنها عدتها ثلاثين الفا يسكنون الخيام ويضربون خارج تاهرت (359) . هذا فضلا عمن اقام منهم ببلدة ايزدج — قرب تاهرت عاصمة الرستميين (360) ، ولكون غالبيتهم من زناتة فقد نجحوا فى اثارة كثير من بطونها ضد عبد الوهاب(361).

واجتمع الثوار من الواصلية خارج تاهرت وهددوا بالقضاء على الامامية الرستمية حول عام 195 هـ (811 م) (362) .

وقد جرت بين الطرفين مساجلات كلامية ، تلتها معارك حربية كان الظفر فيها للواصلية (363) . واضطر عبد الوهاب لعقد هدنة مع خصومه ، فى الوقت الذى بعث فيه الى اتباعه بجبل نفوسة طالبا المدد (364) . وتسرف المصادر (365) الاباضية فى ذكر روايات مبالغ فيها عن القدرات الخارقة التى تميز بها النفوسيون سواء فى فنون الحرب او فى أساليب الجدل والمناظرات كما تبالغ فى وصف اللقاء بين الاباضية والواصلية والانتصار الذى أحرزه الامام فى ساحة الجدل وفى ميدان القتال (366) . والراجح ان عبد الوهاب استطاع بمساعدة نفوسة هزيمة الواصلية وتفريق جمعهم ، اذ لم نقف لهم بعد على حركات طوال عهد الدولة الرستمية ،

---

(358) انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 120.

(359) البكرى : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .

(360) اليعقوبى : البلدان صفحة 80 .

(361) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 29.

(362) هذا التاريخ تقريبى ، اعتمادا على ما هو معروف من أن الامام على اثر حروبه مع الواصلية توجه الى جبل نفوسة حيث ضرب الحصار حول طرابلس فى العام التالى انظر ابو زكريا : ورقة 21 ، Lewcki : Melanges Berberes. P. 269.

(363) يفهم هذا من اشارة للشماخى تقول أن عبد الوهاب « كان زاهدا فى سفك الدماء » ، ومن طلبه العون من جبل نفوسة ، ومما ذكره أبو زكريا عن الفتى المعتزلى الذى قتل كل من بارزه من الاباضية : انظر : السير ص 154 ، السيرة ورقة 19 .

(364) تذكر الرواية الاباضية أن أهل الجبل بعثوا الى الامام أربعة أشخاص فقط كل واحد منهم بمقام مائة « أحدهم للمناظرة ، والاخر لتفسير القرآن ، والثالث للمبارزة ، والرابع للمحاجاة فى المسائل الفقهية » وهى رواية غير مقبولة انظر : أبو زكريا : ورقة 19 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 26 ، الشماخى : السير : ص 155 ، النفوسى : ص 119 .

(365) نفس المصادر والصفحات .

(366) انظر : أبو زكريا : ورقة 22 ، الدرجينى : ورقة 28 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو ما عناه الشماخى (367) بقوله « فوضعت الحرب أوزارها ، ودخل المعتزلة فى طاعة الامام » .

على ان حركة تمرد اخرى اقل خطرا واجهت عبد الوهاب ، قامت بها بعد بطون قبيلة هوارة الضاربة جنوبى تاهرت (368) . ونحن نخالف ابن الصغير (369) رايه فى اعتبار هذه الحركة ثانى الانشقاقات الاباضية، ذلك ان الانشقاق الثانى حدث عند ظهور فرقة الخلفية الى جانب الوهبية والنكار وحسبنا أن تمرد هوارة كان خلوا من اى حافز مذهبى ، ولم يحدث نتيجة خلاف فقهى حول قضية عامة وانما وقع كرد فعل لتنافس بين الامام عبد الوهاب وبين زعيم الاوس — وهى بطن من بطون هوارة — حول الزواج من احدى بنات شيخ قبيلة لواتة (370) النازلة جنوبى تاهرت على وادى ميناس(371) فقد أزمع زعيم الاوس (372) مصاهرة شيخ لواتة ، لكن عبد الوهاب حال دون ذلك بأن تزوج اللواتية — فارتحل زعيم الاوس بجموعه من هوارة عن مضاربهم ونزلوا بمكان يبعد عن تاهرت بعشرة أميال عرف «بوادى هوارة » . ومن هناك طفقوا يغيرون على اتباع عبد الوهاب وانصاره ، الامر الذى جعله يستعين بأحلافه من نفوسة وغيرها ويعد جيشا قوامه الف فارس عدا حشود هائلة من الرجالة (373) . وباغت عبد الوهاب خصومه على غرة ، ودارت معركة طاحنة عند نهر اسلان قتل فيها الكثير من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الثوار وفرار فلولهم الى جبل ينجان (374) .

وكانت آخر الثورات التى واجهت حكم عبد الوهاب حركة خلف بن السمح فى شرقى الدولة الرستمية ، وهى التى أسفرت عن ثانى الانشقاقات الاباضية اذ ما كاد عبد الوهاب يفرغ من مواجهة الحركات والثورات التى اندلعت فى تاهرت وما حولها حتى داهمته فى آخر عهده

---

(367) السير صفحة 157 .
(368) البكرى : صفحة 67 .
(369) سيرة الائمة الرستميين صفحة 20 .
(370) ابن الصغير : صفحة 20 .
(371) ابن خلدون : ج 6 صفحة 117 .
(372) ويعرفون ايضا ببنى مصالة او مسالة . انظر : ابن الصغير : ص 20 .
(373) النفوسى : صفحة 134 .
(374) ابن الصغير : ص 22 ، ويوجد هذا الجبل فى منطقة جرداء على مقربة من البحر المتوسط . انظر : اليعقوبى : البلدان . ص 356 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ة فى منطقة طرابلس وجبل نفوسة (375) التابعة للامامة
3) — اتخذت طابعا دينيا . واستفحل خطر الحركة واقتطعت
الدولة الرستمية الشرقية خلال السنوات الاخيرة من حكم
ردحا طويلا من عهد ابنه افلح .

لف بن السمح زعيم الانشقاق الاباضى الثانى سليل بيت
ة المذهب الاباضى فى بلاد المغرب . فهو حفيد ابى الخطاب
، السمح « أول ائمة الظهور » ، وابوه السمح بن ابى
الامام (377) عبد الوهاب وساعده الايمن ، وعامله على
لذلك اكتسب آل ابى الخطاب منزلة كبيرة بين اباضية المغرب
. هذا اقدامهم على مبايعة خلف بن السمح بالولاية على اثر
سمح بن ابى الخطاب (378) . ويخيل الينا أن الامام عبد
على نفوذه فى هذه النواحى من جراء قيام حكم وراثى فيها ،
ابى الخطاب ما استباحه هو وأسرته من الخروج على مبدأ
مبدأ الوراثة فى الحكم ، ومن ثم لم يقر شرعية ولاية خلف بن
، كما ضرب صفحا عن توسلات اباضية الجبل لابقائه واليا
. (380)

—

سة من اوسع قبائل البربر واكثرها انتشارا ، فمن بطونها بنو زمور وبنو
ماطوسة وتضرب شعوبها فى أحواز طرابلس وجبل نفوسة حتى مشارف
، وان كان الجبل هو معقلهم الاصلى ، ويبلغ طوله من الشرق الى الغرب
تة أيام وارتفاعه نحو ثلاثة أيام ، وهو عامر بالمدن والقلاع والقرى والضياع
. وأهم مدنه شروس ومسيف وجادو .
وسة تدين بالمسيحية قبل اعتناقها الاسلام ، واعتنقت المذهب الاباضى فى
ن الثانى الهجرى ، وأسهمت فى ثورات الاباضية فى المغرب الادنى وافريقية
امر . ولما قامت الدولة الرستمية بتاهرت كان النفوسيون من أشد مناصريها
مها ، ولا غرو فقد حظوا باهم المناصب العامة فى الدولة « فكانت نفوسة
تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر فى الاسواق والاحتساب على
، . الا انه على الرغم من تبعيتهم للامامة فى تاهرت ، كانوا شبه مستقلين
المسافة بينهم وبين تاهرت . انظر : اليعقوبى : البلدان . ص 349 ،
: ص 15 ، ابن حوقل : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 114 ، الاستبصار
، الشماخى : السير : ص 192 ، 273 ،
Basset. Les sancturs du Djebel .. P. 426, Despois : Op. Cit.
لى : ج 2 ص 20 ، على يحيى معمر : الاباضية ص 75 .
سى : البلدان ص 349 .
، : صفحة 165 .
: ورقة 25 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .
يا : نفس المصدر والصحيفة .
در والصحيفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على ان غالبية الاباضية فى هذه النواحى أصروا على موقفهم ، واعلنوا خروجهم على امامة عبد الوهاب ، وبايعوا خلف بن السمح بالامامة (381) محتجين بجواز ازدواج الامامة ما وجد عدو يفصل بين اتباع المذهب ، او لصعوبة الاتصال وطول المسافة بينهم وبين تاهرت (382) لكن وجد بين اباضية الجبل من تمسك بامامة عبد الوهاب ، وتذهب مصادر الاباضية (383) الى أن غالبتهم كانوا من جماعة المشايخ والفقهاء ، فبعث اليهم عبد الوهاب رسالة امتدح فيها موقفهم (384) وولى عليهم احدهم ويدعى أبا عبيدة عبد الحميد الجناونى (385) . ومن ثم حدث انشقاق سياسى اتخذ صبغة فقهية مذهبية . وجوهر الخلاف كمن فى امرين : اولهما مدى حقوق الرعية فى تعيين عمالها ،والآخر شرعية وجود امامين فى وقت واحد . وفى تقديرنا أن تعاليم المذهب الاباضى ترجح راى خلف واصحابه (386) ، ولعل ذلك يفسر انضمام غالبية اهل الجبل اليه ، ومهما كان الامر ، فقد احتد الخلاف بين الحزبين وطرحت القضية برمتها على فقهاء المذهب بالشرق للافتاء فيها (387) . وتذكر المصادر الاباضية (388) — كعادتها — أنهم افتوا فى صالح الامام وخطأوا موقف خلف واتباعه .

وايا ما كانت الفتوى ، فقد نجح خلف فى الاستحواذ على معظم انحاء الجبل دون ان يحرك عامل عبد الوهاب ساكنا او ان يخف الامام لمواجهته بنفسه . ويخيل الينا أن عبد الوهاب وعامله حين اعوزتهما القدرة على ردع الثوار لجآ الى الحيل ، فأتبع عبد الوهاب اسلوب التجسس (389)

---

(381) نفس المصدر والصحيفة .
(382) اطفيش : الامكان : ص 107 ، 108 .
(383) انظر : ابو زكريا : ورقة 25 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .
(384) انظر : ملحق رقم (3) .
(385) ابو زكريا : ورقة 25 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 31 .
(386) ثمة رواية لابى الربيع الوسيانى تقول ان أحد مشايخ نفوسة ممن تلقوا العلم على الامام عبد الوهاب أخذ عنه مبدأ حق الرعية فى اختيار ولاتها . انظر : الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 79 — مخطوط . وقد أفتى الربيع بن حبيب بجواز تعدد الائمة بقوله « لا بأس باجتماع امامين او ائمة فى زمان واحد اذا فصل بينهم سلاطين لا تطاق او قوم لا يطاقون . او حال بعد المسافة » . انظر : اطفيش : الامكان ص 107 ، 108
(387) بعثوا بذلك كتابا الى أبى سفيان محبوب بن الرحيل شيخ اباضية الشرق بعد الربيع ابن حبيب . انظر : الشماخى : السير : ص 181 .
(388) ابو زكريا : ورقة 25 ، النفوسى : ص 151 .
(389) يفهم ذلك من رواية للنفوسى تقول ان شخصا يدعى عمرو بن يانس كان يندس بين اصحاب خلف « ويكاتب الامام بكل ما يسمعه » . انظر : الازهار الرياضية ج 2 صفحة 155 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للايقاع بين خلف واتباعه ، كما بعث الى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم ويمنيهم بالاموال والضياع (390) . لكن ذلك لم يجد فتيلا .

ومات الامام عبد الوهاب (391) ومعظم اجزاء الدولة الشرقية فى حوزة خلف بن السمح (392) . واستمرت حركة خلف وتفاقم خطرها خلال نحو عشرين عاما من حكم افلح بن عبد الوهاب ، فيخبرنا أبو زكريا (393) انه حتى عام 221 هـ (836 م) كان خلف لا يزال يعمل على اقصاء ابى عبيدة عبد الحميد ، الذى أقره افلح على ولايته على المناطق التى فى حوزته . ويعتقد لويسكى (394) أن خلفا كان يسعى لضم كافة الاقاليم التى كانت فى نطاق حكم جده ابى الخطاب . وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة تيمتى وما وراءها شرقا (395) منتهزا تقاعس افلح عن مساعدة عامله الكهل الذى آثر العافية (396) . وضمن خلف بذلك السيطرة على الاراضى الخصبة والمراعى الغنية فضلا عمن بها من الاباضية ، فقد دخلوا فى « رايه وبدعته » على حد قول ابى زكريا (397) . وتصور المصادر الاباضية (398) قيام خلف بالاغارات المتواصلة على املاك أبى عبيدة بقصد السلب والنهب ، وأن الاخير نجح فى ردعها . لكننا نشك فى ذلك اذا علمنا من هذه المصادر ذاتها أن أبا عبيدة كان يستجدى مسالمة خلف

---

(390) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 30 .

(391) اختلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاة عبد الوهاب كشانهم فى تحديد تواريخ سنى حكم سائر ائمة بنى رستم فابن عذارى يذكر أن عبد الوهاب حكم عشرين عاما ابتداء من سنة 180 هـ التى مات فيها والده ، فيكون تاريخ وفاته تبعا لذلك سنة 200 هـ . بينما يحدد النفوسى هذا التاريخ بسنة 190 هـ على أساس أنه استمر فى الحكم تسعة عشر عاما ابتداء من سنة 171 هـ . ولا ندرى كيف توصل جورج مارسية الى تحديد عام 208 هـ كتاريخ لوفاة عبد الوهاب . وان كنا نرجح صحة هذا التاريخ على أساس ما ذكره ابن حيان عن ايفاد عبد الوهاب قبل موته سفارة من أبنائه الى الاندلس سنة 207 هـ . انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 278 ، الازهار الرياضية : ج 2 ص 163 ، مادة بنى رستم بدائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ،
Provencal : Op. Cit. P. 244.

(392) على الرغم من تضعضع نفوذ الامامة على اقاليمها الشرقية فى أخريات عهد عبد الوهاب ، فان نفوذه ظل قائما على بقية أجزاء دولته ، حيث دان له عماله بالطاعة فى نواحى قسطالية وزنزقة ودمر وزواغة وجربة وقفصة ونفزاوة وقنطرارة فضلا عن تاهرت ونواحيها . انظر : الشماخى : السير ص 161 ، النفوسى : ص 165 .

(393) السيرة : ورقة 28 .

(394) Etudes Ibadites. P. 115

(395) النفوسى : صفحة 167 .

(396) ابو زكريا : ورقة 26 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 32 .

(397) السيرة ورقة 26 .

(398) نفس المصدر ورقة 27 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 33 ، الشماخى : السير . ص 184 والنفوسى :صفحة 167 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومواعدته (399) وأن خلفا خيره بين انكار امامة عبد الوهاب والدعوة له وبين قتاله (400) . ومن المؤكد ان أبا عبيدة لم يستجب لدعوته ، فقد اجتاح خلف بجموعه (401) اراضى خصمه سنة 221 هـ (402) (836 م)، والتقى بأبى عبيدة ورجاله (403) عند سفح الجبل فى معركة يذكر مؤرخو الاباضية (404) انها انتهت بهزيمة خلف وانسحابه الى تمتى ، فلم تقم له قائمة بعدها الى « أن مات بزيغه » . ولكننا نعلم أن حروبا وقعت بين خلف وبين أيوب بن العباس — خليفة أبى عبيدة — هزم فيها خلف عند فاغيس — قرب تمتى (405) — الامر الذى يشكك فى رواياتهم .

ويخيل الينا أن خلفا ظل يتمتع بنفوذ فى معظم جهات طرابلس وجبل نفوسة حتى وفاته ، وأن انصاره من نفوسة وزواغة الذين عرفوا « بالخلفية » ظلوا موالين لابنه المعروف بالطيب حتى أواخر عهد الدولة الرستمية .

وكانت هذه الاقاليم الشرقية ايضا مرتعا لحركة اخرى مناوئة للامامة فى تاهرت تزعمها فرج بن نصر المعروف بنفاث ، وأسفرت عن ثالث الانشقاقات فى الجماعة الاباضية (406) .

كان الانشقاق الاول نتيجة خلافات فقهية حول مسائل الامامة وسياسة عبد الوهاب فى تعيين عماله ، وكان الانشقاق الثانى بسبب قضية تعدد الائمة وحق الرعية فى اختيار عمالها ، أما الخلاف الثالث فكان من جراء الاخلال بشرعية الامامة واهدار رسومها (407) على يد افلح بن عبد الوهاب ، فضلا عن سياسته « فى استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق

---

(399) بعث أبو عبيدة رسالة الى خلف يقول فيها « واذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة فكن فى حيزك واكون فى حيزى ودع الحرب » انظر : نفس المصادر والصفحات .

(400) نفس المصادر والصفحات .

(401) ذكر الدرجينى انها بلغت اربعة آلاف بينما تجمع المصادر الاباضية الاخرى على أن عدتها أربعين ألفا . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 33 ، ابو زكريا : ورقة 27 ، الشماخى : السير : ص 184 ، النفوسى : ص 168 .

(402) شذ الدرجينى عن اجماع مؤرخى الاباضية ، فذكر أن القتال حدث سنة 211 هـ . انظر طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 34 ، أبو زكريا : ورقة 280 ، النفوسى : ص 173

(403) تقدر مصادر الاباضية جيش أبى عبيدة بما يتراوح بين ثلاثمائة وسبعمائة رجل . انظر : نفس المصادر والصفحات .

(404) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير ص 187 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 34.

(405) النفوسى : صفحة 175 .

(406) أبو زكريا : ورقة 28 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 34 .

(407) الدرجينى : ج 1 ورقة 35 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية » (408) .

وعلى الرغم مما تورده المصادر الاباضية (409) من تفسير لحركة نفاث باعتباره مارقا على الامامة لاسباب ودوافع ذاتية ، فان ذلك لا ينفى قط كون نفاث ثائرا صاحب آراء واجتهادات فى المذهب الابـــاضى (410) وداعية (411) لانقاذ الامامة الاباضية مما تردت فيه من امتهان على عهد أئمة بنى رستم . فقد آلت الامامة الى أفلح بن عبد الوهاب توا بعد وفاة أبيه سنة 308 هـ (823 م) ، مما يؤكد استقرار مبدأ الوراثة واختفاء مبدأ الاختيار فى الحكم الرستمى . وكان مثل هذا الانتهاك لتعاليم المذهب كفيلا باثارة عالـم فقيه مثل فـــرج بن نصر « الـــذى أعطى فى العلـــم منزلـــة عظيمـــة ، والفقه والفهم » (412) . ومن ثم عـــول على الخروج على امامة أفلح ، واتخذ من قريته المجاورة لقنطرارة مركزا لدعوته وانصاره . ولقيت دعوته اقبالا كبيرا بين اباضية نفوسة وزواغـــة (413) ، وعبثا حاول عامل قنطرارة اقناعهم بالعدول عن آراء نفاث والالتزام بطاعـــة الامـــام (414) .

فقد وجدوا فى « النفاثية » مبررا لتظلمهم من دفع الاموال والجبايات والرسوم التى كان يحصلها عمال الامام (415) . كذلك لم تفلـــح تحذيرات أفلح لعماله بأخذ رعاياهم بالشدة وتجنيبهم الدخول فى طاعة نفاث (416). فيبدو أن هؤلاء الرعايا أعلنوا الثورة على عمالهم فبعث الامام اليهم متلطفا واعدا اياهم باجابة مطالبهم فى تغيير من يشاءون من هؤلاء العمال (417).

---

(408) النفـــوسى : صفحـــة 195 .

(409) تصور هذه المصادر خروج نفاث لتفضيل الامام أفلح سعد بن أبى يونس عليه وتعيينه عاملا على قنطرارة . انظر أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير : ص 195 . والدرجينى : ج 1 ورقة 35 ، النفوسى : ص 197 .

(410) Lewcki : Melanges Berberes .. P. 270.

(411) ذكر الوسيانى أنه سمى بنفاث « لانه ينفث فى الاسماع بدعته » انظر : سير أبـــى الربيـــع : ورقـــة 10 .

(412) أبو زكريا : ورقة 30 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 35 .

(413) الدباغ : معالم الايمان : ج 1 ص 220 .

(414) أبو زكريا : ورقة 29 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 .

(415) النفـــوسى : صفحـــة 195 .

(416) انظر : نص رسالة أفلح لعماله فى هذا الصدد عند النفوسى . الازهار الرياضية : ج 2 ص 214 — 218 .

(417) جاء فى رسالة أفلح الى رعيته ما يلى : « . . ومن عاب أحدا من عمالنا بخصلة من الخصال ، أو أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك الينا ، فنكون نحن الذين يغيرون . . » النفـــوسى : صفحـــة 203 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كما أرسل الى نفاث يأمره بالكف عن دعوته وحببه فى العودة الى الطاعة (418) .

. ونعتقد أن سياسة التودد والملاينة هذه قد أثمرت فى تثبيط عزيمة نفاث ، وتصدى الكثيرين من مشايخ نفوسة لمناهضته (419) ، وانصراف معظم أتباعه عنه . فتخبرنا المصادر أن نفاثا آثر الرحيل الى الشرق حيث نزل بغداد وانكب على دراسة كتب المذهب ونسخ ما تسنى له نسخه منها. فلما عاد وجد أنصاره قد وهنوا وتفرقوا (420) . وان كنا نشك فيما زعمته من أنه « تاب ورجع عن مسائله التى خالف فيها » (421) بدليل وجود كثيرين ممن اعتنقوا آراءه حتى أواخر القرن الخامس الهجرى (422) .

واذا كانت الانشقاقات المذهبية قد تفشت فى الاجزاء الشرقية من الدولة الرستمية ، فان خطرا جديدا ظهر فى آخر حكم أفلح هدد قلب الدولة ذاته ، ونعنى به صراع العصبيات العنصرية والقبلية . لكن أفلح استطاع بذكائه وحذقه السياسى (423) تجنيب الامامة فى عهده شر هذا الخطر ، واتبع فى ذلك وسائل شتى تدل على براعته فى الحكم والسياسة الى جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة (424) .

ومن هذه الوسائل تخليه عن مبدأ المركزية فى الحكم — وهو مبدأ تكرهه القبائل البدوية كثيرا — وعاد الى مبدأ الشورى ، فكان يأخذ برأى مشايخ القبائل ورؤسائها فى تعيين ولاته وعماله ضاربا صفحا عن

---

(418) النفوسى : صفحة 204 .

(419) ثمة مثل أورده الدرجينى يدلل به على دور نفوسة فى مقاومة حركة نفاث ، جاء على لسان أحد المشايخ ويدعى أبو مهاصر ، قال « تنبح جروة ابى مهاصر لئلا يأكل الذئب الغنم ، وقد كاد يأكلها ، حتى أتت سلاق ويغوا .. هرب الذئب فآمنت الغنم . يعنى بالجروة نفسه ، وبالذيب نفاث بن نصر ، وبالغنم نفوسة ، وبالسلاق مهديا وعمروسا (من مشايخ الجبل) وهما من منزل يقال له ويغوا ، ويعنى يأكل الذيب الغنم ، استحواذ نفاث على أهل الجبل .. » انظر : طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 134 وعلى الرغم من تشكيك البرادى فى صحة هذا المثل — لان الشيخ مهدى النفوسى قتل أثناء حصار الامام عبد الوهاب بطرابلس سنة 196 هـ — فلا شك أن له دلالته على مدى نفوذ نفاث وامتداد دعوته ، فضلا عن دور نفوسة فى مطاردته حتى هرب الى الشرق وانصرف عنه معظم أتباعه . انظر : الجواهر المنتقاة : ورقة 106 .

(420) أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 .

(421) النفوسى : صفحة 210 .

(422) انظر : Lewcki : Melanges Berberes. P. 270.

(423) النفوسى : صفحة 183 ، Motylinski : Op. Cit. P. 6.

(424) تفيض تواريخ الاباضية بقصص وبطولات نادرة قام بها أفلح فى حربه مع النكار وبربر هوارة فى حياة والده . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعتراضات آل بيته فى هذا الصدد (425) . وفضلا عن ذلك فقد فـــرض رقابة دائبة على هؤلاء العمال والولاة حتى لا يتمادون فى ارهاق الرعية بالمغارم والجبايات ، والزمهم بمراعاة تعاليم المذهب فى سياستهم المالية ، ثم اتاح لهم مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم (426) ، فضمن بذلك اقرار العدالة مع لا مركزية الحكم وهو الاسلوب الامثل فى دولة يشكل البـــدو غالب سكانها . كما عول أفلح على استمالة القبائل اليه (427) ، وتخبرنا المراجع (428) عن حرصه على اتخاذ تراجمة يجيدون لغة البربر . وأفلح فى احداث نوع من التوازن بين هذه القبائل جنبه مشقة الدخول فى صراع معها . واتبع فى ذلك شتى ضروب الحيل ، فقد اخذ بالمبدأ المشهور « فرق تسد » (429) « فأرشى ما بين كل قبيلة ومجاورها » (430) ، « والقى موجبات التخالف بين كل مقدم واتباعه وبث الجواسيس بين شعوب تلك القبائل بطرق سياسية وتدبيرات باطنية كفته مئونة القتال » (431) .

لهذا اتسم عهد أفلح بالهدوء والاستقرار السياسى (432) ، وحظى بحب الاباضية واعجابهم (433) « فألقى بيده يمينا وشمالا ، وتمكن فـــى امامته واطردت له الامور » (434) ، ولم يبق فى أيامه منازع ، ولا اجمع جهاته الا طائع (435) . واعتبر مارسيه (436) عهد أفلح العصر الذهبى للدولة الرستمية ، اذ بعد موته فى سنة 258 هـ (437) (873 م) ضعفت هـــذه الدولـــة .

---

(425) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 25 .
(426) النفـــوسى : صفحـــة 188 .
(427) نفس المصـــدر : صفحـــة 68 ، Motylinski : Op. Cit. P. 6.
(428) انظر : ابن الصغير : ص 27 ، النفوسى : ص 68 .
(429) مارسيه : مادة بنى رستم ــ دائرة المعارف الاسلامية ص 94 ، Faroughy : Op. Cit. P. 15.

(430) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 27 .
(431) النفـــوسى : صفحـــة 183 .
(432) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 27 .
(433) نفس المصـــدر : صفحـــة 25 .
(434) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير ص 187 .
(435) الدرجينـــى : ج 1 ورقـــة 34 .
(436) انظر : مادة بنى رستم ــ دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .
(437) ذكر أبو زكريا أن أفلح ظل فى الامامة ستين عاما ، بينما يقول ابن الصغير أنه حكم خمسين عاما . ونحن نرجح رواية ابن الصغير ، ومن ثم تكون وفاته سنة 258 هـ على أساس توليه الامامة سنة 208 هـ كما سبق القول . وعلى ذلك فقد أخطأ النفوسى حين ذهب الى أن أفلح مات سنة 240 هـ . انظر : أبو زكريا : ورقة 31 ، ابـــن الصغيـــر : ص 25 ، النفوسى : ص 221 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا ـــ أتسمت هذه المرحلة من تاريخ بنى رستم بكثرة الثورات والفتن التى تلونت فى غالبها بالطابع المذهبى واتخذت شكل الانشقاقات المذهبية فى كيان الجماعة الاباضية . لكن هذه الثورات وان تمخضت عن انسلاخ بعض البقاع الشرقية عن سلطان الامامة فتاهرت ، الا انها لم تشكل خطرا على سلامة الدولة ذاتها ، وبفضل سياسة العنف والشدة التى اتبعها عبد الوهاب ، وبفضل دهاء افلح وحذقه السياسى تخطت الدولة الرستمية هذه الاخطار لتواجه مرحلة عصيبة فى تطورها السياسى .

الدور الثانى (258 ـــ 281 هـ) (788 ـــ 895 م)

الصراع القبلى والعنصرى :

قلنا أن الطابع الدينى غلب على المرحلة السابقة ، فشكل أحداثها ولونها بمسحة مذهبية واضحة وسبق القول أيضا أن قيام الدولة الرستمية كان على أساس مذهبى حيث اجتمع الاباضية من شتى العناصر والقبائل فى المغرب فى كنف الامامة الرستمية وليس على اساس عصبية قائمة بذاتها . ومن ثم كان المذهب الاباضى هو الرابطة الوحيدة التى جمعت بين هذه العصبيات المختلفة ، وبالضرورة فان انتهاك تعاليم المذهب وتحول الامامة الى ملك ، قد قضى على هذا الرباط الوثيق الذى جمع هذه العصبيات وفجر ما بينها من حزازات عصبية قبلية ونعرات عنصرية .

وقد بدت بوادر التناحر القبلى العنصرى داخل الدولة الرستمية فى عهد عبد الوهاب الذى تمكن من فض ائتلاف قبيلتى هوارة ولواتة ، ومحق تمرد هوارة حين أزمعت العصيان . كما أن افلح بن عبد الوهاب أخر من اندلاع هذا الصراع حينا بفضل حسن سياسته ، لكنه اسهم من ناحية أخرى بسياسته القائمة على التفرقة بين القبائل فى اذكاء النزعات القبلية والعنصرية التى بقيت فى الصدور الى أن « اخترمته المنية » (438) ثم تفجرت بعد وفاته فى شكل حروب دامية انهكت هذه العصبيات من ناحية وضعضعت نفوذ الائمة وهيبة الامامة من ناحية اخرى .

فقد ضمت الدولة الرستمية قبائل متعددة من البربر كهوارة ونفوسة ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية ، فضلا عن عناصر مختلفة من الفرس والعرب والجند الافريقى . وقد ساعدت فترة السلام الطويلة التى نعمت

---

(438) ابن الصغير : ص 27 ، محمد بن تاويت . دولة الرستميين . ص 122 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بها تاهرت أبان حكم أفلح بن عبد الوهاب على احداث تحـول خطير فى أحوال هذه العناصر والقوى المختلفة .

فالقبائل البدوية كلواتة وهوارة ومزاتة جنح معظمها الى الاقامـة حول تاهرت وآثرت حياة الاستقرار والاشتغال بالزراعة والتجارة حيث جنت منها أرباحا طائلة « فاتخذت العين والخيول ، ونالها من الكبر ما نال اهل المدينة » (439) أما نفوسة التى أقامت بعض بطونها فى العدوة فقد نالت حظوة الائمة وآثروها بالوظائف العامة « فكانت تلى عقد تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر فى الاسواق والاحتساب على الفساق » (440).

وبلغت العناصر الفارسية فى الدولة الرستمية شأوا كبيرا لكـون الائمة من أصل فارسى ، فأوكلوا اليهم قيادة الجيوش وأسمى المناصب ، فضلا عن سيطرتهم على النواحى التجارية والثقافية (441) ، فأقامـوا القصور والمنازل حول تاهرت « وشكلوا دولة داخل الدولة الرستمية » على حد قول فروخى (442) .

كما وفدت على تاهرت جموع من العرب والجند الافريقى بعد فشل ثوراتهم على الامراء الاغالبة (443) ، فأقبلوا على سكنى تاهرت هربا من بطش هؤلاء الامراء من ناحية ، وطمعا فى الثراء عن طريـق الاشتغـال بالتجارة التى ازدهرت فى عاصمة الرستميين من ناحية أخرى . ثم هناك قوة أخرى كانت ممثلة فى أجناد الائمة من أفراد البيت الرستمى الذيـن عرفوا « بالرستمية » (444) فضلا عن اتباع السمح بن أبى الخطاب الذين انشقوا على خلف بن السمح وهربوا الى تاهرت ودخلوا فى خدمة بنـى رستم ، وعرفوا لذلك « بالسمحية » (445) .

ويمكن تقسيم هذه القوى جميعا الى قسم موالى للامامة الرستمية، ويشمل نفوسة والفرس والرستمية والسمحية والآخر مناوىء لها يضـم

---

(439) ابـن الصغيـر : صفحـة 27 .
(440) نفس المصـدر والصفحـة .
(441) نفس المصدر : ص 26 ، 27 ، Lewcki : Melanges Berberes .. P. 273 Apersian dunasty in North Africa. P. 15.
(442) انظـر :
(443) النفـوسى : صفحـة 231 .
(444) ابـن الصغيـر : صفحـة 27 .
(445) نقل جورج مارسيه عن ابن الصغير تحريف كلمة « السمحية » الى « المسيحية » فقال بوجود عناصر مسيحية فى تاهرت وقفت الى جانب بنى رستم . انظر : ابن الصغير : ص 36 ، مارسيه : مادة بنى رستم ـ دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العرب والجند الافريقى فضلا عن بعض القبائل الضاربة حول تاهرت ، وان تأرجحت بعض هذه القوى بين الولاء والعداء لبنى رستم أحيانا .

تأججت نار الصراع القبلى والعنصرى على اثر وفاة أفلح بن عبد الوهاب فبادرت نفوسة بتنصيب ابنه أبى بكر اماما رغم اعتراض فقهاء المذهب (446) ، على خلاف ما أورده النفوسى (447) بأن اهل الحل والعقد من سائر القبائل والعصبيات هم الذين قاموا ببيعته . ومما زاد الطين بلة أن أبا بكر بن أفلح لم يكن جريئا قويا كجده عبد الوهاب ولا داهية حصيفا كأبيه أفلح ، بل كان غرا لين العريكة شغوفا بالآداب والتواريخ (448) ، ميالا الى الترف والملذات ، زاهدا فى الادارة والحكم (449) . ويبدو أنه حاول الاستعانة باحدى القوى الموجودة بتاهرت من دون نفوسة التى كانت تمقتها بقية العناصر الاخرى ، فوطد صلاته بالجند والعرب وصاهر زعيمهم محمد بن عرفة وسلم اليه مقاليد الدولة ، وركن الى الدعة والخمول . واستبد ابن عرفة بتصريف شؤون الامامة من دون الامام « حتى كانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد ابن عرفة » (450) .

ونظرا للعداء التقليدى بين كافة العناصر بتاهرت وبين العرب فقد خسر أبو بكر ولاءها جميعا باستثناء بعض بطون هوارة التى ارزته فى حين استاء بعضها الآخر من سياسته وغادروا المدينة واحوازها الى مواطنهم الاولى .

وبديهى أن ينقم الرستمية عليه سياسته وينضموا لنفوسة التى ساءها خذلانه اياها بعد أن أوصلته للامامة ، كما ساءها ارتماؤه فى أحضان الجند والعرب (451) أما الفرس فقد آثروا الحياد والتريث ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد لاغتصاب الامامة كلما سنحت الفرص (452) . وفى

---

(446) احتج الشيخ عبد العزيز بن الاوز — المعروف بتعمقه فى الفقه الاباضى — على ذلك مخاطبا نفوسة بقوله « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه آخر ، ولم تجعلوا الامر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو أتقى وأرضى » . انظر : ابن الصغير : ص 31 ، 47 .

(447) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 222 .

(448) ابن الصغير : صفحة 31 .

(449) نفس المصدر : صفحة 32 .

(450) نفس المصدر : صفحة 31 .

(451) نفس المصدر : ص 32 ، النفوسى : ص 224 .

(452) نفس المصدر : صفحة 32 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلك الظـــروف وصل ابـــو اليقظان محمد بن افلح ـــ اخ الامـــام ـــ الى تاهرت (453) وعهد اليه ابو بكر ببعض مسؤوليات الادارة والقضاء ، فسيرها على أحسن ما يكون ، حتى « حمد له الثراة ذلك » (454) .

واضمر ابو اليقظان حقدا على ابن عرفة وحزبه ، وساءه استبداده وتسلطه ، وشاركه فى ذلك نفوسة والرستمية ، فحرض اخاه على اغتيال ابن عرفة سرا (455) وتم له ما أراد (456) . ويحاول مؤرخو الاباضية انكار تدبير هذا الحادث ونفى قيام الامام بتنفيذه ، دفاعا عـــن آل البيت الرستمى . فأبو زكريا (457) والدرجينى (458) اكتفيا بالاشارة الى أن الناس فوجئوا بابن عرفة قتيلا دون ادنى اشارة الى ظروف مقتله ، امـــا النفوسى (459) فيبرىء ابا اليقظان من تهمة التحريض على قتل ابن عرفة، وينسبها الى احد نصحاء الامام . لكن هذه الروايات جميعا تضعف امام رواية ابن الصغير المالكى الذى يؤكد أن ابا اليقظان دبر الحادث . وأن ابا بكر نفذه . على كل حال ـــ تمخض الحادث عن نوع من الفوضى السياسية عمت تاهرت ، وتحفزت سائر القوى للخروج من هذه الفوضى ظافـــرة بالامامة ، ودخل بعضها مع البعض الآخر فى ائتلافات وتحالفات للافادة من الظروف . فقد هب العرب والجند مطالبين بثأر زعيمهم ابن عرفة ، وانضوا تحت لواء احدهم ويدعى محمود بن الوليلى (460) . كما وقفت الرستمية الى جانب الامام ابى بكر (461) . اما الفرس فتبعوا فى قصورهم خارج المدينة يدبرون أمر الاستيلاء عليها (462) . بينما لاذت قبائل البربر خارج تاهرت بالصمت مترقبة نتائج الصراع .

نشب القتال بين الجند والعرب من ناحية وبين الامام والرستمية من ناحية اخرى ، وقتل من الطرفين خلق كثير (463) . فاغتنم الفرس الفرصة

---

(453) كان ابو اليقظان اسيرا فى بغداد ، اذ قبض عليه عمال العباسيين وهو فى طريقه لاداء فريضة الحج ثم افرج عنه وعاد الى تاهرت . انظر : ابن الصغير : ص 31 .
(454) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 32 .
(455) نفس المصـــدر : صفحـــة 33 .
(456) عن تفصيل اغتيال ابن عرفة . انظر : ابن الصغير : ص 34 ـــ 36 .
(457) السيـــرة . ورقـــة 31 .
(458) طبقـــات الاباضيـــة ج 1 ورقة 37 .
(459) الازهار الرياضية . ج 2 ص 226 ، 227 .
(460) ابـــن الصغيـــر : ص 36 ، النفوسى : ص 230 .
(461) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 36 .
(462) نفس المصـــدر : صفحـــة 37 .
(463) ابن الصغير : ص 37 ، النفوسى : ص 231 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحاولوا الاستيلاء على تاهرت . عندئذ تضامن الرستمية مع الجند والعرب وتصدوا لقتال الفرس وأسروا منهم أعدادا غفيرة (464) . ثم انسحب الامام والرستمية من حلبة الصراع ، والحق الجند والعرب بالفرس عدة هزائم واضرموا النيران فى منازلهم . وخشى أبو اليقظان ونفوسة من خطر الجند والعرب فانضموا للفرس « وصارت كلمتهم وكلمة العجم واحدة » (465) .

واحتدم القتال بين الفريقين وتبادلا النصر والهزيمة الى ان اسفر الصراع عن انتصار الجند والعرب . وارغم أبو اليقظان وحلفاؤه على مغادرة المدينة ، فنزل الفرس بموضع يقال له تنابغيلت — على بعد مرحلتين من تاهرت — كما اعتصمت نفوسة بحصنها خارج المدينة ويعرف « بقلعة نفوسة » ، أما أبو اليقظان فلاذ بالرستمية بموضع يسمى أسكيدال جنوبى تاهرت (466) . وصفت المدينة للجند والعرب بعد أن اعتزل أبو بكر الامامة « وانسلخ منها » (467) ولحق اتباعه من الرستمية والسمحية بأبى اليقظان سنة 260 هـ (468) (874 م) .

لكن الجند والعرب لم ينعموا طويلا بالسيطرة على زمام الامور فى تاهرت ، فقد أقصاهم عنها بربر هوارة ، وآلت اليهم السلطة فيها طوال ثمان سنوات . ونحن نعلم ان بربر هوارة كانوا قد تمردوا على حكم الامام عبد الوهاب ، وأنه بطش بهم فتفرقت جموعهم ورحل معظمهم الى جبل ينجان ، وعاد الباقون الى مضاربهم جنوبى تاهرت كما نعلم أن فريقا من هؤلاء آزر ابا بكر بن أفلح فى بداية امامته بينما آثر فريق آخر اللحاق بجبل ينجان . ثم كان ما جرى من صراع بين سائر القوى فى تاهرت ، وظفر الجند والعرب فى النهاية بالسيطرة على زمام الموقف فيها . وأدى هذا الصراع الذى استمر عامين (469) الى اضعاف أطرافه جميعا ، فوجدت هوارة الفرصة مواتية للسيطرة على تاهرت . وقد غادرت جموع هوارة مضاربها

---

(464) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر : ص 232 .
(465) نفس المصدر : ص 38 ، نفس المصدر والصحيفة .
(466) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 235 .
(467) الدرجينى : ج 1 ورقة 37 والمصادر الاباضية لا تذكر شيئا عن مصير ابى بكر بن أفلح بعد اعتزاله الامامة . بينما يذكر ابن عذارى أن أهل تاهرت أعادوه الى المدينة حيث ظل بها حتى وفاته والراجح أنه عاد الى تاهرت بعودة أخيه أبى اليقظان محمد الذى تولى الامامة من بعده . انظر : ابن عذارى : البيان المغرب : ج 1 ص 278
(468) ابن الصغير : صفحة 39 .
(469) النفوسى : صفحة 236 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بجبل ينجان بزعامة شيخهم محمد بن مسالة (470) واقتحموا تاهرت دون عناء ، ونصبوا ابن مسالة أميرا عليهم (471) . وظل ابن مسالة « يدبر شؤونها ويدير أحوالها على حسب ما يراه » (472) وتخبرنا المراجع (473) ان حكمه اتسم بالهدوء والاستقرار .

لكن النعرات القبلية ما لبثت أن تجددت داخل تاهرت ، فوقع خلاف بين هوارة ولواتة انتهى بطرد اللواتيين خارجها ونزولهم بحصنهم القريب من اسكيدال حيث اقام ابو اليقظان والرستمية (474) . ثم حدث ائتلاف بين لواتة وابى اليقظان ، فأجمعت على بيعته بالامامة سنة 261 هـ (875 م) ، ثم بادرت غالبية القبائل ببيعته ايضا وانكسرت حكم ابن مسالة (475) وحاول أبو اليقظان دخول تاهرت عنوة دون جدوى وتكررت محاولاته طيلة سنوات سبع ، لم يفز فيها بطائل . فبعث يستمد العون من جبل نفوسة ، فأمدوه ، واستطاع دخول المدينة دون قتال سنة 268 هـ (882 م) بعد ان امن اهلها على ارواحهم وأموالهم (476) .

وكان على الامام ابى اليقظان ان ينهج سياسة الاعتدال وتهدئة الخواطر بعد ما عانته البلاد من حروب اهلية شاملة . وقد نجح فى ذلك انى ابعد الحدود بفضل ورعه وتقاه (477) وحرصه على مراعاة تعاليم المذهب فى احكامه ، ولا غرو فقد عرف بتفقهه فى المذهب وبتواليفه فى اصوله وفروعه والرد على مخالفيه (478) .

وقد حرص ابو اليقظان على اجتناب سياسة التعصب وايثار بعض القبائل والعناصر بمناصب الدولة دون البعض الآخر . وعلى الرغم من مساعدة نفوسة ومعاونتها له على دخول تاهرت ، قلل مما كانت تتمتع به من امتيازات فى عهود اسلافه ، فحرمها من تولى القضاء وابقى لها ادارة

---

(470) يعتقد ماسكراى ان ابن مسالة كان اباضيا نكاريا ،لكن المصادر لا تؤيد هذا الراى ، فالنفوسى يصفه بانه « اباضى المذهب » ومن المعروف ان مؤرخى الاباضية يعتبرون فرقة النكار مارقة على جماعة المذهب من الوهبية . انظر : الازهار الرياضية ج 2 صفحة 236 ، Chronique d'abou Zakaria. P. 195.

(471) النفوسى : صفحة 236 .

(472) نفس المصدر والصحيفة .

(473) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 236

(474) نفس المصدرين والصفحتين .

(475) ابن الصغير : ص 40 ، النفوسى : ص 238 .

(476) نفس المصدرين والصفحتين .

(477) ابن الصغير : صفحة 44 .

(478) أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 ، 37 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيت المال (479) والحسبة ، واتخذ ابو اليقظان مجلسا للمشورة يضم شيوخ القبائل ووجهاء كافة العناصر المقيمة بتاهرت (480) ، ولم يأنف من مخالطة رعاياه والجلوس اليهم لبحث شكواهم (481) . كما تسامح مع اتباع المذاهب والفرق الاخرى من الكوفيين والصفرية والمعتزلة والمالكية، واباح لهم الصلاة فى المساجد جميعا فيما عدا المسجد الجامع (482) ويحدثنا ابن الصغير (483) أن شيوخ هذه الفرق كانوا يدخلون فى محاورات ومناظرات — مع فقهاء الاباضية فى جو مفعم بالحرية والتسامح . واختار عماله ممن عرفوا بالورع والتقوى ، وزودهم بنصائحه وتوجيهاته وامرهم بقراءة نداء وجهه الى رعاياه ، حضهم فيه على اجتناب الفرقة واتباع سنة السلف الصالح (484) .

لذلك ، استقامت له الامور حتى شبهه النفوسى (485) بجده عبد الرحمن بن رستم ، كما روى عنه ابن الصغير (486) اقوالا وافعالا جعلت حكمه يحوز رضى كافة العناصر على اختلافها « فلم ينقم عليه أحد شيئا مما ولى من افعاله ما خلا اولاده فانهم ربما خرجوا عن الواجب من افعالهم » (487) .

والواقع أن ابن الصغير يكشف عن ظاهرة خطيرة بدأت بوادرها فى

---

(479) ابن الصغير : ص 41 وبرغم ذلك افتتنت نفوسة بحكمه ، فكان شيوخها يلازمون مجالسه ويقفون ببابه داره يهللون ويكبرون من أول الليل حتى الفجر . انظر : ابن الصغير : ص 47 ، أبو زكريا : ورقة 31 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 33 ، النفوسى :صفحة 245 .

(480) ابن الصغير : ص 44 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(481) ابن الصغير : صفحة 44 .

(482) نفس المصدر : صفحة 42 .

(483) نفس المصدر : ص 44 ، 45 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 92 .

(484) انظر : ملحق رقم (5) .

(485) الازهار الرياضية : ج 2 ص 240 .

(486) يزخر تاريخ ابن الصغير بعديد من القصص والروايات الدالة على عدل ابى اليقظان ونزاهته ، وحرصه على أموال الدولة ، اشبه ما تكون بتلك التى نسجت حول عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . انظر : سيرة الائمة الرستميين : ص 48 — 49 .

(487) نفس المصدر السابق : ص 48 . وثمة من القصص التى وردت عند ابن الصغير تصور اقدام ابنائه وخدامه وحراسه على اغتصاب الاموال وهتك الاعراض . انظر : سيرة الائمة الرستميين . ص 42 — 45 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخر عهد ابى اليقظان وتناقمت بعد موته (488) لتودى بالدولة الرستمية ، وهى مفاسد البلاط الرستمى ، وتفشى الخلاف الاسرى ، والتناحر على الحكم ، وما صحب ذلك كله من سقوط هيبة الامامة واضمحلال المذهب الاباضى ، وظهور الطوائف المذهبية المخالفة للاباضية ودورها فى توجيه احداث العصر الرستمى الاخير .

الدور الثالث (281 — 297 هـ) (895 — 909 م)

النزاع الاسرى وفتن الطوائف غير الاباضية

افضى التناحر القبلى والصراع العنصرى الى اضعاف شوكة — سائر العصبيات ، كما ادى الى انهيار هيبة الائمة وانتهاك مكانة الامامة ، حيث اصبح تنصيب الائمة وعزلهم لعبة فى ايدى عامة المدينة وغوغائها ،كما برز نفوذ البلاط ونفوذ نساء الاسرة الرستمية كعامل موجه لاحداث هذه الحقبة.

ووجدت الطوائف الدينية والمذهبية فى تلك الظروف فرصة سانحة « لتبييت خبر الاباضية » (489) واغتصاب الحكم فى تاهرت ، فعمدت الى التدخل فى النزاع بين افراد البيت الرستمى واذكاء الخصومة بين المتنازعين منهم على منصب الامامة تمهيدا للوثوب عليها . والراجح ان هذه الطوائف تواطأت مع قوى خارجية كالعباسيين والاغالبة والادارسة والشيعة الفواطم لاسقاط الحكم الرستمى .

فقد كانت تاهرت وما حولها موطنا لكثيرين من معتنقى المذاهب والفرق غير الاباضية . فكانت اقلية لها وزنها من الخوارج الصفرية تعيش فى كنف الدولة الرستمية ولهم حصن خاص بهم يسمى « تالغمت » بضواحى تاهرت (490) . كما كانت جموع المعتزلة تضرب خارج تاهرت متوثبة للانتقام لما حل بها على يد عبد الوهاب بن رستم . ويشير ابن الصغير (491)

---

(488) توفى ابو اليقظان محمد سنة 281 هـ ابن الصغير : ص 49 ، ابن عذارى : ج 1 ص 278 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 ، مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 93 . ولما كان قد تولى الامامة سنة 261 هـ حسبما ذكرنا سلفا ، فتكون مدة حكمه عشرين عاما ، وليست سبعا وعشرين كما ذكر ابن عذارى ، او اربعين عاما حسبما ذهب ابو زكريا ومن اخذ عنه . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 278 ، ابو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(489) ابن الصغير : صفحة 51 .

(490) النفوسى : صفحة 94 .

(491) سيرة الائمة الرستميين : صفحة 51 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى وجود كثير من الكوفيين والمالكية فى تاهرت ذاتها ، فى حين يذكر أبـــو زكريا (492) أن المذهب الشيعى كان له أنصار فى عاصمة الرستميين .

وقد ارتفع شأن هذه الطوائف والفرق فى تاهرت فى أواخـــر العصر الرستمى بسبب ضعف العصبيات القبلية والعنصرية من جـــراء الصراع بينها ، وبسبب سياسة التسامح التى اتبعها ابو اليقظان محمد فى أواخر سنى حكمه مع اتباع هذه المذاهب والفرق ، وحسبنا على ذلك دليلا ان خطب على بن أبى طالب كانت تتلى على منابر تاهرت (493) فلا مشاحة بعد ذلك اذا ما وجدنا هذه الطوائف والفرق غير الاباضية فضلا عن الشيع الاباضية المعادية للبيت الرستمى ـــ تتآمر على اسقاط حكم الرستميين بعد وفاة أبى اليقظان محمد وتولية ابنه أبى حاتم يوسف سنـــة 281 هـ (895 م) .

والواقع أن تنصيب أبى حاتم ينم عما وصلت اليه الامامة الاباضية من تدهور ومهانة ، فقد اختصه أبوه قبل وفاته بولاية عهده تحت تأثير زوجته غزالة (494) . وبعد موت أبى اليقظان « بادر العوام والفتيان دون القبائل » بمبايعته « فكبروا حوله وحملوه على الايدى والاعنـــاق حتـــى أوصلوه الى داره ، ثم أرسلوا الى القبائل فبايعته » (495) . وأثار ذلك استياء الرستمية فحاولوا ـــ دون جدوى ـــ الحفاظ على هيبة الامامة بحجب الامام ومنعه من مخالطة العوام « التى ارادت الدنو اليه فى كل الاوقات على ما كانت تعرف قبل امارته » (496) . ولهذا رحل يعقـــوب ابن أفلح ـــ عم أبى حاتم ـــ عن تاهرت ونزل عند زواغة «الخلفية» (497).

وشجع ذلك على تداخل الكوفيين وغيرهم من الطوائف المذهبية فى الامر وتوسيع شقة الخلاف بين الامام والرستمية وبين عوام المدينة (498) حتى اندلعت الحرب فى تاهرت من جديد (499) . والواقـــع أن مؤرخـــى

---

(492) السيرة واخبـار الائمة ورقة 36 .
(493) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 42 .
(494) نفس المصـــدر : صفحـــة 50 .
(495) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 265 ، Motylinski : Op. Cit. P. 7.
(496) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 50 .
(497) النفـــوسى : صفحـــة 266 .
(498) ابـــن الصغيـــر : صفحـــة 51 .
(499) ابـــن عـــذارى : ج 1 صفحـــة 278 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاباضية (500)يتغاضون عنذكر هذه المهازل التى تردت فيها امامةابى حاتم، فصوروه وقد « اطردت له الامور ، ولم ينقم عليه أحد من رعيته فى حكم ولا فعل » لكن ابن الصغير المالكى الذى عاصر تلك الفترة وعاين احداثها كشف لنا عما حاول هؤلاء المؤرخون اخفاءه . فيذكر أن مشايخ الكوفيين — على وجه الخصوص نجحوا فى تأليب العامة على ابى حاتم — ودبروا مع زعمائهم أمر اغتياله . وتنبه أبو حاتم لما دبر له ، فطرد هؤلاء الزعماء خارج تاهرت. لكن المشايخ انضموا للعامة وثاروا على ابى حاتم وطردوه ومن معه من الرستمية فضلا عن انصاره من نفوسة والعجم واعادوا زعماءهم الى المدينة (501) .

وعول ابو حاتم على تأليب القبائل ضد أهل المدينة ، وبذل الاموال لهذا الغرض ولجأ الى قبائل صنهاجة من غير الاباضية . وقدر له أن يحشد جموعا غفيرة من لواتة وصنهاجة والعجم فضلا عن نفوسة والرستمية زحف بهم الى المدينة وضرب عليها الحصار فى ثلاثة مواضع (502) . وكاد المحاصرون أن يستسلموا لابى حاتم ويعترفوا بامامته لولا اصراره على تسليم زعماء العامة وشيوخ الفرق ، فرفضوا واستأنفوا القتال ، وبعثوا فى استدعاء يعقوب بن أفلح من زواغة ، فأقبل ، وبايعوه بالامامة سنة 282 هـ (503) (896 م) .

وفت ذلك فى عضد ابى حاتم ، وفارقته لواتة وانضمت لعمه يعقوب (504) لكن ذلك لم يمنعه من معاودة الهجوم على تاهرت ، فهزم وفارقه العجم كذلك (505) . ثم عقدت هدنة بين الطرفين بفضل مساعى شيخ مزاتة (506) تمكن أبو حاتم خلالها من استمالة كثيرين من زعماء المدينة عن طريق الاموال والهبات . فعقدوا العزم على بيعته ، ولما علم يعقوب بن افلح بذلك غادر المدينة بمن معه من شيوخ الطوائف وتوجه الى

---

(500) انظر : ابو زكريا : ورقة 32 ، الدرجينى ج 1 ورقة 37 ، الشماخى : السير صفحة 262 .

(501) ابن الصغير : ص 51 ، النفوسى : ص 268 .

(502) نفس المصدر : ص 52 ، نفس المصدر : ص 270 .

(503) ابن الصغير : صفحة 53 .

(504) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 271 ، 272 .

(505) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر ، ص 272 .

(506) من المعروف أن مزاتة كانت تعتنق المذهب الاباضى ، وان كان اعتناقها اياه سطحيا انظر اليعقوبى : البلدان : ص 344 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

زواغة (507) بعد أن مكث فى الحكم اربعة اعوام (508) . ودخل ابو حاتم تاهرت سنة 286 هـ (900 م) فى حماية زعماء عامتها (509) .

ونعتقد ان ابا حاتم لم يكن بوسعه استرداد نفوذه الحقيقى على المدينة بعد عودته اليها بفضل زعماء العامة فيها . وبديهى أن ينعكس نفوذ اهل تاهرت على ما اتخذه من اجراءات عقب تقلده الامامة . فلم يكن بمقدوره الا أن يصدر عفوا عاما على سائر أهلها (510) ، وقد كان الى عهد قريب يشترط على زعمائهم والاقتصاص منهم حتى يفك الحصار الذى ضربه على تاهرت . كما أعوزته القدرة على البت فى سياسة الدولة بمفرده ، فقد شاركه فيها مشايخ المدينة « اباضية وغير اباضية » (511) ولم تعد مناصب الدولة حكرا على نفوسة والعجم ، بل برزت عناصر جديدة لم تتول مثل ذلك من قبل (512) وتحولت السلطة الحقيقية فى تاهرت الى هؤلاء العمال ، فكان صاحبا الشرطة «يأخذا بالتهمة ،ويضربا على الظنة» (513)، اما الامام فلم يكن له من السلطة سوى الاسم .

ويبدو أن يعقوب بن افلح ومن هرب معه من مشايخ الكوفيين كانوا من وراء حركة الطيب بن خلف بن السمح فى شرقى الدولة الرستمية ، ذلك ان يعقوبا غادر تاهرت ونزل على زواغة باحواز طرابلس سنة 286 هـ (900 م) كما ان زواغة كانت لا تزال على ولائها لتعاليم خلف بن السمح ، والتفت حول ابنه الطيب بعد وفاته . ولما كانت مضاربها مجاورة لمنازل نفوسة الموالية للاسرة الرستمية ، فقد كان الاحتكاك بينهما امرا لا محيد عنه . والواقع أن معلوماتنا فى هذا الصدد مستمدة من المصادر الاباضية التى تصور حركة الطيب وزواغة على انها تمرد من جانب زواغة لخروجها

---

(507) ابن الصغير : ص 56 ، النفوسى : ص 275 .
(508) ابن عذارى : ج 1 ص 278 .
(509) ابن الصغير : صفحة 56 .
(510) امتدح الشاعر بكر بن حماد التاهرتى ابا حاتم راجيا عفوه فى قصيدة منها :
نقلت جفانى يوسف بن محمد فطال على الليل وهو قصير
ابا حاتم ما كان ما كان بغضه ولكن اتت بعد الامور امور
واكرم عفو يؤثر الناس امره اذا ما عفى الانسان وهو قدير
انظر النفوسى : صفحة 276 .
(511) ابن الصغير : ص 56 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 103 .
(512) نستشف ذلك من اسمى عبد الله بن ابى الشيخ الذى ولى القضاء وابراهيم بن مسكين الذى ولى الشرطة ويخيل الينا انهما كانا من العرب المالكية والاحناف . انظر : ابن الصغير : ص 56 ، الشماخى : السير ، ص 263 .
(513) ابن الصغير : ص 56 ، الشماخى : السير ، ص 263 ، البرادى : الجواهر المنتقاة . ورقة 103 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على زعامة نفوسة (514) . ومع ذلك فالراجح أن يعقوب بن أفلح كان من وراء هذه الحركة مستهدفا اثارة القلاقل فى وجه أبى حاتم ، فليس من محض الصدف أن يثور الزواغيون فى هذا الوقت بعينه .

على كل حال — تحفل تواريخ الاباضية (515) بذكر انتصارات الياس ابن منصور على الطيب وانصاره من الخلفية الذين ولوا الادبار لائذين بجزيرة جربة وسيوف النفوسيين تجهز على فلولهم (516) وتشير هذه المصادر (517) الى ان الطيب اعتصم بقصر احد شيوخها ممن كانوا على مذهب خلف ، وان الياس بن منصور رشاه بالمال فسلمه اليه بدون قتال وعاد به الى الجبل حيث « عاد الى مذهب أهل الحق » وقضى على حركته .

ونعتقد أن السمحية من زواغة ويعقوب بن أفلح لم يركنوا للدعة بعض القبض على الطيب بن خلف وسجنه بجبل نفوسة على يد الياس بن منصور عامل الجبل من قبل أبى حاتم ، فقد كانوا على صلة بأفراد البيت الرستمى المناوئين لامامة ابى حاتم ، واشتركوا معهم فى تدبير مؤامرة اغتياله ، وكان الشيخ الزواغى ، السمحى أبو الخطاب وسيل بن سنتين همزة الوصل بين يعقوب بن افلح والمتآمرين من البيت الرستمى (518) حتى تمت المؤامرة بنجاح، وقتل أبو حاتم يوسف على يد أبناء أخيه سنة 294 هـ (906 م) (519) .

وآلت الامامة الى أحدهم ويدعى اليقظان بن ابى اليقظان محمد . ولا نعرف عن اخباره شيئا لعزوف الاباضية عن ذكر امامته باعتباره مغتصبا لها (520) . والراجح أن عهده اتسم بالقلاقل والفتن سواء من جانب الطوائف الدينية غير الاباضية التى كانت تطمح فى الامامة دون أن تنالها — أو من جانب أبناء أبى حاتم يوسف واتباعهم للاخذ بثأر أبيهم . وهذا يفهم

---

(514) ابو زكريا : ورقة 32 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 38 ، النفوسى : ص 38 .

(515) نفس المصادر والصفحات .

(516) لا غرابة فيما حدث من تتبع النفوسيين فلول زواغة والاجهاز عليهم ، علما بأن تعاليم المذهب الاباضى تحرم تتبع المدبر والاجهاز على الجرحى . انظر : الورجلانى : الدليل لاهل المقول ج 3 ص 54 . ذلك لان هذه التعاليم الاباضية تشترط فى الفار المدبر أن يكون بدون مأوى يلوذ به ، فان كان له مأوى جاز تتبعه وقتل حريمه . انظر : Motylinski : l'Aqida des Abadites. P. 512.

ولما كان للهاربين من زواغة مأوى فى جزيرة جربة ، استحل النفوسيون الاجهاز على فلولهم .

(517) ابو زكريا : ورقة 33 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 279 .

(518) النفوسى : صفحة 291 .

(519) ابن عذارى : ج 1 صفحة 278 .

(520) السوف : شرح السؤالات ورقة 99 .

من رواية لابى زكريا (521) تقول بان بنت ابى حاتم واخيها توجها الى ابى عبد الله الشيعى ودعوه لدخول تاهرت والانتقام من قتلة ابيهما ، وان المالكية والواصلية والشيعة والصفرية « شكوا اليه امارة الفرس » .

مهما كـان الامـر ، وضع الغزو الشيعى لتاهرت سنة 297 هـ (909 م) حدا لامامة اليقظان بن ابى اليقظان ونهاية للدولة الرستميـة برمتهـا .

وهكذا ـ كان تاريخ بنى رستم سلسلة من القلاقل والاضطرابات الداخلية ، اتخذت شكل الانشقاق المذهبى ، والصراع القبلى والعنصرى والتناحر الاسرى والطائفى .

---

(521) السيـرة ورقـة 36 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جـ - علاقات بني رستم الخارجية

تأثرت سياسة بنى رستم الخارجية بوضع دولتهم الجغرافى ومذهبها الدينى وظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية فقد كانت دولة صحراوية داخلية ، ولهذا لم نسمع عن نشاط بحرى لبنى رستم ولم يسهموا فى حركة الفتوح التى احتكرها جيرانهم الاغالبة فى الحوض الاوسط من البحر المتوسط . وقد حتم الوضع الجغرافى للدولة الرستمية وتشابك حدودها مع دول الاغالبة والادارسة وبنى مدرار ، ان تدخل فى علاقات مع هذه الدول على الرغم من جنوح ائمتها الى العزلة والانصراف الى مواجهة مشاكلهم الداخلية . لقد فرضت رابطة الجوار على بنى رستم أن يحددوا علاقاتهم بأمراء القيروان العباسيين ومن بعدهم الاغالبة السنة والادارسة العلويين وبنى مدرار الصفرية ، ان عداء وان ودا . وقد تأثرت هذه العلاقات بجانبيها الودى والعدائى — الى حد كبير — بمذهب الدولة الدينى ، فلما كان بنو رستم من الخوارج الاباضية فقد عادوا الحكم السنى بالقيروان والعلوى بفاس ، وهادنوا خوارج سجلماسة الصفرية . كما دعمت الظروف السياسية التى عاشتها الدولة الرستمية سياسة العداء للقيروان وفاس وسياسة المهادنة لسجلماسة ، فقد قامت الدولة على انقاض نفوذ الخلافة العباسية فى المغرب الاوسط ، وعجز عمال الخلافة فى القيروان عن الحيلولة دون قيامها ، لهذا كان على الاغالبة — عمال بنى العباس — أن يضطلعوا بتنفيذ مشيئة الخلافة فى مناهضتها . واذا كانت دولة الادارسة قد قامت فى المغرب الاقصى على حساب نفوذ الخوارج ، فلم يكن هناك مناص من عداء ائمة تاهرت لائمة فاس لاقتطاعهم بعض الاجزاء الشمالية الغربية من الدولة الرستمية . وقد اجتمعت الدولتان الرستمية والمدرارية على عداء القيروان وفاس ، ولهذا حرص حكامهما على الالتزام بسياسة حسن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجوار ازاء بعضهم البعض . ولما كان أمويو الاندلس يعادون العباسيين والاغالبة والادارسة ، فقد عقد بنو رستم معهم أواصر الصداقة والود . كما أوثقوا صلاتهم بأباضية المشرق لما جمعهم من وحدة المذهب الدينى والمصير السياسى . والحقيقة أن الرستميين انصرفوا لتوطيد صلاتهم بالجنوب مدفوعين بمصالحهم التجارية ، وساعد على ذلك ما كفلته الظروف الجغرافية من حماية طبيعية لقلب دولتهم ، فلم يناجزوا أعداءهم الا بما تقتضيه ضرورة الدفاع ، بل أحيانا كانوا يغضون الطرف عن أطماع جيرانهم فى أطراف الدولة ، فلم يحركوا ساكنا حين ضم الادارسة تلمسان وما حولها وسلخوها عن نفوذ تاهرت .

وقد كانت كافة حروبهم مع جيرانهم للدفاع فقط باستثناء مرة واحدة اتخذوا فيهاموقف الهجوم، لما حاصر عبد الوهاب بن رستمطرابلس سنة 196هـ (812 م) . كما لم تتعد صلاتهم الودية اكثر من تبادل السفارات والهدايا ولم تصل فقط لدرجة التحالف أو التعاون لمواجهة العدو المشترك . وعلى ذلك يمكن القول بأن سياسة بنى رستم الخارجية تامت فى جوهرها على تحاشى الاخطار والتزام الدفاع ، وكانت اميل الى السلم منها الى العدوان . ومع ذلك يمكن تقسيم هذه العلاقات الى شقين ، عدائية وودية ، فعلاقات بنى رستم بالعباسيين والاغالبة والادارسة كانت ذات طابع عدائى. أما علاقاتهم مع بنى مدرار وبنى أمية بالاندلس واباضية الشرق ، فقد اتسمت بالطابع الودى .

أ ــ العلاقات العدائية :

1 ــ بنو رستم والعباسيون :

لا يخفى ما كان بين بنى رستم وبنى العباس من خلاف مذهبى وعداء سياسى ، فقد تأصل هذا العداء مذ عمد العباسيون الى مناهضة حركات الخوارج ــ ومنهم الاباضية ــ فى الشرق ،والغرب على السواء . وحسبنا أن ما حل باباضية المغرب من كوارث انما تم على أيدى ولاة المنصور والرشيد بالقيروان منذ ولاية ابن الاشعث ومن تلاه من أمراء الاسرة المهلبية ، وقد لجأ عبد الرحمن بن رستم الى جوف الصحراء حيث اسس دولته هربا من هؤلاء الولاة واتقاء لبطشهم .

والواقع أن أباضية المغرب وجدوا فى دولة بنى رستم ملاذا حصينا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من خطر ولاة القيروان ، فلم يقدر لاى منهم أجتياح اراضى الدولة الرستمية بعد فشل محمد بن الاشعث فى حصار عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الاباضية بجبل سوفج سنة 145 هـ (762 م) بل حاول ابن رستم وجماعته الانتقام لما حل بالاباضية من بطش جيوش ابن الاشعث ، فخرج على راس خمسة عشر الف من رجاله لحصار عمر بن حفص بطبنة سنة 154 هـ (771 م) مع سائر اباضية المغرب وصفريته ، لكنه عاد مدحورا بعد هزيمته عند تهودة أمام جيش عمير بن معمر بن عيسى السعدى قائد عمر بن حفص (522) .

وبسبب هذه الهزيمة ، وما لحق اباضية المغرب الادنى من بطش يزيد بن حاتم (523) ، آثر عبد الرحمن بن رستم الانصراف الى تأسيس دولته دون أن يمضى فى مناجزة ولاة القيروان . فبعث الى روح بن حاتم طالبا مهادنته حتى يتفرغ لمواجهة الاعباء التى واكبت قيام دولته ويبدو ان الخلافة العباسية آنذاك تطلعت الى دعم نفوذها فى افريقية ، وغضت الطرف — الى حين — عن بسط سلطانها على بلاد المغرب الاوسط والاقصى، فقبل واليها على القيروان موادعة عبد الرحمن بن رستم (524) .

ومن الطبيعى أن تظل هذه السياسة قائمة فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن لما حفل به حكمه من قلاقل وثورات فى الوقت الذى جنح فيه روح بن حاتم الى السلم لتقدم العمر به . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد اى من الطرفين بادر بطلب الموادعة ، فمنهم (525) من يشير الى أن عبد الوهاب بن رستم هو الذى طلب من روح تجديد الهدنة ، ومنهم (526) من يذكر أن روحا طلب الموادعة . وان عبد الوهاب اجابه الى ما اراد . وقد خرج جوتييه (527) من الرواية الاولى بأن آراء القيروان اسقطوا من اعتبارهم استرداد نفوذهم على المغرب الاوسط فتغاضوا عن مناوءة الدولة الرستمية . بينما استخلص فورنل (528) من الرواية الثانية أن الدولة الرستمية أصبحت قادرة على الوقوف من ولاة القيروان موقف الند للند .

---

(522) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .
(523) ابن خلدون : نفس المصدر : ص 194 .
(524) النفوسى : صفحة 93 .
(525) انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 10 .
(526) ابن خلدون : ج 4 ص 194 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(527) Les Siecles Obscurs. P. 294.
(528) Les Berberes - Vol. I. P. 288

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومهما كان الامر ، فالذى يعنينا أن الطرفين جنحا الى السلم ، وآثرا العافية على الدخول فى صراع لم يكونا على استعداد لخوض غماره وتحمل مغبته .

واستمرت سياسة تحاشى الصدام بين ائمة تاهرت وامراء القيروان قائمة حتى سنة 184 هـ (800 م) . حين قامت دولة الاغالبة فى افريقية لترث اسباب العداء مع بنى رستم وتنوب عن بنى العباس فى الاضطلاع بمناهضة حكمهم .

ومن الجدير بالتنويه أن الموادعة بين امراء القيروان وائمة تاهرت لا تعنى انتفاء العداء بينهما ، فالعداء بين تاهرت وبغداد ظل قائما ، ولم يتوان الخلفاء عن اغتنام ما سنح لهم من فرص فى الكيد للدولة الرستمية واثارة المتاعب فى وجه ائمتها وادرك الرستميون ما اضمره بنو العباس لهم من خصومة وعداء ، فأحجم عبد الوهاب بن رستم عن أداء الحج خشية الوقوع فى يد « المسودة » (529) وبرر له فقهاء المذهب الاباضى عزوفه هذا « بعدم امان الطريق » ، فأمان الطريق — شرعا — من شروط الحج (530) .

وليس ببعيد أن يكون العباسيون قد توجسوا خيفة من اتصال ائمة تاهرت باباضية الشرق لتدبير المؤامرات وتنظيم الثورات المناوئة لحكمهم (531) ، ومن ثم درجوا على بث عيونهم لمراقبة وفود المغاربة فى مواسم الحج . ولعل فى حادثة القبض على الامير الرستمى ابى اليقظان محمد ابن افلح بمكة وايداعه السجن (532) ببغداد ما ينهضه دليلا على ذلك .

كذلك رحب العباسيون بالثوار الخارجين على بنى رستم ، ووجد هؤلاء فى بغداد ملاذا آمنا بعد اخفاق حركاتهم . والراجح أن العباسيين تعاونوا معهم على اسقاط الحكم الرستمى فى تاهرت ، فنفاث بن نصر الثائر على افلح بن عبد الوهاب الرستمى بادر بالهرب الى بغداد حين ضيق عليه عمال الامام على جبل نفوسة حتى اوشكوا على الظفر به . وتشيد مصادر الاباضية بما لقيه نفاث من حظوة وحفاوة فى بلاط الخلافة ، حتى أن الخليفة

---

(529) ابو زكريا : ورقة 23 ، النفوسى : ص 140 .
(530) ابو زكريا : ورقة 23 .
(531) ابن الصغير : صفحة 28 .
(532) عن حادثة القبض على ابن اليقظان محمد وسجنه ثم اطلاق سراحه . انظر : ابن الصغير : ص 27 — 29 ، ابو زكريا : ورقة 31 ، 32 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 ، 38 ، النفوسى : ص 259 — 264 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اطلعه على المحظور من امهات الكتب والدواوين فى المذهب الاباضى . وليس ببعيد ان يكون نفاث قد تآمر مع الخلافة على بث الشقاق فى الدولة الرستمية اثر عودته ، واذا كان لم يوفق فى النيل من سلطان تاهرت فى اقاليم الدولة الشرقية فان حسبه نجاحه فى احداث انقسام مذهبى سياسى وتكوين فرقة عرفت (بالنفاثية) ظلت معادية للسلطة الحاكمة فى تاهرت طوال عصر الدولة الرستمية .

وقد وضح تآمر بنى العباس على اسقاط امامة تاهرت فى العصر الرستمى الاخير ، فطائفة الكوفيين بتاهرت لعبت دورا بارزا فى مناوءة الامامة الرستمية فى ذلك الحين ، وتواطأت مع زعماء العامة فى العاصمة الرستمية لاقصاء ابى حاتم يوسف عن السلطة وطرده خارج المدينة (534). وفى وجود بكر بن حماد التاهرتى — أخ محمد بن حماد — زعيم عامة تاهرت — ببغداد (535) قبيل وقوع تلك الاحداث ، وعودته الى تاهرت واشتراكه فى تنحية ابى حاتم ثم اعتذاره اليه راجيا عفوه بعد عودته للسلطة (536) ، ما يشير الى تواطؤ الخلافة العباسية مع المارقين على بنى رستم وتدبيرهم المكايد ضد الدولة الرستمية وهذا كله يؤكد ما ذهبنا اليه من تأصل العداء بين الطرفين .

2 — بنو رستم والاغالبة :

اتخذت العلاقات بين بنى رستم والاغالبة طابعا عدائيا صرفا . وكان لذلك اسبابه المذهبية والسياسية والجغرافية ، فالاغالبة كانوا سنة ، ومذهب مالك المعروف بعدائه لسائر النحل المتطرفة ساد افريقية الاغلبية ، بينما تعصب بنو رستم للمذهب الاباضى ، وهو رغم اعتداله يذهب الى تكفير مخالفيه (537) وفضلا عن ذلك فالاغالبة كانوا عمال الخلافة العباسية وأداتها فى افريقية ، ورمز نفوذها الوحيد فى بلاد المغرب ، ولا غرو فقد قامت سياستهم الخارجية على مصادقة أصدقاء الخلافة ومعاداة أعدائها .

---

(533) انظر : ابو زكريا : ورقة 30 ، 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 ، 37 النفوسى : ص 206 — 209 .

(534) ابن الصغير : ص 51 ، النفوسى : ص 268 .

(535) المالكى : رياض النفوس : ج 1 ص 409 ، الدباغ : معالم الايمان : ج 2 ص 192 .

(536) النفوسى : صفحة 276 .

(537) المقصود هنا تكفير الحكام فقط وليس الرعية . انظر : البغدادى : الفرق بين الفرق صفحة 106 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن ثم كان على أمراء بنى الاغلب أن يناهضوا أئمة تاهرت جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها، كما لم يتقاعس بنو رستم عن مناجزة جيرانهم الاغالبة باعتبارهم أعداء سياسيين ومذهبيين على الرغم مما عرفوا به من المسالمة والحرص على تحاشى أسباب التطاول والصراع (538) .

لقد فرضت الظروف الجغرافية على الدولتين أن تتخذ العلاقات بينهما شكلا عدوانيا ، فلم يكن ثم محيد عن الصدام أمام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها . لقد أحاطت الدولة الرستمية بافريقية الاغلبية من الشرق والغرب والجنوب (539) ، ولم يكن هناك ما يمنع رعايا الدولتين من القبائل البدوية من الحركة والانتقال والاختلاط فى مناطق الحدود (540) ، ومن هنا اختلط الامر على بعض الجغرافيين (541) فنسبوا بعض البلدان والكور الرستمية — كغدامس وتهودة وودان — الى دولة الاغالبة . والذى يعنينا هو أن الصدام بين رعايا الدولتين فى مناطق الحدود كان لا ينقطع ، فاقليم الزاب ونواحى بلزمة شهدت صراعا داميا بين فقهاء المالكية واتباع المذهب الاباضى (542) . وجدير بالتنويه أن جمهور الاباضية بتلك النواحى لم يكن برمته مواليا للرستميين ، فجماعتى الخلفية من زواغة والنكار من هوارة — ومنازلهما جنوبى تونس — (543) كانتا على عداء مع بنى رستم ، وليس من المستبعد أن يكون الاغالبة قد اصطنعوا بعض هذه العناصر لاثارة العراقيل والقلاقل فى الدولة الرستمية ،يفسر هذا قول لوتورنو(544)بأن جماعات الاباضية بنواحى قسطيلية — بلاد الجريد — لم يتعرضوا لاضطهاد الاغالبة . ولكن الذى لا شك فيه أن جمهور الاباضية الوهبية من لواتة وهوارة فى تلك الاصقاع لقى عسفا وعنتا على أيدى بنى الاغلب وعمالهم (545) .

كما كانت حدود دولة الاغالبة الشرقية غير واضحة المعالم ، فقبائل نفوسة الاباضية كانت تضرب قرب طرابلس التابعة لبنى الاغلب ، وامتدت ديارها حتى مشارف القيروان ذاتها (546) . ومن ثم كانت هذه المناطق

---

(538) النفوسى : صفحة 93 ،
Gautier : Op. Cit. P. 294, Vonderheyden : Op. Cit. P. 267.

(539) انظر : الخريطة .
(540) مجهول : الاستبصار : ص 179 .
(541) راجع : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 87 .
Masqueray : Op. Cit. P. 220.
(542) ابن خلدون : العبر : ج 4 ص 203 ،
Lewcki : Etudes Ibadites. P. 73.
(543) ابن عذارى : ج 1 ص 167 ،
La Revolte d'Abou - Yazid. P. 105.
(544) انظر :
(545) ابن خلدون : ج 4 ص 203 .
(546) اليعقوبى : البلدان ص 349 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ميدانا حافلا بالصراع بين الدولتين الاغلبية والرستمية .

وليس صحيحا ما ذهب اليه مؤرخو الغرب (547) من انتفاء طابع العداء بين الاغالبة وبنى رستم وقولهم بأن كليهما نعم بحدود آمنة عازفا عن شهر السلاح فى وجه جاره . حقيقة ، لم يصل التشاحن بينهما الى حد يهدد وجودهما بسبب انشغال الاغالبة بمواجهة مشاكلهم الداخلية فضلا عن النشاط البحرى الذى ضربوا فيه بسهم وافر ، ونفس الشيء يقال عن بنى رستم واهتمامهم بحركة التجارة مع الجنوب . هذا فضلا عن بعد المسافة ووعورة الطرق بين تاهرت وافريقية ، فقد كانت المسافة بينهما مسيرة شهر على ظهور الابل (548) . لكن ذلك لا يعنى قط احجام حكام الدولتين عن الاغارة على املاك بعضهم البعض على امتداد الحدود ، وخاصة فى الجهات الشرقية ، بل دابوا على بث الفتن واثارة العراقيل وتحريض العناصر المعادية للحكم . واذا كان الرستميون الاوائل قد احرزوا النصر فى المرحلة الاولى فان الاغالبة ظفروا به بعد ذلك فى أواخر العصر الرستمى .

بدأ النزاع الرستمى الاغلبى فى منطقة طرابلس ، وسببه ان هذه المدينة كانت تابعة للاغالبة ، وقد امتد نفوذ عاملها على بعض بطون هوارة الاباضية الضاربة بجوارها ، وعدتها ثلاثمائة اسرة (549) . وبديهى أن يطمح هؤلاء الاباضية فى الاستقلال عن سلطان الاغالبة للدخول فى طاعة بنى رستم (550) ، فدابوا على اثارة المتاعب فى وجه العامل الاغلبى على طرابلس ، وغمدت جماعات منهم الى الاغارة على المدينة وبث الرعب بين سكانها (551) فكان عاملها يسرف فى الانتقام من الاباضية بها حتى لقد خرجت جموع غفيرة منهم ولجأوا الى الصحراء (552) . ويبدو انهم استمدوا العون من جيرانهم اباضية نفوسة ، فقد نجحوا عام 196 هـ (812 م) فى اجتياح طرابلس . والحقوا بها الخراب والدمار . وهب

---

(547) انظر : Vonderheyden : Op. Cit. P. 268,
Marcais : La Berberie Musulmane. P. 107,
Huart : Histoire des Arabes. Vol. I. P. 321.

(548) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 88 .

(549) المالكى : رياض النفوس : ج 1 ص 216 ، Idris : Contribution ... P. 199.

(550) ابو زكريا : ورقة 23 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 30 ، النفوسى : ص 146 .

(551) الانصارى ، نفحات القنسرين ورقة 7 — مخطوط ،
Brockelman : Op. Cit. P. 150.

(552) النفوسى : صفحة 144 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابراهيم بن الاغلب لاستنقاذ نفوذه ، فرمى الثوار بابنه عبد الله الذى افلح فى استرداد المدينة واثخن فى الاباضية تنكيلا ثم حصنها ببناء سور حولها (553) . واستعان الاباضية بالامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن — وكان اذ ذاك بجبل نفوسة — فاستجاب لهم وخرج على راس جيش من نفوسة وغيرها وضرب الحصار حول طرابلس (554) . ولم يستطع عبد الوهاب اقتحام المدينة ، فقد اغلق عبد الله الاغلبى ابوابها وباشر القتال من باب واحد وتمكن جنده من اغتيال بعض مشاهير الاباضية (555) ، كما استطاع عن طريق جواسيسه افساد خطط المحاصرين (556) .

وكاد عبد الوهاب ان يعود من حيث اتى ، لولا ان اسعفه الحظ بموت ابراهيم بن الاغلب واستدعاء ابنه عبد الله الى القيروان لتقلد الامارة (557) . فاضطر عبد الله الى التسليم بمطالب الرستميين فى انضمام اباضية هوارة الى دولتهم وانسلاخهم عن نفوذ عامل طرابلس الاغلبى ، ونص فى الاتفاق على ان « يكون البلد والبحر لعبد الله وما كان خارجا عن ذلك لعبد الوهاب » (558) هكذا انتصر عبد الوهاب بسبب اضطرار عبد الله الى وقف الحرب وعودته الى القيروان ، بل شجعه ذلك على الاجتراء على الاراضى الاغلبية ذاتها فضرب صفحا عن الاتفاق واستولى على قابس — وهى ميناء على البحر كان تابعا للاغالبة (559) — ، وكذلك آلت اليه بعض القرى والحصون الاخرى ثم عبرت جيوشه الى جزيرة جوبة واستولت عليها ، وعاد عبد الوهاب الى جبل نفوسة ومنه الى تاهرت بعد أن ولى عماله على هذه النواحى الجديدة (560) وشغل الاغالبة الاول بمشاكلهم الداخلية عن تصحيح الوضع على حدودهم الشرقية ، كما قنع الرستميون بما احرزوه من مكاسب ، ، ولم يتمادوا فى سياسة التوسع مغتنمين فرصة ثورات الجند فى افريقية على الامارة الاغلبية . وهذا

---

(553) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .
(554) نفس المصدر والصحيفة ، ابو زكريا : ورقة 21 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 150.
(555) ابو زكريا : ورقة 23 ، الشماخى : السير ص 160 .
(556) النفوسى : صفحة 145 .
(557) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .
(558) نفس المصدر والصحيفة ، الشماخى : السير : ص 161 .
(559) اليعقوبى : البلدان ص 349 ، 350 .
(560) ابن خلدون : ج 6 ص 122 ، الشماخى : السير : ص 161 ، النفوسى : صفحة 146 ، 147 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما حدا ببعض الاحزاب المعارضة لعبد الوهاب أن تستنكر فتوره « وقلة محاربته للمسودة (561) .

ودرج افلح بن عبد الوهاب ــ الذى اشتهر بالدهاء والسياسة ــ على تحريض اتباعه من البدو الاباضية المقيمين ببلاد الجريد لاثارة القلاقل فى دولة الاغالبة ، ويذكر ابن خلدون (562) انهم تمردوا على العامل الاغلبى بقسطيلية واردوه قتيلا ، وأن الامير أبى عقال الاغلبى سير اليهم الجيوش ، واستأصل شأفتهم ومن المشكوك فيه أن يكون أبو عقال قد قضى نهائيا على ثورات الاباضية فى افريقية الجنوبية ، ويبدو أن ذلك كان دافعا لخليفته الامير محمد الاغلبى على الاهتمام بتوطيد نفوذه فى تلك النواحى ففى سنة 239 هـ (854 م) اسس مدينة جديدة سماها العباسية فى بلاد الجريد لمواجهة أخطار الاباضية ، ولتكون قاعدة امامية للاغارة على تاهرت ذاتها فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية فى تجارة العبور (563) غير ان افلح بن عبد الوهاب بادر بمواجهة الخطر الاغلبى ، وافلح فى تدمير العباسية ، واضرم فيها النيران (564) .

كما حاول اباضية نفوسة وهوارة الاستيلاء على طرابلس فى عهد احمد بن محمد الاغلبى (242 ــ 249 هـ) (857 ــ 864 م) ولم ينقذها سوى جلب واليها الامدادات من القيروان فحال دون سقوطها سنة 245 هـ (860 م) . وهكذا اتسمت سياسة بنى رستم فى عهدى عبد الوهاب وافلح بالقوة فأمسكا بزمام المبادرة فى صراعهما مع الاغالبة ، ونجحا فى مواجهة أخطارهم بل واقتطاع أجزاء من دولتهم على أن الاغالبة سرعان ما رجحت كفتهم بعد موت افلح بن عبد الوهاب ، اذ منيت الدولة الرستمية بأخطار الصراع العنصرى والطائفى فى الداخل . فلم يعدم الاغالبة وجود صنائع واتباع عملوا لحسابهم فى مناهضة ائمة بنى رستم فى ذلك

---

(561) الشماخى : السير ص 194 . ويعنى الشماخى بالمسودة بنى الاغلب انصار العباسيين .

(562) العبر : ج 4 صفحة 200 .

(563) النفوسى : صفحة 189 ؛
Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 285.

(564) البلاذرى فتوح البلدان ص 277 ، ابن خلدون : ج 4 ص 200 ــ 201 ؛
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 513.

(565) ابن خلدون : ج 4 ص 201 ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 398.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحيـن (566) . ولا يخفـى دور شخـص يدعـى خلـف الخـادم ـ مـن موالـى الاغالبـة ـ فـى تاليـت الثـوار عـلـى ابـى بكر بن افلح حتى اقصوه عن الامامة وطردوه خارج تاهرت ويحدثنا ابن الصغير (567) انه كان يبذل الاموال للثوار بسخاء ، الامر الذى يدل على تواطؤ بنى الاغلب وتآمرهم على اسقاط الحكم الرستمى .

وفى سنة 267 هـ (881 م)اشتركت جيوش الاغالبة جنبا الى جنب مع اباضية نفوسة فى قتال جيش العباس بن احمد بن طولون ـ الذى خرج من مصر غازيا افريقية ـ ، وهذا لا يعنى عودة الوئام بين بنى رستـم والاغالبة فقد قاتلت نفوسة العباس لا « لانقاذ طرابلس وبنى الاغلب من ظلمه » كما ذهب النفوسى (568) ، ولا تلبية لطلب ابن قرهب عامل الاغالبة على طرابلس كما قال سعيد بن مقديش (569) ، وانما لان خطره هدد بنى الاغلب وبنى رستم على السواء (570) . فبعد استيلاء العباس على لبدة ، بطش بجمهور الاباضية هناك « وتعدى سودانه على بعض حـرم البوادى وهتكوا الحجب » (571) ولما كان هؤلاء من رعايا بنى رستم ، فقد استنجدوا بعاملهم على جبل نفوسة ويدعى الياس بن منصور فى الوقت الذى بعث فيه العباس اليه يدعوه للدخول فى طاعته (572) . فهب العامل الرستمى لدرء خطر العباس دون سابق اتفاق مع الاغالبة (573) . مصداق ذلك خـروج عامـل طرابلس الاغلبى على راس جيش انفذ اليه مـن القيروان والتحامه مع ابن طولون قبل قدوم الاباضية من نفوسة (574)

---

(566) ابـن الصغيـر : صفحـة 27 .

(567) سيرة الائمة الرستميين ص 37 ، النفوسى : ص 632 .

(568) انظر : الازهار الرياضية : ج 2 ص 255 .

(569) انظـر : نزهـة الانظـار ص 121 .

(570) Basset : Les Sanctures .. P. 93.

(571) ابـن عـذارى : ج 1 صفحـة 157 .

(572) ابن الداية : سيرة احمد بن طولون ص 61 . وقد جاء فى خطاب العباس الـى الياس بن منصور « .. اقبل بسمعك وطاعتك والا وطيت بلدك بخيلى ورجلـى وابحت رحبك » وجاء فى رد الياس « .. لقد بلغنى من قبيح افعالك مالا يسعنى التخلف معه عن جهادك . وانا على اثر رسالتى اليك » راجع : البلوى : سيرة احمد بن طولون ص 254 ، النفوسى : ص 258 .

(573) تصور بعض المصادر هذا الحادث باعتباره يخص كلا من الطرفين على حدة ، دون ادنى اشارة الى اشتراكهما فى مواجهته . انظر : الورجلانى : الدليل لاهل المعقول ج 3 ص 54 ، الخزرجى : اخبار الدول المنقطعة ورقة 29 ،
Lewcki : Etudes Ibadites. P. 49.

(574) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص 254 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقد وصلوا فى اليوم التالى (575) ، واشتركوا مع الاغالبة فى قتال العباس (576) . وحين هزم العباس ، استأثر الاغالبة بالمغانم والاموال الطائلة (577) دون الاباضية الذين رفضوها « زهدا وتعففا » على حد قول المصادر الاباضية (578) .

وعمد ابراهيم بن أحمد الاغلبى الى اتباع طرق شتى فى صراعه مع الرستميين الذين وقفوا موقف الدفاع . ففى سنة 269 هـ (883 م) أوغلت جيوشه فى مضارب القبائل الاباضية ببلاد الجريد ، وتمكن من وضع حد لشغبهم (579) . وبث الفرقة بين اباضية نفوسة باصطناع مسائل فقهية اختلف شيوخهم حول تأويلها (580) .

ويبدو انه فعل ذلك توطئة للاطاحة بمعقل القوة فى الدولة الرستمية، بغزو جبل نفوسة ، هذا هو ما حدث فعلا سنة 293 هـ (897 م) واختلفت الروايات فى تفسير دوافع هذا الغزو ، فبعضها (581) تعزوه الى اعتراض نفوسة الجيش الاغلبى الزاحف نحو مصر الطولونية ، وبعضها (582) الآخر يزعم أن الامير الاغلبى كان قادما على رأس جيش من بغداد لغزو تاهرت فاعترضته نفوسة دفاعا عن عاصمة الرستميين ، بينما يذهب ابن عذارى (583) الى أن جيش ابن الاغلب كان متوجها الى طرابلس لتأديب عاملها ، فاعترضته نفوسة ومنعته من المرور ، فى حين يقول الشماخى (584) باجتماع نفوسة على قتال الامير الاغلبى لانه « أفسد

---

(575) نفس المصدر : ص 255 ، النويرى : ج 26 ورقة 7 .
(576) البلوى : ص 255 ، المقريزى : الخطط ج 1 ص 320 .
(577) البلوى : ص 255 ، ابن عذارى : ج 1 ص 158 ، الشماخى : السير ص 225 . الورجلانى : ج 3 صفحة 54 .
(578) النفوسى : ص 257 ، الورجلانى : ج 3 ص 54 ومن المعروف ان المذهب الاباضى يقر الغنيمة فى حالة قتال مخالفيه فى المذهب . انظر : ابو غانم الصغرى : المدونة ورقة 43 ، السوفى : شرح السؤالات ورقة 173 .
(579) ابن خلدون : ج 4 صفحة 203 .
(580) ذكر الشماخى أن ابراهيم بن أحمد أهدى نفوسة سيفا ، فاختلف شيوخهم حول كيفية التصرف فيه فرأى البعض رده اليه ، ورفض البعض الاخر ، لانه عون له على باطلة ، بينما قال فريق ثالث بكسره ودفنه ، فاعترض الاخرون على ذلك « لان عطايا الملوك جائزة » ... فوقع بذلك خلاف أفضى الى شقاق بينهم » . انظر : السير : صفحة 264 .
(581) النويرى : ج 22 ورقة 37 ، Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 8.
(582) ابو زكريا : ورقة 33 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 281 .
(583) البيان المغرب ج 1 ص 173 ، 174 ، Vonderheyden : Op. Cit. P. 272, Zaki Hasan : Les Tulunde. P. 161.
(584) السير ، صفحة 268 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتعدى » وعلى الرغم من اختلاف هذه الروايات ، فهى تجمع على اعتراض اباضية نفوسة الجيش الاغلبى عند مكان يقال له قصر مانو — بين قابس وطرابلس (585) — سنة 283 هـ (897 م) فقامت معركة بين الطرفين قضى فيها على غالبية النفوسيين (586) وعلى اثر الاجهاز على نفوسة ، نزل الجيش الاغلبى على اباضية قنطرارة ونفزاوة فبطش بهم واسر جندهم (587) ، وسيق الاسرى الى القيروان حيث عذبوا ثم قتلوا (588). وفى العام التالى بعث الامير الاغلبى جيشا الى نفوسة اثخن فيها ، وعاد بثلاثمائة اسير قتلوا ومثل بهم « فنظمت قلوبهم فى حبال علقت على باب تونس » (589) .

وهكذا — شغلت الامامة فى تاهرت بمشاكل الصراع حول السلطة عن تقديم العون لاباضية المغرب الادنى (590) ، فتركوا وشأنهم يتلقون ضربات الاغالبة حتى وهنوا وضعفوا ، وبضعفهم تداعت الدولة الرستمية (591) ولولا ما حل بدولة الاغالبة من اضطراب سياسى فى عهدها الاخير ، وانصراف امرائها لمجابهة الخطر الشيعى ، لامكنهم غزو تاهرت نفسها ، واسقاط الاسرة الرستمية . لكن الدولتين المتعاديتين جمعتهما فى النهاية وحدة المصير ، فقد وقعتا فريسة للغزو الشيعى سنة 297 هـ (909 م) .

3 — بنو رستم والادارسة :

رغم ما ساد علاقات بنى رستم بالأدارسة من عداء نتيجة خلافاتهم المذهبية والاجتماعية والسياسية فان المصادر الاباضية تلوذ بالصمت التام فلا تذكر شيئا البتة عن هذه العلاقات ،وقد فسر كثيرون من الدارسين(592) هذا الصمت على انه دليل على ما ساد هذه العلاقات من طابع الود وحسن

---

(585) ابو زكريا : ورقة 33 .
(586) نفس المصدر : ورقة 34 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 40 .
(587) نفس المصدر والصحيفة .
(588) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 3 ، النويرى : ج 22 ورقة 37 .
(589) ابن عذارى : ج 1 ص 174 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 576.
(590) النفوسى ص 286 .
(591) الدرجينى : ج 1 ورقة 41 .
(592) انظر : محمد بن تاويت : دولة الرستميين ص 117 ، محمد على دبور : المغرب الكبير ج 2 ص 387 ، حسن عبد الموات : دولة الادارسة ص 245 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجوار ،لكن كتابا آخرون ذكروا (593) حقيقة هذه العلاقات وانطوائهاعلى الخصومة والعداء . وسبب هذا العداء ان الادارسة كانوا من الشيعة الزيدية بينما كان بنو رستم من الخوارج الاباضية ، كذلك كانت دولة الادارسة دولة حضر ، بينما غلب الطابع البدوى على الدولة الرستمية . هذا فضلا عما كان بينهما من تنافر سياسى ــ بسبب صداقة بنى رستم لبنى مدرار والامويين فى الاندلس أعداء الادارسة ــ على الرغم من اشتراكهما فى معاداة الخلافة العباسية .

وجدير بالذكر أن الادارسة ــ مدفوعين بهذه الخصومة المذهبية والتباين الاجتماعى والعداء السياسى ــ عولوا على الاغارة علىاملاك دولة الرستميين واقتطاع بعض أجزائها ، بينما ركن الرستميون الى المسالمة لقصور فى قوتهم ، فلم يكن بوسعهم مناجزة جيرانهم الاقوياء ، واذا كانت غزوات الادارسة لم تشكل خطرا على حكومة تاهرت ــ حسبما اعتقد ماسكراى (594) ، فحسبهم اقتطاع اقليم تلمسان ــ وسكانه من مغراوة وبنى يفرن الزناتيين ــ من بنى رستم وضمه الى دولتهم .

ولم يكن ثمة ما يحول دون احتكاك الادارسة بجيرانهم الرستميين ، خاصة وان دولتهم ارتبطت فى قيامها وتوسعها بخوارج المغربين الاقصى والاوسط فغالبية القبائل التى بايعت ادريس الاول كانت على مذهب الخوارج ، فزناتة ، وزواغة ولماية ولواتة وسدراتة ونفزة ــ وهى اباضية المذهب ــ رحبت بادريس الاول ودخلت فى طاعته (595) ، وان ظلتبعض بطونها علىمذهبها وولائها لبنىرستم .وكان علىادريس وخلفائه أن يدخلوا فى صراع مع بنى رستم اذا ما أرادوا التوسع شرقا لضم هذه البطون واستئصال شأفة الخوارج فى منطقة تلمسان وأسافل شلف ، وقد تحقق لهم ذلك بالفعل فيما يتعلق بأباضية زناتة بالذات (596) .

---

(593) انظر : Masqueray : Op. Cit. P. L XXIV, Gautier : Op. Cit. P. 295.

(594) انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 220.

(595) ابن ابى زرع : القرطاس ص 16 ــ 18 ، ابن خلدون : ج 4 ص 12 ، الكتانى : المغرب : ورقة 13 مخطوط ، محمد على السنوسى ، الدرر السنية ص 44 ، Gautier : Op. Cit. P. 274.

(596) تصور بعض المصادر ان الادارسة نجحوا فى اقتطاع كافة الاجزاء الشمالية من الدولة الرستمية حتى لاصقت حدودها الشرقية دولة الاغالبة . انظر : عبد الرحمن ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس : ج 2 ص 5 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى : صفحة 221 Vonderheyden : Op. Cit. P. 274. لكن الواقع أن بنى رستم احتفظوا بنفوذهم على بعض هذه الجهات حيث شكلت املاكهم حاجزا بين الاغالبة والادارسة . انظر اليعقوبى : البلدان ص 352 Gautier : Op. Cit. P. 295.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ففى سنة 173 هـ (789 م) توجه ادريس الاول على رأس جيش للاستيلاء على تلمسان واخضاع قبائل مغراوة وبنى يفرن وغيرهم من الخوارج الصفرية والاباضية (597) ، وتمكن من دخولها دون كبير جهد (598) .

ونجح فى توحيد جموع زناتة فى غربى بلاد المغرب تحت لوائه ، واستولى على مدينة ذات اهمية استراتيجية خاصة « فتلمسان قفل بلاد المغرب » (599) ذات شهرة تجارية عريضة (600) ، فضلا عن قوة بشرية كبيرة (601) سلخها عن نفوذ دولتى الخوارج .

ويبدو أن الامام عبد الوهاب الرستمى حاول استعادة نفوذه فى هذه النواحى ، لكنه لم يجرؤ على غزو تلمسان (602) . ولم يكن بوسعه سوى تأليب انصاره من بنى يفرن ، فقاموا بالثورة على الادارسة ، وظلوا بمنأى عن نفوذهم الى أن اخضعهم ادريس الثانى سنة 197 هـ (813 م) فدانوا له بالطاعة من جديد وتخلوا نهائيا عن مذهب الخوارج (603) . بل حاول زعماء مغراوة وبنى يفرن اغراء بنى رستم للدخول فى طاعة الادارسة ، فلم يستجيبوا ، وناصبوهم العداء ودخلوا معهم فى حروب فتت فى عضد بنى رستم على عكس ما يذكره مارسيه (604) من « خروج تاهرت ظافرة من هذا الصراع » فالثابت أن الامامة الرستمية لم تقم بمحاولة جدية فى هذا الصدد ، واقتصر الامر على مجرد اغارات محدودة قامت بها جماعات من نفوسة ردا على اعتداءات بنى يفرن على رعايا الدولة الرستمية (605).

وفضلا عن اغارات بنى يفرن ومغراوة على الاطراف الشمالية للدولة الرستمية حرص الادارسة على اثارة العراقيل فى تاهرت نفسها ، ولا يخامرنا شك فى أن ادريس الثانى كان من وراء تمرد الواصلية على عبد

---

(597) نعلم أن عبد الرحمن بن رستم تزوج من يفرنية وانجب منها ابنه عبد الوهاب ، انظر : ابو زكريا : ورقة 14 ، النفوسى : ص 100 ، Masqueray : Op. Cit. P. 57.

(598) ابن أبى زرع : ص 22 ، الكتانى : الازهار . ص 5 ، الجزنائى : زهرة الآس صفحة 10 .

(599) سعيد بن مقديش : صفحة 18 .

(600) البكرى : صفحة 76 .

(601) اليعقوبى : البلدان : صفحة 80 .

(602) ابن الصغير : صفحة 17 .

(603) ابن أبى زرع : ص 69 ، الجزنائى : ص 22 : محمد على السنوسى : الدرر السنية ص 45 ، سلفاتوركوسا : تواريخ مدينة فاس . ص 4 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique . Septentrionale . P. 89.

(604) انظر : مادة بنى رستم ــ دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 .

(605) الشماخى : السير : ص 197 ــ 198 Lewcki : etudes Ibadites. P. 36.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوهاب الرستمى سنة 195 هـ (606) (811 م) ، فمن المعروف أن طنجة كانت معقلا لواصلية المغرب (607) ، وأن أوربة دانت بمذهب الواصلية ، كما اقبلت بعض بطون زناتة على اعتناقه كذلك (608) ، ومعلوم أن أوربة كانت عصب دولة الادارسة ، وأن ولاء زناتة الغرب تحول الى بنى ادريس .وبديهى الا تقطع الصلة بين الواصلية الضاربين خارج تاهرت وبين معاقلهم فى دولة الادارسة ، وليس غريبا اقدام الادارسة على استغلال هذه الصلة فى اثارة المراقيل أمام خصومهم من بنى رستم ، مصداق ذلك قول ابى زكريا (609) « فتكاثفت كلمة الواصلية ، واجتمعوا من كل نقب ، وجاءوا من كل أوب . . واظهروا مخالفة الامام » .

واغلب الظن أن ثورات هوارة على الائمة الرستميين لم تخل كذلك من تحريض الادارسة ، فمواطنها الاصلية كانت داخل دولة الادارسة (610) حيث اتخذت من جبل ينجان معقلا وملاذا حين تعرضت لبطش عبد الوهاب ابن رستم . ومن المرجح أن تكون حركتها التى انتهت باستيلاء زعيمها محمد ابن مسالة على السلطة فى تاهرت سنة 260 هـ (874 م) قد تمت بمساعدة آل ادريس وتحريض منهم .

ومن المحقق أن تلك المؤامرات التى امعن الادارسة فى نسج خيوطها لم تقابل بأدنى مبادرة من قبل بنى رستم للرد عليها ، وذلك مما يشكك فى تصور جوتييه (611) للعلاقات الرستمية الادريسية على انها موجات من « الافعال وردودها » ، ولا محل لتصديقه فى تعليل انشاء مدينة فاس بخوف ادريس الثانى من تآمر بنى رستم على دولته بالتواطؤ مع العناصر الحانقة على آل ادريس داخل بلادهم .

لم يكن بوسع الائمة الرستميين مجاراة الادارسة فى تدبير المكائد ، واحداث الشقاق ، كما عزفوا نهائيا عن محاولة استرداد نفوذهم المفقود فى الاقاليم الشمالية والساحلية ، على الرغم مما حل بدولة الادارسة من

---

(606) ابو زكريا : ورقة 19 ، محمد على دبوز : ج 3 ص 485 ، حسن عبد العواد : دولة الادارسة : ص 246 .
(607) قدامة بن جعفر : الخراج ص 295 ، النفوسى : ص 116 .
(608) ابو زكريا : ورقة 19 .
(609) السيرة واخبار الائمة ورقة 29 .
(610) ابن خلدون : ج 4 صفحة 14 .
(611) Les siecles obscurs. P. P. 290, 291.
(612) ابن خلدون : ج 4 ص 14 ، Julien : Op. Cit. P. 344.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضعف وتفتت اثر وفاة ادريس الثانى سنة 213 هـ (828 م) (612) . فقد آلت تلمسان وما حولها الى آل سليمان (613) واضحت ولاية حاجزة بين الدولتين . وقد تعرضت ولاية تلمسان للتجزئة والتمزق السياسى أيضا ، فقسمت الى ثلاثة اقسام بين أبناء محمد بن سليمان ، اذ استقل ابنه محمد بمدينة تلمسان وعيسى بأرشقول ، أما جراوة فكانت من نصيب ادريس ثم آلت الى ابنه عيسى المكنى بأبى العيش (614) . هذه الفرقة السياسية (615) افضت الى اضعافهم جميعا الامر الذى حدا بفورنل (616) الى الاعتقاد باستعادة زناتة لنفوذها القديم فى هذه الجهات . ومع ذلك لم تسلم الدولة الرستمية من أخطارهم ومؤامراتهم .

لقد ضعفت الدولة الرستمية بعد أفلح ابن عبد الوهاب ، وشغل ائمتها بأحداث تاهرت وما جاورها ، فاجترأ أمراء آل سليمان على اقتطاع بعض البلاد والقلاع التابعة لبنى رستم (617) ، كمدينة الخضراء وسوق ابراهيم وغيرها (618) بعد البطش بسكانها من الاباضية (619) ، دون أن يحرك ائمة تاهرت ساكنا (620) . وفضلا عن ذلك فقد اسهموا فى اثارة

---

(613) ينتسب آل سليمان الى سليمان بن عبد الله ــ أخ ادريس الاكبر ــ الذى نجا من معركة فخ ولحق بأخيه فى المغرب الاقصى بعد تأسيس دولة الادارسة سنة 172 هـ ولما فتح ادريس تلمسان جعل سليمان واليا عليها . ويخيل الينا أنه غادر تلمسان بعد ثورة زناتة بزعامة محمد بن خزر واتجه الى نواحى تاهرت حيث لم يطب له المقام هناك طويلا . ويبدو ان خلافا وقع بينه وبين راشد ــ مولى الادارسة ــ بعد موت ادريس الاول جعله لا ينزل وليلى على اثر ثورة ابن خزر ويتجه الى نواحى تاهرت . لكنه ما لبث أن لحق بادريس الثانى حيث شب عن الطوق ، وصحبه فى حملته على تلمسان لاستردادها وقد مات ابان اقامة ادريس الثانى فى تلمسان ، وخلفه ابنه محمد فى ولايتها من قبل ادريس الثانى . انظر : البكرى : ص 77 ، ابن خلدون : ج 4 ص 17 ، سلفاتور كوسا : ص 14 . مبارك الميلى : تاريخ الجزائر ج 2 ص 49 ،
Lavoix : Catalogue des Monnaies .. P. 398.

(614) ابــن خلــدون : ج 4 ص 17 .

(615) من مظاهر استقلال هذه الامارات حرص امرائها على سك عملة خاصة بهم خالية من أى اشارة الى تبعيتهم للادارسة . وهاك صورة لدينار ــ ضرب فى سوق ابراهيم فى عهد أحمد بن عيسى : الوجه : لا اله الا الله وحده لا شريك له . الكتابة الدائرية : لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . الوجه الاخر : محمد رسول الله ــ أحمد بن عيسى . انظر : Lavoix : Op. Cit. P. 397.

(616) Les Berberes. Vol. 2. P. 13.

(617) المقــدسى : صفحــة 218 .

(618) اليعقوبى : البلدان : ص 352 ، 353 .

(619) النفــوسى : صفحــة 70 .

(620) يرى الاستاذ محمد على دبوز أن بنى رستم تنازلوا من هذه البلاد طائعين مختارين لآل سليمان العلويين . وهو رأى يجانب الصواب بالقياس الى ما كان بين الطرفين مــن خصومة سياسية وعداء مذهبى . انظر : المغرب الكبير : ج 3 ص 336 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفتن والثورات التى أضعفت الحكم الرستمى فى سنيه الاخيرة ، فبكر بن حماد ـــ اخ محمد بن حماد زعيم الثوار على أبى حاتم يوسف ـــ كان على صلة مريبة بأبى العيش عيسى بن ادريس العلوى حاكم جراوة (621) ، وبأحمد بن القاسم بن ادريس حاكم مدينة كرت (622) . ولما اخفقت الثورة ، واستعاد ابو حاتم الامامة هرب كثيرون من الثوار لائذيـــن بآل سليمـــان والادارســـة (623) .

هكذا ـــ اتسمت علاقات بنى رستم السياسية مع الادارسة بطابع العداء ، واسفر الصراع بين الدولتين عن تغلب الادارســـة واستكانـــة بنـــى رستـــم .

ب ـــ العـــلاقـــات الـــوديـــة :

1) بنـــو رستـــم وأباضيـــة الشرق :

سبق القول بأن اباضية الشرق عمدوا الى اساليب الدعوة السريـــة والتنظيم السياسى على اثر فشل حركة عبد الله بن اباض التميمى فى عهد مروان ابن محمد الاموى ، فطفقوا يرسلون من مركزهم فى البصرة دعـــاتهم الى الامصار المتطرفة كخراسان وجنوبى الجزيرة العربية والمغرب لنشر المذهب الاباضى واقامة دولة اباضية خالصة ، واسفرت هذه الجهود عن فشـــل الدعوة فى خراسان ، ونجاحها فى الجزيرة العربية والمغرب .

ففى جنوبى الجزيرة العربية ، قامت دولة اباضية ضمت عمان واليمن وبعض اقاليم الحجاز برئاسة أبى عبد الله بن يحيى الكندى ، المعروف بطالب الحق ، والتى سقطت سنة 130 هـ (748 م) غير أن فلول الاباضية تمركزوا فى حضر موت بزعامة الجلندى الذى قتل سنة 134 هـ على يد الجيوش العباسية (624) . ولم يحل ذلك دون قيام دويلات للاباضية فى عمان . كان

---

(621) ساق بكر بن حماد ابياتا من الشعر امتدح بها ابا العيش تدلل على هذه الصلة ، منها :

سائـــل زواغـــة عن طعان سيوفـــه ورمـــاحـــه فـــى العـــارض المتهلـــل
وديـــار نفـــزة كيف داس حـــريمهـــا والخيـــل تمـــرغ فى الوشيـــح الذيل

انظـــر : النفـــوسى : صفحـــة 70 .

(622) النفـــوسى : صفحـــة 74 .

(623) نفس المصـــدر : صفحـــة 77 .

(624) ابن الاثير : ج 5 ص 145 ، 169 ، احمد امين : ضحى الاسلام : ج 3 ص 338 . ولا صحة للرواية القائلة بمعاصرة الجلندى لامامة عبد الرحمن بن رستم . انظر : اطفيش : الامكـــان . صفحـــة 107 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

آخرها امامة الصلت بن مالك التى دالت سنة 280 هـ (625) ، (896 م) . وكانت هذه الحكومات الاباضية فى عمان على نسق الدولة الرستمية فى المغرب ومعاصرة لها . وكانت وثيقة الصلة بجماعة الاباضية الام فى البصرة . فضلا عن مشايخ المذهب بمكة والمدينة (626) ولم يكن هناك ثمة ما يحول دون التقاء أباضية عمان واباضية المغرب — واغلبهم من نفوسة (627) — فى مواسم الحج (628) وان كنا نشك فى وجود صلات وثيقة بينهما ، فالمصادر خلو من ذلك تماما فى الوقت الذى تزخر فيه بالكثير عن صلات أباضية البصرة بعمان وتاهرت وحرصهم على دعم الحكم الاباضى فيها (629) .

لقد ظل التنظيم السياسى السرى لاباضية البصرة قائما يتداول رئاسته فقهاء المذهب جيلا بعد جيل رغم عنف الضربات التى كالها بنو العباس للخوارج فى المشرق . واستمرت صلاتهم بأباضية المغرب ابان مرحلة الثورة وبعدها ، لما جنحوا الى الاستقرار السياسى واقاموا دولة بنى رستم .

وفى كلتى المرحلتين دابوا على دعم أباضية المغرب ماديا وروحيا ، فأرسلوا اليهم الاموال ، وافتوهم فى مشاكلهم السياسية والمذهبية ، وتدخلوا لتسوية خلافاتهم بابداء النصائح وارسال البعوث . كما حرص زعماء اباضية المغرب على الاستنارة بخبرة شيوخهم المشارقة فى السياسة والحكم والاستزادة من تبحرهم فى العلم وتفقههم فى المذهب ، فدابوا على انفاذ بعوثهم للدراسة على مشايخ البصرة ، وحكموهم فيما عن لهم من مشاكل وخلافات ، واستمدوا منهم الكتب والتآليف وخاصة ما تعلق منها بالمذهب الاباضى .

وقد سبقت الاشارة الى دور أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة فى التنظيم والاعداد لامامة أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمح ، ومتابعته أحوالها ، وحرصه على تجنيب أباضية المغرب الخلاف والشقاق الذى

---

(625) المسعودى : مروج الذهب : ج 4 ص 245 .

(626) الوسيانى : سير أبى الربيع ورقة 3 ، Masqueray : Op. Cit. P. XIVI

(627) الوسيانى : نفس المصدر والصحيفة .

(628) يذكر مارسيه أنه عن طريق هؤلاء الحجاج انتقلت بعض الانماط الفنية من بلاد المغرب الى مصر ، وخاصة تلك التقاليد الفنية المتعلقة بكنائس المغرب ، فقد وجدت طريقها الى الاديرة المصرية بعد تلونها بلون قبطى خاص . انظر :
La Berberie Musulmane. P. 116.

(629) الشماخى : صفحة 114 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سببته مسألة الحارث وعبد الجبار .

وبديهى أن تتوطد هذه الصلات بقيام دولة بنى رستم ، وحسبنا أن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم تتلمذ فى حلقة أبى عبيدة بالبصرة ، ونجاحه فى تأسيس دولة اباضية بالمغرب اعتبر نصرا لاباضية المشرق أيضا ، فقد نظروا اليه باعتباره « امام الظهور » (630) لسائر اتباع المذهب فى كافة أرجاء العالم الاسلامى .

ويبدو أن جماعة هائلة من اباضية الشرق هرعوا الى تاهرت بعد انشائها هروبا من بطش بنى العباس ورغبة فى العيش فى كنف الدولة الرستمية (631) فقد تطلع اباضية الشرق الى قيام دولة لهم تضم المشرق والمغرب معا (632) ، فانبروا يعضدون الدولة الرستمية ، وبادروا بانفاذ المساعدات المالية ليستعين بها عبد الرحمن بن رستم على مواجهة مشاكل دولته آملين أن تكون نواة للدولة الكبرى المنشودة . وليس أدل على تعاطف ابن رستم مع اباضية الشرق من رفضه لمزيد من هذه الاموال حين تدعمت دولته واشتد ساعدها (633) .

كذلك جزعت جماعة المذهب فى الشرق لما ظهرت الاضطرابات والانشقاقات فى الدولة الرستمية فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن وخاصة ما مس الجانب المذهبى منها ، كانشقاقات النكار والخلفية وما انتهت اليه من افتراق الاباضية فى المغرب . وجدير بالتنويه أن المتخاصمين كانوا يحتكمون فى خلافاتهم الى مشايخ المذهب فى الشرق ، فقد هادن يزيد ابن فندين — زعيم النكار — الامام عبد الوهاب ريثما ترد فتوى المشارقة حول الامامة المشروطة ، وسياسة الامام فى تنصيب عماله (634) .

كما احتكم الامام عبد الوهاب وخلف بن السمح أيضا الى فقهاء المشارقة فى مسألتى تعدد الائمة وحق الرعية فى اختيار عمالها (635) . ولم يتوان اعلام المذهب وفقهائه عن البت فى تلك المسائل أو القضايا . وعلى الرغم مما تصوره المصادر الاباضية من أن فتاوى المشارقة كانت فى صالح الامامة ، فلا نعدم وجود ما يشير الى استيائهم من سياسة عبد

---

(630) ابو زكريا : السيرة : ورقة 18 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .
(631) انظر ابن ثاويت دولة الرستميين : ص 109 .
(632) ابن الصغير : صفحة 10 .
(633) نفس المصدر : ص 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .
(634) ابو زكريا : ورقة 15 ، الشماخى : السير : ص 146 .
(635) الشماخى : السير : صفحة 181 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوهاب وانتهاكه تعاليم المذهب وخروجه على أحكامه (636) . وعلى أية حال ، فان حرصهم على تحاشى الشقاق ورأب الخلاف أفضى بهم الى تهدئة الخواطر بأسداء النصح لاطراف النزاع جميعا (637) .

كان حرص رؤساء التنظيم الام فى البصرة على استمرار الامامة فى تاهرت ودعمها شغلهم الشاغل ، فقد أفتوا بجواز تقاعد الامام عن الحج حرصا على سلامته (638) ، كما كلفوا أنفسهم مشقة نسخ آلاف التآليف والتصانيف لتزويد المكتبة « المعصومة » بتاهرت بها (639) . ولا غرو فقد وجدت هذه الكتب اقبالا لدى أباضية المغرب ، فأقبلوا على دراستها وتصدوا للانحرافات المذهبية وخروج الائمة فى سياساتهم عن تعاليم المذهب (640) على هدى ما ورد فيها .

كما حرص المشارقة على انفاذ بعوثهم لتفقد أحوال الدولة الرستمية (641) والتدريس فى مساجدها (642) والافتاء فى مشاكلها وقضاياها (643) . وفضلا عن ذلك فقد نقلوا معهم الى المغرب تقاليد الحضارة والفن الشرقى (644) .

ومن المعروف أن المتاجر والسلع الشرقية كانت ترد الى تاهرت عن طريق الاباضية المشارقة ، فيخبرنا الشماخى (645) أن الربيع بن حبيب ــ خليفة أبى عبيدة مسلم بن ابى كريمة ــ كان يبعث أخاه بصحبة ما يحتاجه الامام عبد الوهاب من صنوف البضائع والسلع الشرقية .

والمصادر خلو من أية اشارة الى استمرار هذه العلاقات بعد امامة عبد الوهاب باستثناء اشارة عابرة أوردها بعض مؤرخى الاباضية (646) عن اهتمام أفلح بن عبد الوهاب بتواليف أعلام المذهب من المشارقة ــ

---

(636) الشماخى : السير ص 147 .
(637) انظر : ملحق رقم (4) .
(638) أبو زكريا : ورقة 23 .
(639) البرادى : رسالة فى بعض كتب الاباضية . ورقة 207 ، الشماخى : السير . ص 162 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 26 .
(640) الوسيانى : سير ابى الربيع ورقة 79 .
(641) الشماخى : السير . صفحة 165 .
(642) نفس المصدر : صفحة 279 .
(643) نفس المصدر : ص 228 ، الوسيانى : ورقة 2 .
(644) Marcais, G : La Berberie musulmane. P. 116.
(645) السير . صفحة 161 .
(646) انظر : الوسيانى : ورقة 70 ، البرادى : رسالة فى بعض كتب الاباضية ورقة 206 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخاصة ما كتبه أبو سفيان محبوب بن الرحيل ـــ وحضه رعيته على اتباع سننهم . ولو صح ذلك ، لكان افلح آخر ائمة بنى رستم الذين اعترف جمهور الاباضية بامامتهم كما يذهب الورجلانى (647) . ونعتقد أن استياء أعلام المذهب فى الشرق من خروج عبد الوهاب على تعاليم المذهب تطور الى رفض وانكار لامامة خلفائه ، فقد تحولت الامامة الى ملك وراثى ، وضاعت هيبتها ، وامتهنت رسومها ، فكان ذلك ثمينا بعزوف اباضية الشرق عن مناصرة الدولة الرستمية والاتصال بحكامها .

2 ـــ بنـــو رستم وأمويـــو الاندلس :

اتخذت علاقات بنى رستم بأموى الاندلس طابعا وديا برغم اختلافهما مذهبيا ، فقد أوجبت الضرورة السياسية عقد أواصر الصداقة بين تاهرت وقرطبة ، اذ اشتـــرك الطرفـــان فى عـــداء بنـــى العبـــاس والاغالبـــة والادارسة (648) ، وكان الاغالبة على وجه الخصوص خطرا عليهما معا ، فلم يكن ثمة بد من اتصال بنى رستم باحدى القوى الكبرى المعاصرة ، كما كان أمويو الاندلس ينشدون عقد صلات مع القوى المناوئة لبنى الاغلب فى المغرب ومن ثم التقى الطرفان حول مصالحهما السياسية المشتركة رغم خلافاتهما المذهبية والتاريخية .

وقد بالغ فورنل (649) وماسكراى فى تقدير مدى ما وصلت اليه هذه العلاقات ، فقالا بوجود « تحالف سياسى رسمى » بين تاهرت وقرطبة ضد عدوهما المشترك ، وبرر فورنل ومارسيه (650) ذلك بما « كان من تحالف تقليدى ، بين أموى الاندلس وبين بربر زناتة الذين كانوا عصب الدولة الرستمية » والثابت أن دولة بنى رستم قامت على اكتاف قبائل نفوسة وهوارة ولواتة ولماية وغيرها (651) ، بينما تحولت قبائل زناتة من مغراوة وبنى يفرن ـــ الضاربة فى شمالى الدولة الرستمية ـــ عـــن ولائها لبنى رستم ودانت بالطاعة للادارسة (652) . ومن ناحية اخرى لم تنعد علاقات بنى رستم ببنى امية بالاندلس علاقات الود وتبادل السفارات

---

(647) الدليل لاهل العقول ج 2 ص 76 .
(648) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 1 ص 32 ، Provencal : Op. Cit. P. 245
(649) انظـــر : Les berberes Vol. I. P. 514, Chronique d'Abou Zakaria. P. 220.
(650) انظـــر : Loc. Cit, La berberie musulmane et l'Orient P. 104.
(651) النـــوسى : صفحـــة 4 .
(652) ابن ابى زرع : ص 69 ، سلفاتوركوسا : تواريخ مدينة فاس : ص 4 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والهدايا ، ولم تصل قط الى درجة التحالف أو القيام بعمل سياسى أو عسكرى مشترك ضد أعدائهما ، رغم تعرض الدولة الرستمية لاغارات الاغالبة والادارسة ، وتهديد الاغالبة للنفوذ الاندلسى فى حوض البحر المتوسط الغربى .

وقد أرجع بعض (653) المؤرخين بداية هذه العلاقات الى وقت مبكر وذكروا أن عبد الرحمن بن معاوية الاموى « لاذ ببلاط بنى رستم حينا من الدهر قبل اجتيازه الى الاندلس » ، واكد مرسييه (654) ــ اعتمادا على المقرى ــ انه قضى زمنا فى تاهرت ونواحيها قبل رحيله الى الاندلس. وقول مرسييه هذا صحيح اذا كان يعنى تاهرت القديمة ، وليست تاهرت التى أقامها ابن رستم سنة 161 هـ (778 م) فمن الثابت أنه نزل عند قبيلة نفزة الضاربة بتلك النواحى وقضى هناك زمنا عند أخواله (655) ، ثم جاز الى الاندلس سنة 138 هـ (755 م) (656) . وقد حاول الميلى (657) تبرير قول دوزى ومؤنس ، فذكر أن عبد الرحمن بن رستم أجاز عبد الرحمن الاموى الى قبائل المغرب الاوسط اعتمادا على نفوذه هناك قبل تأسيسه تاهرت . لكن رواية دوزى ومؤنس وتفسير الميلى غير صحيحة ، فعبد الرحمن بن رستم فضلا عن عدم تأسيسه دولته فى الوقت الذى وطأ فيه عبد الرحمن الاموى ارض المغرب سنة 133 هـ (751 م) ، لم يكن له نفوذ فى بلاد المغرب الاوسط آنذاك ، فصلاته بقبيلة لماية بالمغرب الاوسط لم تقم الا بعد ولايته القيروان كنائب لابى الخطاب المعافرى سنة 141 هـ (658) (758 م) ويخيل الينا أن الامر التبس على دوزى ومن نقل عنه ، فخلطوا بين شخصيتى عبد الرحمن بن رستم وعبد الرحمن بن حبيب أمير افريقية فى ذلك الحين (659) .

والمعقول أن تكون تلك الصلات قد بدأت بعد رحيل عبد الرحمن بن

---

(653) انظر Dozy : Spanish Islam. P. 166. مؤنس : فجر الاندلس : ص 664 .

(654) انظر : Histoire de l'etablissement des Arabes ... P. 76.

(655) كانت أم عبد الرحمن من سبايا نفزة ، انظر : ابن عذارى : ج 2 ص 62 . ابن الابار : الحلة السيراء : ج 1 ص 35 . وقد ذكر ابن الخطيب انه نزل على مغيلة وليس على نفزة . انظر : أعمال الاعلام : ج 2 ص 8 .

(656) ابن الابار : صفحة 35 .

(657) انظر : تاريخ الجزائر . ج 2 ص 16 .

(658) ابن خلدون : ج 6 ص 121 . مارسيه : مادة بنى رستم ــ دائرة المعارف الاسلامية . صفحة 92 .

(659) ابن عذارى : ج 2 صفحة 60 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رستم الى المغرب الاوسط واختطاطه مدينة تاهرت ، فيبدو أن ابن رستم استعان بخبرة الاندلسيين فى انشاء المدينة وتعميرها ، ولا غرو فقد سمى أحد أبواب المدينة « باب الاندلس » (660) ، وان كان بروفنسال (661) قد تشكك فى وجود مثل تلك الصلات المبكرة . لكن وجود مغاربة اباضية فى بلاد الاندلس اذ ذاك يرجح ما ذهبنا اليه ، فقد غص اقليم الجزيرة بالكثيرين منهم ، ومنهم من تقلد بعض الوظائف العامة فى امارتى عبد الرحمن الاول وابنه هشام (662) . ويبدو أن نفوذ هؤلاء الاباضية — ومنهم بعض افراد البيت الرستمى — (663) قد ازداد بدرجة استثارت الاندلسيين فى عهد الحكم الاول ، فانبرى الشعراء يهيبون به البطش بهم (664) ، فخرج اليهم بنفسه ونزل الجزيرة « وحمل السيف على اكثر اهلها » (665).

وهذا يفسر قول ابن حيان (666) بترحيب عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم بالثائرين على الحكم الاموى ، وتشجيعه عبد الله البلانسى — عم الحكم — للوثوب على الامارة فى قرطبة وانتزاع الحكم من ابن أخيه .

وزالت تلك الجفوة بين تاهرت وقرطبة بعد وفاة الحكم سنة 206 هـ (821 م) ، وعادت الصلات الودية الى سابق عهدها فى عهد عبد الرحمن ابن الحكم (306 — 238 هـ) (667) (821 — 853 م) ، فقد نقل بروفنسال (668) عن ابن حيان أن عبد الوهاب الرستمى ، أوفد سفارة من ابنائه الثلاثة — عبد الغنى ودحيون وبهرام — لتجديد أواصر الود مع عبد الرحمن ، وأن الاخير رحب بهم وابتهج لمقدمهم . وذكر ابن سعيد (669) أنه انفق عليهم « ألف الف دينار » فضلا عن الهدايا والالطاف التى أنعم بها عليهم قبل رحيلهم الى بلادهم .

واستمرت صلات المودة بعد موت عبد الوهاب بن رستم ، فعول

---

(660) البكرى : ص 66 ، القلقشندى : ج 5 ص 111 .
(661) انظر : Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 241.
(662) ابن القوطية : صفحة 71 .
(663) من هؤلاء محمد بن سعيد بن رستم الذى تقلد ولاية شذونه ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن رستم ، وقد خدم فى جند الحكم بن هشام .
(664) حث الشاعر عباس بن ناصح الحكم على ذلك بقوله :
صل بالاثيل الذى ربوا لفتنتهم من قبل ان يرحلوه نحونا جذعا
(665) ابن القوطية : صفحة 71 ، 72 .
(666) انظر : Provencal : Op. Cit. P.P. 152, 244.
(667) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .
(668) انظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P. 245.
(669) المغرب فى حلى المغرب : ج 1 ص 48 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبد الرحمن بن الحكم على « وصل البعوث الى دار المغرب » (670) . فوجدت فى بلاط أفلح بن عبد الوهاب أيما ترحاب . وقرب الامير الاندلسى اليه كثيرين من آل البيت الرستمى ، واتخذ منهم الوزراء والحجاب والقواد ، ونعرف أن شخصا يدعى عبد الرحمن بن رستم ولى الحجابة لعبد الرحمن الثانى (671) ، وقيل الوزارة (672) فى رواية أخرى .

ويخبرنا ابن الدلائى (673) أن الامير الاندلسى فوض قائده محمد ابن سعيد بن رستم سنة 229 هـ (844 م) فى قتال المجوس ، وقد تمكن بالفعل من النجاح فى مهمته (674) .

وتوطدت عرى الصداقة بين أفلح بن عبد الوهاب ومحمد بن عبد الرحمن الاندلسى (238 ــ 273 هـ) (675) (853 ــ 887 م) ، فقد استقرت أمور الاندلس فى عهده وازدهرت أحوالها (676) ، وتطلع نحو بلاد المغرب لتدعيم صلته مع تاهرت وسجلماسة (677) . وقد زعم بروفنسال (678) أن الامير محمد بعث بهداياه الى تاهرت لما تقلد أفلح ابن عبد الوهاب الامامة . كما بعث اليه بأخبار انتصاره على المجوس عند نهر الوادى الكبير سنة 230 هـ (855 م) لكن افلح تولى الامامة فى تاهرت سنة 207 هـ (822 م) ولم يتقلد الامير محمد حكم الاندلس قبل سنة 238 هـ (853 م) . وهذا أيضا مما يخطىء قوله عن هزيمة المجوس على يديه ، فالراجح أن ذلك لم يحدث الا سنة 246 هـ (679) (861 م) . ولو صح أن الامير الاندلسى أرسل الى صديقه الرستمى بأنباء انتصاراته سنة 246 هـ ،فان أفلح كان سباقا فى هذا الصدد ، اذ بادر بارسال خبر احراقه مدينة العباسية التى بناها الاغالبة سنة 239 هـ (854 م) الى

---

(670) ابن سعيد : نفس المصدر : صفحة 46 .
(671) نفس المصدر : صفحة 50 ، Marcais, G : La Berberie musulmane. P. 104
(672) مارسيه : مادة بنى رستم ــ دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ، Faroughy : Op. Cit. P. 15.
(673) نصوص من الاندلس ص 99 ، 100 .
(674) نفس المصدر والصحيفة ، Provencal : Op. Cit. P. 246.
(675) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .
(676) نفس المصدر : ص 495 ، المقرى : نفح الطيب ج 1 ص 329 .
(677) ابن عذارى : ج 2 ص 161 ، محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام فى الاندلس ج 3 صفحة 23 .
(678) انظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P.P. 245, 281.
(679) انظر : Condé : Op. Cit. P. 299.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الامير محمد « تقربا اليه » فبعث اليه الاموى مائة الف درهم (680) دليلا على اغتباطه وامتنانه ، وتأكيدا لاواصر الصداقة فى مواجهة الخطر المشترك (681) .

وظلت هذه العلاقات الودية قائمة بعد موت افلح على الرغم مما تعرضت له الدولتين من خطر الفوضى والتمزق السياسى ، ومع ذلك فلا محل لتصديق قول ابن عذارى (682) — ومن نقل عنه (683) — عن دخول الامام الرستمى ابى اليقظان محمد فى طاعة الامير محمد الاندلسى . والمعقول أن يكون الامام الرستمى قد ناشد صديقه أمير قرطبة العون ضد خصومه ليس الا وعلى اية حال ، لم يظفر ابو اليقظان بطائل ، اذ غرقت الامارة الاندلسية فى ذلك الحين وحتى بداية حكم عبد الرحمن الناصر فى مشاكلها الداخلية (684) . على أن تقاعس الامير محمد عن مساعدة صديقه لم يكدر صفو علاقاتهما ، فظلت صلات الود مرعية بين الطرفين ، وليس ادل على ذلك من اسراع عمر بن حفصون — الثائر على امراء قرطبة — بمغادرة تاهرت خشية ان يقبض عليه امامها ويسلمه لصديقه أمير قرطبة ، وكان ابن حفصون قد نزل تاهرت لائذا بصديق له من بلدة رية ومقيم بتاهرت (685) .

بل نعتقد انه برغم تدهور احوال الامامة الرستمية بعد ابى اليقظان محمد ، وانشغال الامارة الاموية بالاندلس بمواجهة الثورات التى تفاقمت خلال عهدى المنذر بن محمد وعبد الله بن محمد ، فقد أوجبت الضرورة السياسية مزيدا من توثيق الصلات بين تاهرت وقرطبة . اذ استبدل الخطر الاغلبى بخطر جديد لاحت نذره مهددا كافة القوى السياسية فى المغرب والاندلس على السواء ، وهو الخطر الفاطمى . وهذا ما حدا بأمراء قرطبة الى بث عيونهم فى بلاد المغرب والاستعانة بأصدقائهم حكام تاهرت فى تقصى اخبار الشيعة ومتابعة نشاطهم والاعداد لمواجهتهم (686) .

---

(680) البلاذرى : فتوح البلدان ص 277 .
(681) لا نوافق فورنل قوله بأن هذا الحادث يكشف عن الخيوط الاولى للعلاقات بين تاهرت وقرطبة . انظر : Les Berbers. Vol. I. P. 514.
(682) البيان المغرب . ج 2 صفحة 161 .
(683) انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 2 ص 22 ، Dozy : Op. Cit. P. 317 Provencal : Op. Cit. P. 281.
(684) انظر المقرى : ج 1 ص 345 وما بعدها .
(685) ابن القوطية : صفحة 110 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبديهى أن يفكر الرستميون الاواخر فى الاستعانة بقرطبة للقيام بعمل مشترك ضد الخطر الشيعى (687) . لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فقد سقطت الدولة الرستمية بتاهرت سنة 297 هـ (909 م) ، وبعدها سقط بنو مدرار والادارسة ، وفتح المغرب برمته على يد الشيعة الفاطميين ، ولم يقم حكام قرطبة بجهود لمجابهتهم الا فى عهدى عبد الرحمن الناصر (678) والحكم المستنصر ، ولا يخفى ما كان من اتصال الحكم المستنصر بالاباضية النكار الذين تصدوا لمقاومة الفاطميين بعد سقوط الدولة الرستمية (689).

وهكذا — تأثرت علاقات بنى رستم — الى حد كبير — بظروف دولتهم الجغرافية ومذهبهم الدينى ومصالحهم السياسية والاقتصادية .

---

(686) ابن عذارى : ج 1 صفحة 150 . محمود مكى : التشيع فى الاندلس : ص 111.
(687) Brunschvig : Op. Cit. P. 17.
(688) ابن خلدون : ج 4 صفحة 41 .
(689) ابن حيان : المقتبس فى ذكر بلد الاندلس ص 192 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباب الرابع

الخوارج والفاطميون في بلاد المغرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اولا :

الصفرية والفاطميون

أ - الفاطميون وسقوط دولة بني مدرار

ارتبطت نهاية دولتى الخوارج فى المغرب بظهور الدعوة الفاطمية ، فقيام الدولة الفاطمية سنة 297 هـ (909 م) تم على انقاض الدول المستقلة فى المغرب ، ومن بينها دولتى بنى مدرار وبنى رستم الخارجيتين .

ومن المعروف ان بلاد المغرب كانت ميدانا للدعوة الفاطمية منذ وقت مبكر ، فقد عهد محمد الحبيب المقيم بسلمية — من ارض حمص — الى اثنين من دعاته ببث دعوته فى بلاد كتامة ، ونجحا فى التمهيد لما قام به ابو عبد الله الشيعى داعية عبيد الله المهدى فيما بعد (1) . واستطاع ابو عبد الله الشيعى الذى نزل بلاد المغرب سنة 280 هـ (893 م) ان ينشر دعوته بين قبائل كتامة ، كما نجح فى اعداد جيش (2) منهم تمكن بفضله من مناجزة دولة بنى الاغلب فى افريقية سنة 289 هـ (902 م) ، ولم يمض طويل وقت حتى دانت لنفوذه معظم اقاليمها الغربية .

وبعث ابو عبد الله فى استدعاء مولاه عبيد الله المهدى سنة 292 هـ (905 م) فخرج اليه « يتصدى للسلطان ويخاطر فى طلب الملك » (3) برفقة خاصته وثقاة رجاله (4) . وافلت من عمال بنى العباس وعيونهم فى

---

(1) ابن الاثير : ج 6 ص 127 .
(2) ابن عذارى : ج 1 ص 172 .
(3) ابن الابار : الحلة السيراء ج 1 ص 191 .
(4) اصطحب المهدى فى رحلته ابنه ابا القاسم ونيروز داعى دعاته ، وطيب ، وابا العباس محمد بن زكريا وابا يعقوب النهرمانى ، ومحمد بن عزيزة ، وجعفر الحاجب . انظر : اليمانى : سيرة جعفر الحاجب ص 110 .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر والمغرب لما بذله من أموال وهبات (5) ، فضلا عن تشيع بعض هؤلاء العمال لآل البيت (6) . ووصل المهدى الى طرابلس ، وانفذ أبا العباس محمد بن زكريا — أخ ابى عبد الله الشيعى — بصحبة بعض رجال كتامة الى أخيه ليعرفه بوصوله ، وأثر الانتصار بطرابلس . لكن ابا العباس وقع فى أسر بنى الاغلب (7) ، فاضطر المهدى لمغادرة طرابلس الى قسطيلية — ببلاد الجريد — وأحجم عن التوجه الى الشيعى بكتامة خوفا على حياة أخيه (8) . ولما علم بأن زيادة الله الاغلبى أرسل كتابا الى عامل قسطيلية فى طلبه ، غادرها على التو ، ويمم وجهه شطر سجلماسة فى اقاصى الصحراء ليأمن شر الاغالبة وعمالهم (9) .

وكان على المهدى ان يجتاز اراضى الدولة الرستمية كيما يصل الى سجلماسة ، فمر بوارجلان — شمالى سدراته — وهناك اكتشف أمره ، ولقى عنتا من اهلها (10) ، فغادرها الى سجلماسة (11) .

ونزل المهدى بسجلماسة على أميرها اليسع بن مدرار ، ونعم هناك بحياة آمنة لما قدمه اليه من أموال وهدايا ، « فقربه اليسع وكف عنه » (12) ، كما حظى باحترام اهل المدينة واجلالهم (13) ، وعاش طليقا منعما فسكن القصور واقتنى الخدم والاتباع (14) ، ويخيل الينا أن التشيع وجد طريقه الى سجلماسة قبل مقدم المهدى ، ومن المؤكد انه لم يعدم انصارا واتباعا بين سكانها ، فذلك ما توحى به بعض الروايات الشيعية (15) ، وغير الشيعية (16) ولا غرو فقد كانوا يلجأون اليه للافتاء

---

(5) انظر : افتتاح الدعوة ص 42 ، 43 بملاحق كتاب Ivanov : Ismaili tradition.

(6) انظر : شرح الاخبار ج 5 ص 31 بنفس المصدر السابق .

(7) اليمانى : سيرة جعفر ص 116 .

(8) افتتاح الدعوة ص 43 .

(9) النيسابورى : استتار الامام ورقة 14 ، اليمانى : ص 116 ، افتتاح الدعوة ص 43 ، ابن الابار : ج 1 ص 191 ، المقريزى : اتعاظ الحنفا ص 84 ، العينى : عقد الجمان ج 15 ورقة 153 ، Biquet ; Op. Cit. P. 69.

(10) ابو زكريا : ورقة 35 .

(11) اليمانى : ص 119 .

(12) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابن خلدون ج 3 ص 363 المقريزى : اتعاظ ص 84 ، الخطط ج 1 ص 350 .

(13) افتتاح الدعوة ص 43 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهدى ص 14 ، De Goeje : Memoires sur les carmathes de Bahrin. P. 66.

(14) اليمانى : ص 122 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 42